



وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

الجامعة الإسلامية - بغداد

كلية أصول الدين

المعاهدات والوثائق والمكاتبات السياسية في عصر النبوة

أطروحة مقدمة إلى مجلس كلية أصول الدين / الجامعة الإسلامية -
بغداد

من الطالب

رياض عدنان محمد

وهي جزء من متطلبات نيل درجة الدكتوراه فلسفة أصول الدين

بإشراف

الأستاذ الدكتور : ليبي إبراهيم أحمد العبيدي

١٤٣١ هـ
بغداد
٢٠١٠ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا
الْفَاسِقُونَ﴾ * أَوْ كَلِمًا عَاهَدُوا وَعَهْدًا نَبَذَهُ

فَرِيقٍ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

صدق الله العظيم

(سورة البقرة ، الآية / ٩٩ - ١٠٠)

الإهداء

- الى الأمي الذي علم الانسانية القراءة والكتابة .. الرسول محمد (ﷺ) ... تعظيماً وإجلالاً .

- الى الأرض التي تملؤها أنفاس الياسمين رغم فحيح الأفاعي .. أرض الرافدين ... حباً واعتذاراً .

- الى الذي لولاه لما أمسكت أناملي قلماً .. والدي ... تقديراً ووفاءً .

- الى الشفاه التي أكثرت لي الدعاء .. والدتي ... عرفاناً وإخلاصاً .

- الى من أشد بهم أزرى .. إخوتي وأخواتي الأعزاء .

- الى الشموع المضيئة .. أساتذتي الأفاضل .

- الى زملائي الذين قضيت معهم سنين دراستي ، وكل من ساعدني في إنجاز هذه الأطروحة ولم يرد اسمه فيها .

الباحث

إقرار المشرف

أشهد بأن إعداد هذه الأطروحة الموسومة ﴿ المعاهدات والوثائق والمكاتبات السياسية في عصر النبوة ﴾ ، التي تقدم بها الطالب : (رياض عدنان محمد) قد جرى تحت اشرافي في كلية أصول الدين / الجامعة الاسلامية ، وهي جزء من متطلبات نيل درجة الدكتوراه فلسفة أصول الدين ، تخصص () .

التوقيع

الأستاذ الدكتور : لبيد إبراهيم أحمد العبيدي

المشرف

التاريخ :

بناء على التوصيات المتوافرة أرشح هذه الأطروحة للمناقشة .

المشرف على الدراسات العليا في الكلية

التوقيع :

التاريخ :

إقرار لجنة المناقشة

نشهد بأننا أعضاء لجنة المناقشة اطلعنا على هذه الأطروحة الموسومة :
(المعاهدات والوثائق والمكاتبات السياسية في عصر النبوة) ، والتي تقدم بها
الطالب : (رياض عدنان محمد) ، وقد ناقشنا الطالب في محتوياتها ، وفيما له
علاقة بها ، ووجدنا أنها جديرة بالقبول لنيل درجة الدكتوراه فلسفة أصول الدين ،
تخصص () ، وبتقدير ﴿ جيد جداً ﴾ .

التوقيع
عضوا

التوقيع
رئيسا

التوقيع
عضوا

التوقيع
عضوا

التوقيع
أ. د. لييد ابراهيم أحمد العبيدي
مشرفا

التوقيع
عضوا

صدق من قبل مجلس كلية أصول الدين / الجامعة الإسلامية .

التوقيع
الاستاذ الدكتور صبحي فندي الكبيسي
العميد

﴿ شكر و عرفان ﴾

إن من آداب الاسلام أن يعرف الفضل لأهل الفضل ، ويذكر الساعون بالخيرات ، لما قدموه من المآثر والعطاءات ، وقد روي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ من لم يشكر الناس لم يشكر الله ﴾ ^(١) ، وإذا كان من الواجب أن يذكر أهل الفضل بفضلهم ، وأن يرد الحق الى أهله ، فإنني أتقدم بالشكر الجزيل والثناء الجميل الى فضيلة الأستاذ الدكتور لبيد ابراهيم أحمد العبيدي على متابعة خطوات هذه الأطروحة ، ومنحه إياها جل اهتمامه وانظاره بما أتاه الله من فكر ثاقب ، ورأي راجح ، وسعة إصلاح ، فله من الله وعز وجل الأجر والثواب ، ومني أخلص الود والوفاء .

وأتوجه سلفاً لأعضاء لجنة المناقشة الموقرة بالشكر والعرفان من الله تعالى أن يأخذ بأيديهم ليكونوا عوناً لي ولإخواني الدارسين على تجنب العثرات ، وتصحيح الهفوات ، وتقويم البحوث والدراسات .

(١) سنن الترمذي ، للإمام أبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي السلمي (ت ٢٧٩ هـ) ، تحقيق : أحمد محمد شاكر وآخرون ، دار احياء التراث العربي - بيروت ، ٣٣٩/٤ ، كتاب : (البر والصلة عن رسول الله) ، باب : (ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك) ، رقم (١٨٧٨) . وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

كما أسدي شكري و عرفاني الى الدكتور أحمد رشيد حسين العزاوي
الذي أشار عليّ على اختيار الموضوع ، وأعانني على وضع خطته ، ووضع
اللبنات الأولى في بداية عمله .

وأقدم بالشكر والعرفان أيضاً الى مشايخي وأساتذتي في كلية أصول
الدين في الجامعة الاسلامية بما أبدوه من مساعدة ، وإمدادي ببعض
المصادر والمراجع ، وما كنت بينهم إلا كبائع ماء زمزم على أهل مكة ،
فجزاهم الله عني خير الجزاء .

كما أتوجه بالشكر والعرفان الى والديّ ، والى إخوتي وأخواتي ، والى
زوجتي أم أحمد ، والأخت أم حذيفة ، الذين آزروني ، وذلّلوا لي بعض
الصعوبات ، فجزاهم الله عني خيراً .

وأتوجه أيضاً بوافر شكري و عرفاني الى منتسبي ومنتسبات كلية
العقيدة ، ومنتسبي مكتبة الجامعة الاسلامية في بغداد ، والى جميع موظفي
المكتبات العامة ، وذوي المكتبات الخاصة الذين تعاملوا معي بأريحية
الكرماء ، وهممة النبلاء ، سائلاً الحق جل وعلا أن يوفقنا جميعاً لخدمة
دينه الحنيف .

الباحث

المحتويات

الموضوع	الصفحة
الآية	
الاهداء	
شكر وعرقان	
المحتويات	
المقدمة	١

الفصل الأول

((في تحديد المفاهيم))

المبحث الأول : (تعريف المعاهدات والمواثيق والسياسة)

المطلب الأول : تعريف المواثيق ٩

المطلب الثاني : تعريف المعاهدات ١٣

المطلب الثالث : مفهوم السياسة لغة واصطلاحاً ٢٠

المبحث الثاني : (التفكير السياسي لدى المسلمين)

المطلب الأول : أصالة الفكر السياسي الاسلامي ٢٩

المطلب الثاني : محاولات لبناء مفاهيم سياسية اسلامية معاصرة ... ٤١

المطلب الثالث : كيفية بناء المفاهيم الاسلامية السياسية المعاصرة ٥٥

الفصل الثاني

((دراسة النصوص))

- المبحث الأول : (دستور الأمة والموقف في المدينة قبل الهجرة)
المطلب الأول: موقف المدينة قبل الهجرة ٩٣
المطلب الثاني : معاهدات ووثائق الأمة (المهاجرين والأنصار) .. ١٠٤
المطلب الثالث : بناء الدولة وانعقاد الحكم ١١٣
المبحث الثاني : (الاتفاق مع اليهود)
المطلب الأول : البنود الخاصة بالدستور (اليهود) ١٢٤
المطلب الثاني : الأسباب وراء الاتفاق مع اليهود ١٢٨
المطلب الثالث : نماذج من الوثائق النبوية في التعامل مع النصارى ١٣٩

الفصل الثالث

((العلاقات مع قبائل العرب حتى هدنة الحديبية))

- المبحث الأول : (بنو ضمرة وبنو غفار)
المطلب الأول : المعاهدة مع قبيلة ضمرة ١٤٧
المطلب الثاني : بنو غفار ١٥٤
المبحث الثاني : (بنو جهينة وبنو مسعود الأشجعي)
المطلب الأول : بنو جهينة ١٥٨

المطلب الثاني : محالفة نعيم بن مسعود الأشجعي ١٦٣

المبحث الثالث : (الحديبية ونتائجها)

المطلب الأول : الحديبية ١٦٩

المطلب الثاني : نتائج الحديبية ٢٠٣

المطلب الثالث : المكاتبة الى غسان وبني حنيفة ٢٠٨

الفصل الرابع

((المكاتبة الى الملوك والأمراء خارج شبه الجزيرة العربية))

المبحث الأول : (المكاتبة الى هرقل عظيم الروم)

المطلب الأول : شرح الوثيقة ٢٢١

المطلب الثاني : رد الفعل الذي أحدثه الكتاب في هرقل ٢٢٥

المبحث الثاني : (مراسلة النجاشي ملك الحبشة)

المطلب الأول : العلاقة بين شبه جزيرة العرب والحبشة ٢٣٦

المطلب الثاني : المكاتبة ونتائجها ٢٣٨

المبحث الثالث : (المقوقس ملك مصر)

المطلب الأول : الوثائق إلى المقوقس ٢٤٤

المطلب الثاني : النتائج وردود الفعل ٢٤٧

المبحث الرابع : (مراسلة كسرى امبراطور فارس)

٢٥١	المطلب الأول : تاريخ المجتمع الفارسي
٢٥٤	المطلب الثاني : المكاتبه ونتائجها
٢٦٠	الخاتمة
263	قائمة المصادر والمراجع



الحمد لله الكريم الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم ،
والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين . وعلى آله الطيبين
الطاهرين ، وصحابته الغر الميامين ، ومن تبعهم بإحسان الى يوم الدين .

أما بعد :

فإذا تأمل الانسان في هذا المنعطف الخطير الذي تمر البشرية به اليوم ،
فإنه يوقن أن هذا المنعطف ، وهذه المدة الحرجة من تأريخ البشرية قد
جعلت الحقائق شديدة الوضوح كالشمس في رابعة النهار ، بعد انقشاع
الغيوم الكثيفة ، وهدوء الغبار المتطاير .

فالعالم اليوم يشكو من صراعات متجددة ، تُسفك فيها الدماء ،
وتُنتهك فيها الأعراض ، وتُهدر الأموال ، وتتن شعوب كثيرة تحت نير
المستبدين والمحتلين . ومن أراد دليلاً على ذلك فليحرك آله المذيع شرقاً
وغرباً ؛ ليرى ما يجري في العالم من حروب داخلية وخارجية ، مما يدل
على أن البشرية لم تستفد مما جنته في الحربين العالميتين في القرن الماضي
، وما تلاهما من حروب في القرن الماضي في شتى أنحاء الأرض .

إن من أكبر الحقائق التي صار يؤمن بها إنسان القرن الحادي
والعشرين - وخصوصاً في الشرق - إفلاس جميع المبادئ والنظريات
والفلسفات السياسية الأرضية ، التي كان لها أنصارها الذين عاشوا على

آمالها وأحلامها في القرن الماضي . في حين أثبتت هذه النظريات القديمة والحديثة عوزها وبطلانها شرقاً وغرباً ، وعجزها عن تحقيق طموحات البشرية البائسة . أين ما حققته الشيوعية للانسان من كفاية وغنى ومساواة وازدهار ؟

لقد سقطت الشيوعية دون أن تؤمن للانسان لقمة العيش قبل أن تؤمن له الرفاهية التي وعدته بها . وتحولت الدول الشيوعية الى دول متسولة ، وكانت أعجز من أن تتعامل مع الانسان روحاً تخفق ، وقلباً ينبض بالمشاعر عندما أصرت أن تتعامل مع الانسان عضلة تعمل ، ومعدة تأكل .

أين ما حققته الرأسمالية لشعوب العالم من شعارات براقه ، كالحرية ، والمساواة ، والسلام ؟

لقد ظهر ظلم الرأسمالية أيضاً من خلال دولها المتعطشة لنهب ثروات الأمم الضعيفة ، ولسرقة عقول أبنائها ، ولجعلها سوقاً رائجةً لمنتجاتها ، ومقابر واسعة لسموم ومخلفات مصانعها . ولو كلفها ذلك سيول الدماء البشرية البريئة عبر الحروب المدمرة . لقد انكشف الستار ، وسقط قناع ما يسمى بالنظام العالمي الجديد ، فرأينا حقيقة إنسان الغاب بنزواته الظاهرة وإصراره على تحقيق رغباته ، ولو كان هذا تحت غطاء القرارات الدولية ؛ التي يلبس أصحابها البنطال وربطة العنق ، ويركبون السيارات

الفارحة والطائرات المتطورة ، ولكن على مثل قلوب الذئاب ، وجشع الضباع ، ومكر الثعالب .

فأين الذين ينادون بحرية الانسان وحقوقه ، ودوره في صياغة القرار الدولي ؟! أين الذين ينادون بالعدالة في المنظمة الدولية التي بنيت منذ لحظاتها الأولى على أساس هار وإثم يسمى (الفيتو) ، يعطي القوي حق التسلط على الضعيف ، ويمنع الضعيف من أن ينتصف من القوي ؟ هذا على مستوى العلاقات الدولية الخارجية ، فهل العلاقات الداخلية لدول العالم أحسن حالاً ؟

إن كثيراً من الشعوب ما تزال تننّ تحت رحمة جلاديتها ، متجاهلة حقوقها وواجباتها السياسية ، لا تعرف الفرق بين من يريد صلاحها ، ومن يريد خرابها ودمارها . أنظر الى أفريقيا وما فيها من ثورات ومجاعات ، والغرب الدخيل يسرق قوتها وقوتها ، ويتدخل بلعبة الديمقراطية المزعومة في ترتيب أوراقها ، مدّعياً أنه يؤمن لها الحرية ، وإنما يؤمن بتدخله مصالحة الطامعة ، تاركاً للإعلام حبل تزوير الحقائق على الغارب .

وهكذا تضيع الشعوب بين جلاديتها وسارقيتها ، وتحار بين طاعون قاتل ، وسرطان مدمر .

وإن كان لكل مؤلف رجاء وأمنيات عندما يقدم كتاباً للقراء ، فإن رجائي وأمنيّتي من هذا أن أرى المسلمين حاكمين ومحكومين على وعي

واضح ، يجعل كل طرف منهم على حد سواء يعرف واجباته فيؤديها ، ويعرف حقوقه فيحسن المطالبة بها ، وأن أرى العالم الذي تأكله الحروب اليوم عالماً هادئاً آمناً ، يشعر فيه ابن القرن الحادي والعشرين بالأمان والاطمئنان . الذي تهيئه رسالة الاسلام ودعوته . وما أظن هذه الأمنية التي أتمناها - على الرغم من كثرة الحواجز - تبعد كثيراً عن أمنية كل انسان منصف في هذا الكون ، بل إن كل من في هذا الكون يحلم وينادي بها .

فما السبيل التي تحقق هذه الأمنية ؟

إن كل قيم الأرض اليوم عاجزة عن الوصول الى هذه الأمنية الغالية ، وستبقى عاجزة حائرة ما دامت متنكبة عن شرع الخلاق الخبير ، الذي خلق البشرية ويعلم ما يصلحها : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (١) .

أما نحن معشر المسلمين فنعتقد أن حل مشاكلنا كلها ، وصلاح دنيانا وأخرانا بهذا الدين ، الذي ارتضاه الله ﷻ لنا عندما قال : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ (٢) .

(١) سورة تبارك ، الآية / ١٤ .

(٢) سورة المائدة ، الآية / ٣ .

وكثيراً ما يتردد بيننا عبارة : (الاسلام صالح لكل زمان ومكان) ،
ولكن هذه العبارة لا تعبر عن كل الحقيقة ، فهي لا تعدو أن تخبر بصالح
الشريعة ، ولكنها لا تنفي صالح الزمان والمكان بغيرها ، والعبارة
الصحيحة (لا يصلح الزمان والمكان إلا بالشريعة) ؛ وما مشاكلنا إلا
نتيجة تنكبنا عن هذا الدين الذي ارتضاه الله لنا ، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ
أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
أَعْمَى ﴾ (٣) .

من أجل هذه المعاني وإحساساً مني بالمسؤولية وقع اختياري على
موضوع يتعلق بالفقه السياسي الاسلامي ؛ ليساهم في العودة الى النبع
الصافي - السنة النبوية - التي هي المنهج العملي ، والتطبيق الواقعي للفكر
السياسي الاسلامي ، وفيها الحل لكل مشكلاتنا المعاصرة . هذا وقد سمت
اختياري هذا بـ (المعاهدات والوثائق والمكاتبات السياسية في عصر النبوة
). (

ذلك أن المعاهدات التي أبرمها الرسول ﷺ والوثائق التي عقدها فيها
الكثير من الأفكار السياسية على مستوى الفرد والجماعات ، كما أنها
رسمت الخطوط العريضة لعلاقة الدولة الاسلامية بغيرها من الدول ، كما
أننا نجد في هذه المعاهدات والوثائق الكثير من المعاني الانسانية ، التي

(٣) سورة طه ، الآية/ ١٢٤ .

تؤكد أصالة الفكر السياسي الاسلامي ، وترد على الكثير من التقولات التي أرادت إيهام العقل البشري بأن الاسلام دين لا يعرف السياسة ، ولا يحترم حريات الناس ومعتقداتهم .

- منهجية البحث :

لقد سارت هذه الدراسة على منهجية ثابتة ، وهي عرض الوثائق والمعاهدات النبوية من مصادرها المعتمدة ، وتوثيقها ، واستنباط ما فيها من معاني ، وأفكار سياسية مع المقارنة بالواقع ، وانعكاس ذلك عليه . ولكني لم أتناول جميع الوثائق والمعاهدات ، فهناك الكثير منها التي لم أتناوله في أطروحتي ؛ لأنني لم أجد فيها بعداً سياسياً ، فقد وقفت على أشهر تلك الوثائق والمعاهدات التي احتوت على أبعاد سياسية متعددة يمكن الاستفادة منها في علم السياسة الشرعية .

وقد اعتمدت في هذه الدراسة كتب التاريخ والسيرة النبوية ، وكتب التاريخ السياسي ، كما استعنت ببعض الرسائل والأبحاث المعاصرة.

- الدراسات السابقة على هذه الدراسة :

فبالنسبة للدراسات السابقة لهذه الدراسة ، فإن أوسعها وأهمها في هذا الباب دراسة الأستاذ محمد حميد الله الموسومة بـ (مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة) ، فهي دراسة قيمة استفدنا منها كثيراً .

فضلاً على ذلك دراسة الدكتور أحمد حمد (الجانب السياسي في حياة الرسول ﷺ) وفيها الكثير من الأبحاث المفيدة ، وقد وقفنا عليها ، واستنبطنا منها أيضاً .

وكذلك الدراسة التي قام بها الدكتور سيف عبد الفتاح الموسومة (في النظرية السياسية من منظور إسلامي منهجية التجديد السياسي وخبرة الواقع العربي المعاصر) ، وهي دراسة قد أطرت للنظرية السياسية الاسلامية ، وفيها الكثير من الأفكار القيمة .

وكذلك ما كتبه الأستاذ عبد المتعال الصعيدي (السياسة في العهد النبوي) . تلك أهم الدراسات التي سبقت هذه الدراسة .

- خطة الدراسة :

أما خطة الدراسة ، فقد قسمتها على مقدمة ، لبيان أسباب اختيار الموضوع .

وأربعة فصول ، جاعلاً الفصل الأول لتحديد المفاهيم ، مقسماً إياه على مبحثين .

والفصل الثاني لدراسة النصوص مقسماً إياه على مبحثين .

والفصل الثالث للحديث عن العلاقات مع قبائل العرب حتى هدنة الحديبية مقسماً إياه على ثلاثة مباحث .

والفصل الرابع للحديث عن المكاتبة الى الملوك والأمراء خارج شبه جزيرة العرب مقسماً إياه على أربعة مباحث .

ثم الى خاتمة تضمنت أهم النتائج التي خرجت بها الأطروحة ،
والتي من أهمها وأبرزها : أن الوثائق والمعاهدات النبوية قد كانت الواقع
العملي للفقهاء السياسي الاسلامي ، وأنها دلت على أصالة الفكر السياسي
الاسلامي ، وليس كما يدعي بعض الباحثين والكتابين من المتأثرين بالفكر
الاستشراقي الغربي - من أنه فكر سياسي مأخوذ من الفكر اليوناني
والأغريقي - .

- الصعوبات التي واجهت الأطروحة :

لقد واجهت أثناء الاعداد لهذه الأطروحة الكثير من الصعوبات ،
منها : قلة المصادر المتعلقة بموضوع الأطروحة ، وصعوبة التنقل بسبب
الظروف التي تعصف ببلدنا ، فضلاً عن ذلك لا يخفى على مطلع وسامع
، وكذلك ما عصفت بي شخصياً من ظروف خاصة قاهرة جعلت الأطروحة
تخرج بهذه الصورة ، فأنا أعتذر سلفاً عما في الأطروحة من تقصير .

وبعد ، فهذا جهدي جهد المقل أضعه بين يدي أساتذتي ، فما كان
فيه من خير فمن الله ، وما كان غير ذلك فمن نفسي والشيطان ، والله
ورسوله منه براء .

اللهم اجعلنا من الدعاة الى صراطك المستقيم وطريقك القويم ، وحبب
إلينا العلم ، وقربنا منك يارب ، واجعل عملنا هذا خالصاً لوجهك الكريم

والحمد لله أولاً وآخراً

المطلب الأول

تعريف الموثيق

الموثيق في اللغة :

يقال : (وثق الشيء بالضم ، توثق ، وثاقه ، وميثاقا ، قوي وثبت فهو وثيق ثابت محكم ، والجمع على الأصل موثيق ، وميثاق ، لأن أصل ميثاق موثق ، قلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها، وتجمع في ضرورة الشعر ميثاق)^(١) ، (وهو أصل صحيح يدل على عقد وإحكام)^(٢) ، (ووثقت بفلان أثق به ثقة

(١) ابن منظور ، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم الأفرقي المصري ، ت ٧١١هـ ، لسان العرب (مادة وثق) ، مطبعة دار بيروت للطباعة والنشر (لبنان ١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م) ٣٧١/١٠ ، والفيومي ، أحمد بن محمد بن علي (ت ٧٧٠) ، المصباح المنير في غريب شرح الكبير للرافعي ، بيروت لبنان (د. ت) (مادة وثق) ، ٦٤٧/٢ .

(٢) ابن فارس ، أحمد بن فارس بن زكريا أبو الحسين اللغوي (ت ٣٩٥ هـ) ، معجم مقاييس اللغة ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، دار الجيل ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م ، ٨٥/٦ .

ووثوقا ، وأنا واثق منه ، وهو موثوق به بمعنى ائتمنه^(١) ، (وهو وهي وهم
وهن ثقة لأنه مصدر ، ويجمع على ثقات للرجال ونساء)^(٢).

والوثاق : (هو الحبل أو حبل يشدّ به الأسير والدابة)^(٣) ، (وواثقني
بالله ليفعلن كذا ، أي عاهدني يعني حلف ، وإنما سمي الحلف موثقا ، لأنه
مما توثق به العهود وتؤكد)^(٤) ، واستوثق منه : أخذ منه الوثيقة ، والوثيقة
في الأمر : إحكامه والأخذ بالثقة ، والجمع الوثائق ، والموثقة المعاهدة ،
وتواثقوا عليه أي تحالفوا وتعاهدوا^(٥).

(١) الفيومي ، المصباح المنير ، ٦٤٧/٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ٦٤٧/٢ .

(٣) ابن منظور : لسان العرب ، ١٠ / ٣٧١ .

(٤) الزبيدي : السيد محمد مرتضى الحسيني ، تاج العروس من جواهر القاموس ،

طبعة وزارة أوقاف الكويت ، (د . ت) مادة (وثق) ٤٥٠/٢٦ .

(٥) المصدر نفسه ، ٤٥١/٢٦ .

المواثيق في الاصطلاح :

تُعرف المواثيق بأنها : (عهد أكّد وأضيف إليه يمين)^(١) ، أو هي كالعهد المؤكدة غاية التوكيد^(٢) ، يقول الطبري عن الميثاق : (من التوثيق باليمين ونحو من الأمور التي تؤكد القول)^(٣) .

وقد عرف محمد حجازي الميثاق بتعريف أوسع وأشمل فقال : (العهد الموثق المؤكد الذي وثقوه بينهم وبين الله ، وبينهم وبين العباد من العقود ، والمعاملات ، والعهد ، والالتزامات)^(٤) .

(١) الراغب الأصفهاني : أبو القاسم ، الحسين بن محمد (ت ٥٠٢ هـ) ، المفردات في غريب القرآن ، تحقيق : سيد كيلان ، دار المعرفة بيروت ، لبنان (د . ت) ، ص ٥٣٧ .

(٢) النسفي : أبو بركات عبد الله بن أحمد محمود النسفي (ت ٧٠١ هـ) ، تفسير القرآن الجليل المسمى بـ (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٥٤/١ .

(٣) الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الأملي ، ت ٣١٠ هـ ، تاريخ الأمم والملوك ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، مصر (١٩٧٠ م) ، ٢٢٩/١ .

(٤) نقله عنه محمد رشيد رضا ، تفسير المنار ، دار المنار ، مصر ، ط ٢ ، ١٣٦٦ هـ ، ٣٤/٩ .

وبهذا يظهر أن أصل الميثاق هو : من الوثوق والطمأنينة ، وإن الذي يعطي العهد بشيء يوثق نفسه ويلزمها على ما في العهد ، وكأن الميثاق عهد على التزام العهد ، فالميثاق فيه إلتزام والتزام ، إلتزام من الطرف الأول ، وتأكيد من الطرف الثاني بالالتزام به ^(١).

(١) ينظر : محمد رشيد رضا ، تفسير المنار ٣٤/٩ .

المطلب الثاني

﴿ تعريف المعاهدات ﴾

المعاهدات في اللغة :

مفردتها معاهدة يقال : (إن المعاهدة هي : المعاقدة والمخالفة ، وعهدك : الذي يعاهدك وتعاهده)^(١) . (والتعاهد : الاحتفاظ بالشيء وإحداث العهد به ، والمعاهد الذمي ، لأنه معاهد ومبايع على ما عليه من إعطاء الجزية والكف عنه ، وهم أهل العهد ، فإذا أسلم ذهب عنه اسم المعاهد)^(٢) ، ولا يقال : (تعاهدته لأن التفاعل لا يكون إلا من اثنين) ، وإنما يقال تعاهدنا وذو عهد ومعاهدة بالبناء للمفعول ، لأن الفعل من اثنين ، فكل واحد يفعل لصاحبه مثل ما يفعل صاحبه به ، فكل واحد في المعنى فاعل (معاهد) ومفعول (معاهد) ، وهذا كما يقال : (مكاتب ومكاتب معه ، ومضارب ومضارب معه)^(٤) .

(١) ابن منظور ، لسان العرب ، ٣/٣١٣ ، والفيومي ، المصباح المنير ٢/٤٣٥ .
(٢) الفراهيدي خليل بن أحمد (ت ١٧٥ هـ) ، كتاب العين ، تحقيق : مهدي المخزومي ، د. ابراهيم السامرائي ، مطبعة الحمديّة ، بغداد ، ١٩٨٧ م ، ١/١٠٢ - ١٠٣ .

(٣) الفيومي ، المصباح المنير ، ٢/٤٣٥ .

(٤) المصدر نفسه ، ٢/٤٣٥ .

المعاهدات في الاصطلاح والقانون :

المعاهدات أو المعاهدة تعرف : (بعقد العهد بين فريقين على شروط يلتزمون بها)^(١).

ففيها إلزام والتزام من الطرفين ، بخلاف الميثاق الذي يكون من الطرف الأول إلزام ، والطرف الثاني عليه الالتزام والوفاء به . أما العهد فليس على الطرف الثاني التزام ووفاء ، وبهذا تكون المعاهدة قريبة من الميثاق أكثر من العهد .

إن المعاهدات مصدر من مصادر القانون الدولي العام ، وهي مع الأعراف الدولية من أجلّ الأصول التي يعتمد عليها رجال القانون الدولي في العضلات التي تحدث بين الدول إن أتحدت القوى ، وإلا فإن الغلبة للأقوى ، لا سيما في العصر الذي يبتعد فيه المجتمع الدولي عن الاقتداء بشريعة الله تعالى ، ومهما تكن قوة المعاهدات الإلزامية فإن فقهاء القانون الدولي قد وضعوا تعريفات شتى للمعاهدات .

من تلك التعريفات ما نص عليه د. علي صادق أبو هيف إذ قال :
(المعاهدات : اتفاقات تعقدها الدول فيما بينها بغرض تنظيم علاقات قانونية دولية ، وتحديد القواعد التي تخضع لها هذه العلاقة)^(٢).

(١) محمد رشيد رضا : تفسير المنار ، ١/١٥١ .

(٢) أبو هيف ، د. علي طارق ، القانون الدولي العام ، ط ٨ ، ١٩٦٦م ، ص ٥٦٥ .

وتمّ بعض الباحثين في القانون الدولي يضعون تعريفين خاصين بالمعاهدات ، إذ يقسمون المعاهدات إلى معاهدات متكافئة ، ومعاهدات غير متكافئة : ("فالتكافئة " هي تلك المعاهدات التي تتناسب شروطها مع قوة الأطراف المتعاقدة على أن تطبق تلك الشروط بصورة مساوية . وغير " المتكافئة " هي تلك المعاهدات التي تفرض وتملى فيها الشروط من قبل طرف أعلى على طرف أدنى)^(١) .

وتوجد مصطلحات يستعملها رجال القانون الدولي ، فتارة تكون مرادفات للمعاهدات ، وتارة أخرى تختلف عنها ، منها : الهدنة ، والاتفاقيات ، والأحلاف . فالهدنة هي : وقف الأعمال العدائية في مدة متفق عليها بين المتحاربين بشرط تبين كيفية تنفيذ هذا الوقت وتحديد نتائجه^(٢) .

وعند الأستاذ علي صادق : (الأصل في رأي الكثيرين من الكتاب أن ينصرف لفظ معاهدات بصفة خاصة إلى الاتفاقيات الدولية العامة ذات الطابع السياسي ، كمعاهدات الصلح ، ومعاهدات التحالف ، وما شابهها .

(١) الحديشي، خليل اسماعيل ، المعاهدات غير المتكافئة ، مطبعة جامعة بغداد ١٩٨٠ م ، ص ١١٤ .

(٢) علي ماهر بك ، القانون الدولي العام ، مطبعة الاعتماد ، مصر - ١٩٢٤ م ، ص ٢٣٣ .

ويستعمل رجال القانون الدولي لفظ : اتفاق ، أو اتفاقية (على ما تتفق عليه دولتان أو أكثر في الأمور الاقتصادية ، أو الثقافية ، أو الاجتماعية ^(١) .

ومن خلال ما تقدم نستطيع أن نقول : إن جميع التعاريف التي ذكرت لا تخرج عن معنى واحد ، وهو الاتفاق . والمعاهدة أنها سبب من أسباب وقف القتال في الاسلام ضد أهل الحرب ، وهي التزام طرفين بعهد يرتبطان بمقتضاه ^(٢) .

وهنا يمكننا أن نوجز التعريف للمعاهدة في الاصطلاح الشرعي بأنها :
مصالحة أهل الحرب ، على ترك القتال مدة معينة بعوض ، أو غيره ^(٣) .
وقد وردت مشروعية عقد الموائقة والمعاهدة في كتاب الله ﷻ ، وسنة نبيه محمد ﷺ .

قال تعالى : ﴿ وَإِنْ جُنْحُوا لِلْسَّلَامِ فَأَجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ ^(٤) .

(١) أبو هيف ، القانون الدولي العام ، ص ٥٦٥ .

(٢) ابن الأثير : عز الدين علي بن أبي مكرم الشيباني (ت ٦٣٠ هـ) ، النهاية في غريب الحديث والأثر ، دار إحياء الكتب العربية (١٣٨٣ هـ / ١٩٦٣ م) ، ٣/٣٢٥ .

(٣) ابن قدامة : موفق الدين عبد الله بن قدامة المقدسي (ت ٦٢٠ هـ) ، المغني ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، (١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م) ، ١٠/٥١٧ .

(٤) سورة الأنفال / آية ٦١ .

وقوله ﷺ : ﴿ من قتل نفساً معاهداً لم يرح رائحة الجنة ، وأن ريحها
ليوجد من مسيرة أربعين عاماً ﴾^(١).

يتعامل كل مجال من مجالات الدراسات الإنسانية والاجتماعية عامة ،
والدراسات السياسية خاصة مع المفاهيم التي تعد في نظر واضعيها من
أساسيات المعرفة في ذلك المجال ، وسواء كانت هذه المفاهيم كلية ، أو جزئية
، فإنها من مكونات الطرح النظري ، والمنهجي الذي يتأسس عليه البناء
المعرفي في هذه الدراسات .

إذ يعد المفهوم الواحد معلومة لها أهميتها وموقعها من البنية المعرفية
التي تقوم عليه الدراسة في هذا المجال ، وسيكون لها أثر ما في الحياة اليومية
إذا وضعت موضع التطبيق ولو جزئياً^(٢).

كما أن الدراسات الانسانية على تنوع مجالاتها وتعدد مصادرها ،
وتمايز أطرها المرجعية قد توصلت إلى هذه المفاهيم نظرياً ، ومارست توظيف
بعضها على الساحة العلمية . وإن مؤسسي هذه المفاهيم يطمحون أن تزدهر

(١) البخاري ، أبو عبد الله محمد بن اسماعيل الجعفي (ت ٢٥٦ هـ) ، صحيح
البخاري ، تحقيق : الدكتور مصطفى بن ديب البغا ، دار ابن كثير ، اليمامة ،
دمشق (ط ١ ، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م) ، كتاب (الجزية) ، باب (إثم من قتل
معاهداً بغير جرم) ، رقم الحديث (٢٩٣٠) ، ٦٥/٤ .

(٢) د . عبد القادر هاشم رمزي ، الدراسات الانسانية في ميزان الرؤية الاسلامية :
دراسة مقارنة ، دار الثقافة ، قطر الدوحة ، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م ، ص ٥ .

هذه الدراسات في كل مجالاتها ويتطلعون إلى أن تكون بدائل للأفكار الإسلامية ، والوعي بطبيعة المفهوم وأهميته يؤكد ضرورة بناء المفاهيم الإسلامية^(١) .
 إن محاولة بناء المفاهيم الإسلامية وفق ذلك الوضع تواجه مجموعة من الصعوبات . ولكن الواقع أن جميع هذه الصعوبات تمثل عقبات نسبية من الممكن التغلب عليها بشكل أو بآخر^(٢) .

فإن المفاهيم الإسلامية شأنها شأن الأحكام الشرعية تتعلق بمصالح العباد وحركتهم . ومن ثم كانت أولى الالتفات ، إليها تحديداً وبياناً ، وأجدي بالاعتماد عليها أساساً وبنیاناً . وكان الالتفات إلى مدركها والنظر في مسالكها من اللزمات والقضايا والواجبات . والإحاطة بمعانيها والمعرفة بمبانيها حتى تذلل طرق الاستثمار ، وينقاد جموح غامض الأفكار^(٣) . حيث تشكل المفاهيم الإسلامية أساساً للمنهجية ، التي تنتظم على أساسها مكنات

(١) د . عبد القادر هاشم رمزي ، الدراسات الانسانية في ميزان الرؤية الإسلامية : دراسة مقارنة ، ص ٥ ، وإسماعيل ، د . سيف الدين عبد الفتاح ، في النظرية السياسية من منظور إسلامي ، سلسلة الرسائل الجامعية ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، القاهرة ، ط ١ ، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م ، ص ٨١ .

(٢) د . حامد عبد الله ربيع ، سلوك المالك في تدبير الممالك ، تحقيق وتعليق : لابن أبي الربيع ، مطبعة دار الشعب ، القاهرة ، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م ، ٣٦/١ .

(٣) سيف الدين الآمدي ، الإحكام في أصول الأحكام ، دار الحديث ، القاهرة ، (د.ت) ، ص ٣ .

الإنسان المعرفية ، وتقويمها في ضوء النصوص الاسلامية ، والمنهج الإسلامي الذي يصدر عن النصوص الاسلامية ويعود إليها^(١) .

(١) د. عبد القادر هاشم ، الدراسات الإنسانية ، ص ٥ - ٦ .

المطلب الثالث

﴿ مفهوم السياسة لغة واصطلاحاً ﴾

السياسة لغةً :

وردت كلمة السياسة في اللغة بمعنى الطبع والقيادة ، وذلك ما يتضح في تعريف العديد من اللغويين لها ، فعلى سبيل المثال :

يعرفها الزمخشري بقوله : (هو يسوس الدواب ، وهو من ساستها وسواسها ، والكرم من سوسه : من طبعه . وتقول : كيف تكون الرعية سوسة ، إذا كان راعيها سوسة . ومن المجاز : الوالي يسوس الرعية ويسوس أمرهم ، وسوس فلان أمر قومه)^(١) .

وابن منظور ورد عنده لفظ السياسة بمعنى الرياسة والقيادة وتحمل المسؤولية ، وهذا ما يتضح في قوله : (السوس : الرياسة ، يقال ساسوهم سوساً ، وإذا رأسوه قيل : سوسوه وأساسوه ، وساس الأمر سياسة : قام به ، ورجل ساس من قوم ساسة وسوس . أنشد :

سادة قادة لكل جميع ساسة للرجال يوم القتال

(١) الزمخشري ، جار الله أبي القاسم محمود بن عمر (ت ٥٣٨ هـ) ، أساس البلاغة ، الطبعة الأولى ، دار الفكر - بيروت ، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦م ، باب السين (السين مع الواو) ص ٣١٣ .

وسوّسه القوم ، جعلوه يسوسهم . ويقال : سوس فلان أمر بني فلان ، أي كلف سياستهم . وفي الحديث : ﴿ كان بنو اسرائيل تسوسهم أنبيأؤهم ﴾^(١) ، أي تتولى أمورهم كما يفعل الأمراء ، والولاية بالرعية . والسياسة : القيام على الشيء بما يصلحه . والسياسة فعل السائس ، يقال : هو يسوس الدواب إذا قام عليها وأرضها - الوالي يسوس رعيته (٢) .

والفيروز آبادي ورد عنده لفظ السياسة بمعنى الأمر والنهي ، وذلك يتضح في قوله : (سست الرعية سياسة : أمرتها ونهيتها) (٣) .

ويتضح مما سبق : أن أصل السياسة في لغتنا العربية من السوس بمعنى الرياسة ، وساس الأمر سياسة قام به ، فالسياسة القيام بأمر الناس بما يصلحها من تحقيق المصالح لهم ودرء المفاسد عنهم .

السياسة اصطلاحاً :

حظي مصطلح السياسة باهتمام بالغ عند أسلافنا (من أدباء وفلاسفة وفقهاء) نجد هذا واضحاً عند العديد منهم .

(١) البخاري ، الصحيح ، كتاب (أحاديث الأنبياء) ، باب (ما ذكر عن بني

اسرائيل) ، رقم الحديث (٣٢٦٨) ، ١٢٧٣/٣ .

(٢) ابن منظور ، لسان العرب ، باب السين ٢١٤٩/٣ .

(٣) الفيروز آبادي ، محمد بن يعقوب الشيرازي ، القاموس المحيط ، فصل السين

والشين ٢٢٠/٢ .

ومن هؤلاء نجد (شهاب الدين بن أبي الربيع) الذي قام بعملية استقراء واسعة لما سبقه من مؤلفات سياسية ، وانتهى الى تعريف السياسة بأنها : (القيام بأمر الناس وتدبير أحوالهم بالدين القيم والسنة العادلة) (١) .

كما نجد مفكراً وأديباً آخر هو (الجاحظ) يعرف السياسة : بأنها (تحقيق النظام وردع الخارجين وتدبير حاجات الناس ؛ لأن الناس لو تركوا دون نظام لفسدوا ، ومن ثم لا بد أن يجتمعوا لتحقيق أهدافهم) (٢) .

وإذا كان مصطلح السياسة قد حظي بهذا القدر من الاهتمام من مفكرينا وأدبائنا العرب المسلمين ، فإنه كذلك حظي باهتمام بالغ أيضاً عند فلاسفتنا . فهذا هو (الفارابي) فيلسوف المشرق العربي الكبير ، واضع أسس الفلسفة السياسية عند العرب ، يطلق على كلمة (السياسة) اصطلاح علم السياسة أو العلم المدني . ويعرفها تعريفاً آخر أكثر شمولاً بأنها (ذلك العلم الذي يفحص عن أصناف الأفعال والسنة الإدارية ؛ وعن الملكات والأخلاق والسجايا والشيم

(١) ابن أبي الربيع ، شهاب الدين أحمد بن محمد (ت ٢٢٧ هـ) ، سلوك المالك في تدبير الممالك ، مكتبة المسجد الأحمدى بطنطا ، ١٢٨٦ هـ ، ص ٨٠٧ .

(٢) الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥ هـ) ، استحقاق الامامة ، حققه : حسن السندوبي ، ضمن رسائل الجاحظ ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ،

١٩٣٣م ، ص ٣١ .

التي عنها تكون الأفعال ؛ وعن الغايات التي لأجلها تفعل ، وكيف ينبغي أن تكون موجودة في الانسان (^(١)).

ولقد تابع ابن سينا الفارابي في تعريفه للسياسة ، ويظهر لنا ذلك بوضوح في رسالته [السياسة] ^(٢) ، والتي استهلها بضرورة وجوب السياسة ، وأنها منهج عام لإصلاح حياة الانسان ^(٣) .

ولم يكن فلاسفة العرب المسلمون وحدهم الذين اهتموا بتعريف السياسة ، بل أننا نجد فقهاء المسلمين كذلك قد اهتموا بها اهتماماً كبيراً . نجد هذا

(١) الفارابي ، أبو نصر (ت ٣٣٩ هـ) ، السياسة المدنية (مبادئ الموجودات) ، تحقيق : فؤاد متري نجار ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩٦٤ م ، ص ٢٨ .

(٢) مما هو جدير بالذكر أنه على الرغم من أن مصطلح السياسة قد حظى باهتمام بالغ عند مفكري الاسلام ، إلا أنه لم يحظ بهذا القدر من الاهتمام في المعاجم المعاصرة التي اكتفت بذكر التعريف الغربي للسياسة ، ينظر على سبيل المثال المعجم الفلسفي الصادر عن مجمع اللغة العربية ، تحرير : د. ابراهيم مدكور .

(٣) ابن سينا ، أبو علي الحسين (ت ٤٢٨ هـ) ، رسالة في السياسة ، نشرها للآباء اليسوعيون ، لويس معلوف ، و خليل إده ، ولويس شيخو ، مجلة المشرق ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩١١ م ، ص ١٩ .

واضحاً عند فقيه شافعي هو (الماوردي) حيث يعرف السياسة بأنها اصلاح أحوال الرعية وانتظامها عن دين مشروع وتجميع الكلمة على رأي متبوع^(١).

كذلك نجد فقيه الشافعية الكبير (الغزالي) يعرف السياسة بأنها (صلاح الخلق عن طريق إرشادهم الى الطريق المستقيم المنجي في الدنيا والمؤدي للآخرة)^(٢).

ويعرف الطرطوشي السياسة بأنها (إقامة القسط الذي شرعه الله تعالى لعباده ، ونصر المظلوم ، والأخذ على يد الظالم ، وكف يد القوي عن الضعيف ، ومراعاة الفقراء والمساكين ، وملاحظة ذوي الخصاصة والمستضعفين)^(٣).

كذلك لم يخرج المصطلح السياسي في القرنين الثامن والتاسع الهجريين عن هذه التعريفات .

(١) الماوردي ، أبو الحسن (ت ٤٥٠ هـ) ، الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٨٨ م ، ص ٢٧ .

(٢) الغزالي (ت ٥٠٥ هـ) ، فاتحة العلوم ، مكتبة الجندي ، ١٣٢٢ هـ ، ص ٦ .

(٣) الطرطوشي ، أبو بكر بن أيوب الفهري (ت ٥٢٠ هـ) ، سراج الملوك ، المطبعة الأزهرية ، ١٣١٩ هـ ، ص ٤ .

فعلى سبيل المثال يعرف (ابن قيم الجوزية) السياسة (بأنها ما كان فعلاً يكون معه الناس أقرب الى الصلاح ، وأبعد عن الفساد ، وإن لم يضعه الرسول ، ولا نزل به وحي)^(١).

كما يعرف (خليل الأسدي) - وهو مفكر القرن التاسع الهجري - السياسة بأنها (العلم المبرهن الدال على النصيحة والتذكرة ، وما تحصل به الاعانة على تدبير الأمور الواجبة المعبرة)^(٢).

هذه بعض النماذج لتعريف مصطلح السياسة عند مفكري المسلمين ، والأمثلة كثيرة لو أحطنا بها لن تكفيها هذه الصفحات ، يلاحظ مما سبق تقارب معنى كلمة السياسة لغةً واصطلاحاً ؛ وأنها تعني على وجه الاطلاق [القيام بأمر الناس (الرعية) بتدبير ما يصلحهم ودرء المفاسد عنهم من جهة ، وتلافي الخلل وإصلاح ما فسد من جهة أخرى] .

(١) ابن قيم الجوزية ، محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي (ت ٧٥١هـ) ، الطرق الحكمية في السياسة الشرعية ، تحقيق : د. محمد جميل غازي ، مطبعة المدني ، القاهرة ، ١٩٦١م ، ص ١٥ .

(٢) الأسدي ، محمد بن محمد بن خليل (ت ٨٥٥ هـ) ، التيسير والاعتبار والتحرير والاختبار ، تحقيق : د. عبد القادر أحمد ، دار الفكر العربي ، ١٩٨٩م ، ص ٣٥ .

وبناءً على ذلك تتضح لنا ملاحظتان في غاية الأهمية :

الأولى : أنه لم يخل تعريف للسياسة لغوياً أو اصطلاحياً كما رأينا من كلمة التدبير . وهذا يؤكد لنا أن ظاهرة - التدبير - السياسي كانت موضع عناية خاصة لدى مفكري المسلمين حتى نهاية القرن التاسع الهجري . وهذا معناه أن مفهوم التدبير في حقيقة الأمر يعني تصور المستقبل انطلاقاً من الحاضر والماضي على أنه امتداد لهما وبناء خطة للتعامل مع المستقبل بحيث لا يؤخذ الفرد على غرة ، وبأن تصير إحدى وظائف الحاكم أن يعد نفسه لجميع احتمالات التطور من منطلق القدرة والفعالية . وهذا ما سنلاحظه عند وقوفنا على الوثائق النبوية .

الملاحظة الثانية : إن كلمة السياسة عند اليونان تعني فن قيادة - أو إدارة المدينة ، أي تنظيم حياة الأفراد في مجتمع له أساليبه المدروسة ونظمه المحبوبة ودولته ؛ يروي لنا بعض المؤرخين الفرنسيين كيف أن أفلاطون عند تعرضه في أول تدريسه للسياسة قال : (السياسة هي فن نشأة القطيع ، والحيوانات تنقسم من ناحية الى : حيوانات ذات قرون ، وأخرى دون قرون ؛ ومن ناحية أخرى ، فهي إما ذوات قدمين ، أو ذوات أربع . ومن ثم فإن السياسة هو فن قيادة ذوي القدمين دون قرون ودون ريش) وعندئذ تصدى له أحد الحاضرين لحلقة الدرس في الأكاديمية وهو (ديوجين) بأن ألقى في

الدائرة بديك وقد نتف ريشه وموجهاً الخطاب للفيلسوف هذا هو رجل
إفلاطون (^(١)).

من هذا السياق يتضح لنا منذ البداية أن التحليل اللفظي لكلمة السياسة
عند كل من المسلمين واليونان كشف لنا مدى الخلاف بل والتناقض بين
مفهوم السياسة عند كليهما . فبينما عرّف مفكرو اليونان السياسة بأنها فن
قيادة وإدارة المدينة (الدولة) وربطوها بكل ما يمس الدولة ، والدستور ،
والنظام السياسي ، والسيادة . نجد أن مفكري المسلمين عرفوها بأنه القيام
بأمر الناس بتدبير ما يصلح أحوالهم ، ويدراً المفاسد عنهم ، وبالتالي ربطوها
بالاصلاح والتدبير والرعاية والتربية والتوجيه من خلال اصلاح الواقع
السياسي وتطويره .

وبينما تقوم السياسة عند مفكري اليونان لتنظيم حياة طبقة واحدة فقط
من الناس وهي طبقة الأحرار مع إهمال الطبقات الأخرى ، نجد السياسة عند
مفكري المسلمين تقوم على تنظيم حياة كل الناس من مسلمين وغير مسلمين
طالما هم تحت حكم الاسلام (إذ أن المجتمع المسلم مجتمع لا طبقي عكس

(١) جان توشار ، تاريخ الفكر السياسي ، ترجمة : د. علي مقلد ، منشورات دار
الاستقلال ، بيروت ، ٢٠٠١م ، ص ٢٩ .

المجتمع الهلينيستي ، فضلاً عن ذلك أنه مجتمع يكفل حرية العقيدة الدينية لغير المسلمين كما أقرّ بذلك الاسلام (١).

لكن السؤال الآن بعد هذا العرض : هل تلك التعريفات التي جاء بها أسلافنا للمصطلح السياسي كانت من قبيل الترف الفكري ، أم لضرورة وأهمية السياسة ، وحاجة المجتمع العربي الاسلامي إليها ؟

وهل كان حظ المسلمين من البحوث السياسية بعد هذا الذي قدمناه سيئاً ؟ وأن وجودها بينهم كان أضعف وجود ؟

(١) الشناوي ، د. محمود أيوب ، الفكر السياسي الاسلامي في القرنين الثامن والتاسع الهجريين بين النقل والعقل ، مركز الكتاب للنشر ، القاهرة ، ط ١ ، ٢٠٠٦ م ، ص ١٥٠ .

المطلب الأول

﴿ أصالة الفكر السياسي الإسلامي ﴾

أحاول في هذا المبحث التعرض للحديث عن أصالة الفكر السياسي الإسلامي ، ذلك أنه قد ساد الى عهد قريب بين المفكرين الغربيين ومن تأثر بآرائهم من المسلمين . إن المسلمين لم يعتنوا بالعلوم السياسية ، ولو عدنا الى أولئك الذين تبنا ذلك الرأي لوجدناهم فريقين : مؤرخين لم تقدر لهم المعرفة باللغة العربية فاستعانوا بمصادر غير مباشرة ، أو مترجمين ، أو مستشرقين لا يعرفون شيئاً عن أصول البحث التاريخي ومنهجية العلوم الاجتماعية^(١) .

لذلك جاءت دراساتهم مليئة بالتصورات الخاطئة للسياسة في الاسلام ، ومكانتها عند علماء المسلمين . فهذا هو المستشرق جول لابوم في كتابه (تحليل آيات القرآن - باريس ١٨٧٨ م) يعتمد في دراسته للقرآن على ترجمة (كازيمرشكي) التي توصل القاريء في بعض الأحيان الى أن القرآن يدفع الى الأنانية ، والى الثأر والغدر ، والحنث باليمين^(٢) .

ومعلوم أن القرآن منزّه عن كل ذلك ، بل يدعو الى الوفاء ويحرم الغدر ، ويحض على الإيثار ، ويذكر الدكتور الريس أن ما جاء في كتاب المستشرق

(١) د. حامد ربيع ، سلوك المالك ، ٥٠/١ .

(٢) ينظر : محمد عبد الله دراز ، دستور الأخلاق في القرآن الكريم ، مؤسسة الرسالة ، تعريب : د. عبد الصبور شاهين ، بيروت ، ط ٨ ، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م ، ص ٣ .

آرنولد عن تاريخ النظريات السياسية الاسلامية قد أصبح متخلفاً عن العصر ،
والدعاوي التي اشتمل عليها قد صارت منقوصة بنتائج البحث الحديث^(١) .

وقد سرت مقولة أن المسلمين لم يهتموا بالسياسة الى بعض المفكرين
المسلمين الذين تأثروا بما قاله أولئك الغربيون . فهذا هو الدكتور السنهوري
يقول : (الواقع أن الفقهاء لم يتحمسوا لدراسة الخلافة ولا غيرها من مسائل
القانون العام ؛ خشية التعرض لنظم الحكم الاستبدادية التي سادت العالم
الاسلامي منذ الأمويين ، وأياً كانت العلة فالذي لا جدال فيه أن شطر الفقه
الاسلامي المتعلق بالقانون العام قد بقي في حالة طفولة بسبب هذا
العزوف)^(٢) .

وسبب هذا الموقف من د. السنهوري هو عدم اطلاعه على كل ما كتبه
العلماء المسلمون في الفكر السياسي ؛ وقد ذكر (رحمه الله) أنه استعان في
كتابه (فقه الخلافة) بكتاب الماوردي في الأحكام السلطانية فقط^(٣) .

وقد كان ذلك عام ١٩٢٥ م . أما اليوم فالمطالع لهذا الباب يرى كثرة
الكتب الفقهية المتعرضة للفكر السياسي الاسلامي غير كتاب الماوردي .

(١) اسماعيل ، النظريات السياسية ، ص ١٠٦ .

(٢) السنهوري ، د. عبد الرزاق ، فقه الخلافة وتطورها لتصبح عصبية أمم شرقية ،
الهيئة المصرية للكتاب ، ط ٢ ، ١٩٩٣ م ، ص ٥٠ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ٣٦ .

ويجدد طرح السؤال التالي ، ما هي نسبة ما خرج من المخطوطات الإسلامية بالنسبة لما لم يخرج ؟ بل ما هي نسبة ما وجد بالنسبة لما ضاع ، أو احترق في بغداد ، أو ربما سرق وأخفي ؟ وهل (عوّل كبار علمائنا على القليل المنشور ، وهو لا يغني عن الكثير المحجوب ؟)^(١).

إن خروج مخطوطات جديدة الى النور سيفيد كثيراً من الأفكار حول أمور ومسائل كثيرة ، وحول أشخاص كثيرين . وقد نشرت مجلة المجمع العلمي العربي في دمشق في أحد أعدادها (١٩٤٣ م) بياناً شمل أكثر من خمسين كتاباً ألفه علماء المسلمين في مختلف العصور تتصل موضوعاتها بالعلوم السياسية^(٢).

بل يقول د. حامد ربيع : ((نعلم أنه توجد حالياً فقط بمكتبات الاستانة حوالي مئة مخطوطة في علم السياسة ، الغالبية العظمى منها لم يقدر لها بعد النشر أو التحقيق ولا الدراسة والتحليل))^(٣).

(١) د. فؤاد عبد المنعم أحمد ، تحقيق حسن السلوك الحافظ لدولة الملوك لمحمد بن محمد بن عبد الكريم الشافعي (ت ٧٧٤ هـ) ، مؤسسة شباب الجامعة ، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م ، ص ٥٦ .

(٢) د. محمد ضياء الدين ، الخلافة ، ص ٣٣٦ .

(٣) عبد الله ربيع ، سلوك المالك ، ٦٠/١ .

وقد قذفت لنا المطابع الحديثة اليوم كثيراً من الكتب في مجال الفكر السياسي . بالإضافة الى أن هناك تفصيلات كثيرة لهذا الفكر السياسي ماثورة في أبواب كثيرة في كتب الفقه ، فما يسمى اليوم بالعلاقات الخارجية مثلاً كان يدرس في كتب الفقه في أبواب السير والجهاد ، وأحكام الجزية والذمة^(١) .

وقد وصلنا كتابا السير الصغير والسير الكبير للشيباني^(٢) . وقد تأسست في غوتنجن بألمانيا جمعية الشيباني للحقوق الدولية ، ضمت علماء القانون الدولي ، والمشتغلين به في مختلف بلاد العالم ، وهدف الجمعية التعريف بالشيباني ، وإظهار آرائه في هذا المجال - الفكر السياسي - ونشر المؤلفات المتعلقة بذلك^(٣) .

وإذا كان الشيباني تلميذ أبي حنيفة - صاحب المذهب الحنفي الأول من المذاهب الأربعة - قد كتب في باب من أبواب الفقه السياسي وهو السير

(١) د. سعيد عبد الله المحارب ، العلاقات الخارجية للدولة الاسلامية ، مؤسسة الرسالة ، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م .

(٢) محمد بن الحسن الشيباني ، صاحب كتاب السير الكبير ، وهو تلميذ وصاحب أبي حنيفة النعمان (رحمهما الله) .

(٣) هاني المبارك ، وشوقي أبو خليل ، الاسلام والتفاهم والتعايش بين الشعوب ، دار الفكر ، سوريا ، ط ١ ، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م ، ص ٣١ الهامش .

المتعلقة بالعلاقات الخارجية للدولة ؛ فهذا يدل على أن التأليف في الفقه السياسي بدأ متلازماً مع التأليف في فروع الفقه بل والعلوم الأخرى . فالمسلمون إذن فكروا في السياسة ، وكونوا لهم نظريات عنها ، غير أن بحثهم كان تحت اسم آخر ، وتكلموا بلغة أصبحت غير مألوفة في العصر الحاضر .

فالنظريات التي وصلوا إليها كانت ، إما جزءاً من مباحث علم الفقه ، أو الكلام أو التاريخ أو الفلسفة ، أو الأدب . ويوجد بعضها في تفاسير القرآن ، وفي شروح الأحاديث ، ولذا فإنه ينبغي لمن يريد أن يفهم هذه الآراء فهماً حقيقياً ، ويلم بها إماماً تاماً أن يرجع الى تلك العلوم جميعاً^(١) .

ويزداد اليوم الاهتمام بالتراث السياسي الاسلامي من جانب الجامعات الأوروبية والأمريكية ، ومما لا شك فيه أن هذا الاهتمام غير حديث ، ولا يعود فقط الى الأيام الأخيرة ، إنه يعود الى العصور الوسطى ذاتها . ويكفي أن نتذكر كيف أن دانتي في (الكوميديا الإلهية) لم يتردد أن يخصص موضعاً مهماً لابن سينا وابن رشد ، وهو يتحدث عن سيدنا محمد ﷺ على أنه رجل دولة جدير بالاعجاب والتقدير ، ورينان يدعو قومه الى تلقي الأخلاقيات السياسية من أرض الحكومة الاسلامية ، والدين الاسلامي^(٢) .

(١) ضياء الدين ، النظريات السياسية ، ص ١٧ .

(٢) د. حامد ربيع ، سلوك المالك ، ٣٤/١ هامش .

- تراث الفكر السياسي الاسلامي :

ويمكن اجمال هذا التراث السياسي الفكري في تأثيره الى ثلاث تأثيرات :

١. بالفكر والفلسفة اليونانية والفارسية في الحكم ، ك (الأدب الصغير والكبير) لعبد الله بن المقفع ، وكتاب (السياسة) لكل من أبي النصر الفارابي ، ولأبي القاسم الحسين بن علي المغربي الوزير ، ولأبي علي بن سينا ، وهي في نظر مصطفى حلمي والدكتور فؤاد عبد المنعم لا تمثل أصالة الاسلام ، وذاتيته في مجال الحكم ، ولذا تعرضت لنظرة النبذ والتوجس في المجتمع المسلم^(١).

ولا يضير المفكرين المسلمين أن يأخذوا عن غيرهم في مجال السياسة وغيرها ، فالعلم ليس له حدود ، والعلم أخذ وعطاء ، فهم كما أخذوا أعطوا ، وأعطوا بعد تطوير ما أخذوا ، والتأثر والتأثير بين الحضارات أمر لا بد منه ، وهو من أسباب تقدم البشرية .

(١) نقلاً عن الدمهوري ، أحمد عبد المنعم (ت ١١٩٢ هـ) ، النفع الغزير في نفع السلطان والوزير ، تحقيق : د. فؤاد عبد المنعم ، مؤسسة شباب الجامعة الاسكندرية ، ط ١ ، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م ، ص ١١ ، وينظر : غياث الأمم للجويني ، تحقيق وتقديم : الدكتور مصطفى حلمي والدكتور فؤاد عبد المنعم ، دار الدعوة ، الاسكندرية ، ط ١ ، ١٩٧٩ م ، ص ٨ .

وإذا كان المسلمون قد أخذوا من اليونان ، فإنهم قد صبغوا كتاباتهم المقتبسة هذه بالروح الاسلامية السامية والقيم الاسلامية المترفعة عن نزعات العنصرية عند اليونان والفرس^(١).

ففي مدة ازدهار الحضارة الاسلامية نشطت الترجمات من اليونانية الى العربية ، وما لبث المفكرون الغربيون أن أخذوا عن هذه الترجمات العربية ليترجموها الى اللاتينية مباشرة ، مما كان أساس عصر النهضة . وإن كانت هذه الدائرة لا تمثل التراث الاسلامي الأصيل في السياسة ، فإنها ولا شك تمثل محور اتصال بين الحضارات ، فالفارابي مثلاً - ((الذي عرف بالمعلم الثاني بعد أرسطو يمثل حلقة الوصل الهامة بين الفكر الاسلامي واليوناني))^(٢).

٢. مرايا الحكم أو مواعظ الحكام : خلطت بين الاستدلال بالكتاب والسنة حكم ومواعظ اليونان والفرس ، وقامت بمحاولة التوفيق بينهما ، إلا أنها - كما يرى الدكتور مصطفى حلمي ، والدكتور فؤاد عبد المنعم - لم يكتب لها النجاح ، ومن أمثلتها : (قوانين الوزارة) للماوردي ، و(تسهيل النظر وتعجيل الظفر) له ، و(التبر المسبوك) للغزالي ، و(سراج الملوك) للطرطوشي ، و(النفع الغزير في صلاح السلطان والوزير) لشيخ الاسلام أحمد

(١) د. حامد طاهر ، المدينة الفاضلة بين إفلاطون والفارابي دراسة مقارنة ، ص ٨٣ .

(٢) د. حامد ربيع ، سلوك المالك في تدبير الممالك ، ٣٤/١ .

الدمنهوري . وقد كان هؤلاء العلماء يؤلفون هذا الصنف من الكتب بطلب من الحكام في الأغلب ، أو يوجهونها إليهم ، كما فعل ذلك الغزالي ، والطرطوشي ، وابن أبي الربيع ، والدمنهوري ، وغيرهم .

ويغلب على هذه الدائرة الأسلوب الوعظي الأدبي ، كما أنها تمتاز بالحشد الكبير للحكم والمواعظ المختلفة المصادر ، كحكم الفرس والهند واليونان ، إضافة الى النصوص الشرعية من الكتاب والسنة^(١) .

٣.الدائرة التي تمثل أصالة الفقه السياسي : وبعده عن التبعية للفلسفة اليونانية أو الفارسية في الحكم ، ومن أمثلة هذه الكتب (الأحكام السلطانية) للماوردي (ت ٤٥٠ هـ) ، ولأبي يلى الفراء ، و(الامامة) لأبي عبد الله محمد بن علي القلعي . ويقترّب من هذه الدائرة (تهذيب الرياسة في ترتيب السياسة) له أيضاً . و(السياسة الشرعية) لابن تيمية ، و(تحرير الأحكام في تدبير أهل الاسلام) لابن جماعة . ويقترّب من هذه الدائرة محمد بن الأزرق الأندلسي في كتابه (بدائع السلك في طبائع الملك) .

فقد اعتمدت هذه الكتب ونظائرها على الأساس الشرعي من الكتاب والسنة فيما يتعلق بالحاكم والوزارة والولايات العامة وحقوق الرعية وواجباتها

(١) د. فؤاد عبد المنعم ، حسن السلوك الحافظ لدولة الملوك ، ص ٣٩ .

كما تعرضت للتطبيق والتجربة الاسلامية في عصر الرسول محمد ﷺ والخلفاء الراشدين ^(١).

وهذه الدائرة هي الدائرة الأكثر أهمية ؛ لأن فقه السياسة في الاسلام يستمد ذاتيته وأصالته من كتاب الله ﷻ ، وسنة النبي ﷺ ، والخلفاء الراشدين ^(٢).

وهو ما نستطيع أن نقدمه للبشرية الحائرة بين الفلسفات المختلفة المتنازعة ، لأنها تعتمد على المصدر الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، إذ لا تؤثر فيه رغبات وشهوات الأفراد ، ولا نزعاتهم المتعددة ؛ لأنه مستمد من خالق البشر ، الذي يعلم ما يصلح للجنس البشري ، ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ ^(٣).

(١) الموصلية ، محمد بن عبد الكريم (ت ٧٤٩ هـ) ، حسن السلوك الحافظ لدولة الملوك ، تحقيق : د. فؤاد عبد المنعم ، ص ٥ .

(٢) الدمنهوري ، النفع الغزير في اصلاح السلطان والوزير ، ص ١١-١٢ .

(٣) سورة الملك ، الآية/١٤ .

وقد كان من أثر هذه الدائرة أن نقلت الفكر السياسي الاسلامي من دور التأثر والتبعية الى دور التأثير والريادة ، ولذلك قام الغرب بالتلمذة على مؤلفات هؤلاء العلماء ، كماوردي ، وابن تيمية ، وابن خلدون ، وغيرهم . حيث ترجمت مؤلفاتهم من العربية الى اللاتينية ^(١) .

- الجهود المعاصرة في مجال الفكر السياسي الاسلامي :

شهد القرن العشرين نشاطاً ملحوظاً في مجال الفكر السياسي الاسلامي ، وكان من دواعي هذا النشاط ذلك الصوت المرتفع الذي ينادي بالرجوع الى الاسلام السياسي في الساحة الداخلية والساحة الدولية ^(٢) .

وكذلك ما رافق سقوط الخلافة الاسلامية من دعوات الى خلافة اسلامية جديدة ^(٣) . وكذلك ما اشتهر من ردود العلماء المسلمين على الكتب التي تهاجم الفكر السياسي الاسلامي - التي وضعها المستشرقون ، ومن لفّ لفهم - فرب ضارة نافعة . وعلى سبيل المثال كان كتاب علي عبد الرزاق (الاسلام وأصول الحكم) سبباً لكثير من الردود التي أثرت الفكر السياسي الاسلامي .

(١) د. حورية توفيق ، الفكر السياسي من إفلاطون الى محمد عبده ، ص ٢٦ .

(٢) السنهوري ، فقه الخلافة ، ص ٢٠ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ٢٣ .

ككتاب (حقيقة الاسلام وأصول الحكم) للشيخ محمد بخيت المطيعي ، و (نقض كتاب الاسلام وأصول الحكم) للشيخ محمد الخضر حسين ، وكتاب (نقد علمي لكتاب الاسلام وأصول الحكم) للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور . ثم كتاب الدكتور محمد ضياء الدين الريس (الخلافة) . كما قام بعض العلماء بتأصيل الفكر السياسي الاسلامي من مصادره الشرعية الكتاب ، والسنة ، وكتب الفقه ، والحديث . فضلاً عن مقارنتها بالنظم السياسية الحديثة ، وكان مما كتبوه في هذا المجال : كتاب (فقه الخلافة لتصبح عصبة أمم شرقية) عام ١٩٢٦م ، للاستاذ الدكتور عبد الرزاق السنهوري .

كما ازدهرت الدراسات الجامعية ورسائل الماجستير والدكتوراه والمؤتمرات والندوات والجمعيات التي تعنى بالفكر السياسي في الاسلام ، كرسالة الدكتور فؤاد عبد المنعم : (مبدأ المساواة في الاسلام مع المقارنة بالأنظمة الديمقراطية الغربية والنظام الماركسي) رسالة الدكتوراه ، نوقشت عام ١٩٧٢م . ورسالة الدكتور يعقوب المليجي : (مبدأ الشورى في الاسلام مع المقارنة بمبادئ الديمقراطيات الغربية والنظام الماركسي) رسالة الدكتوراه عام ١٩٧٤م ، وغيرها العديد من البحوث والرسائل^(١) .

(١) الماوردي ، التحفة الملوكية في الآداب السياسية ، تحقيق : د. فؤاد عبد المنعم ،

مؤسسة شباب الجامعة ، ١٩٩٣م ، ٢٨-٣٥ .

وانتشرت الدراسات العميقة لشخصيات الفكر السياسي ، كماوردي والغزالي ، والجويني ، وابن تيمية ، وابن قيم الجوزية .
 ولا ننسى في هذا المجال الجهود المشكورة لعلماء العلوم السياسية ، ومن أهم هذه الجهود مجموعة كتب الدكتور حامد عبد الله ربيع ، ولا سيما تحقيقه ودراسته لكتاب (سلوك المالك في تدبير الممالك) لابن أبي الربيع .
 ولا أستطيع حصر ما ألفه الأقدمون والمحدثون في المجال السياسي الاسلامي ، بل اكتفيت ببعض العنوانات فقط . ومن أراد الاستزادة والاقتراب من الحصر فليرجع الى كتاب (في مصادر التراث السياسي الاسلامي)^(١) .

(١) نصر محمد عارف ، المنهجية الاسلامية ، تقديم : منى أبي الفضل ، طبع المعهد العالمي للفكر الاسلامي ، ط ١ ، ١٩٩٤م ، ٥١ .

المطلب الثاني

﴿ محاولات لبناء مفاهيم سياسية اسلامية معاصرة ﴾

هذا وبعد أن تحدثنا في المطلب السابق عن أصالة الفكر السياسي الاسلامي ، نأتي هنا لدراسة عن بعض المحاولات الحديثة لبناء مفهوم سياسي اسلامي ، وهذا له صلة لما نحن بصدده من تقرير أصالة الفكر السياسي الاسلامي .

يتضمن هذا المطلب عرضاً لحالات ثلاث تشكل مسالك مختلفة في بناء المفاهيم الاسلامية السياسية ، وهي وإن اختلفت في مسالكها إلا أنها تتفق في مقصدها ، بحيث تعد في تحقيقها وعند ممارستها بحثياً ليست إلا تبديداً للمفهوم لا بناء له .

وهذه المحاولات تتمثل في اتجاه المؤشرات ، والمسلك الإجرائي في بناء المفاهيم الاسلامية ، ومسلك التجديد اللغوي ، ويأتي بعدها مسلك التحايل ، إذ تلتبس ممارسات سلبية المفاهيم فتضاف إليها - بلا ضبط ، أو حد - .

وفي إطار الرؤية النقدية لهذه المحاولات ، وبيان أهم عيوبها تبرز أهم القواعد التي تمكن من تأسيس عملية بناء المفاهيم الاسلامية السياسية وفق أهم عناصر الضبط المنهجي من داخل الرؤية الاسلامية ذاتها .

من المتصور أن تكون هناك محاولات أخرى تتعلق بالقضية نفسها ، ولكن آثرنا أن نقتصر على تلك المحاولات ، لأنها تمثل معظم التوجيهات السائدة ، وتحقق المقصود عن طريق تقويمها بتأسيس القواعد لبناء المفاهيم الاسلامية السياسية^(١) .

ونبين تلك المحاولات ، وكالاتي :

أولاً : المؤشرات والاتجاه الإجرائي ، وبناء المفاهيم الاسلامية .

تقوم هذه المحاولة في بناء المفاهيم الاسلامية عامة ، والسياسية خاصة على أساس من سيادة الاتجاه الإجرائي في دراسة الظواهر الاجتماعية ، والسياسية ، واستخدام المؤشرات كأداة منهجية في تحديد المفاهيم .

وقد تنتقد محاولات بناء المفاهيم الاسلامية بأنها ليست محاولات جادة حيث لا تعتمد على التعريف الإجرائي لهذه المفاهيم بما يمكن من تحويلها إلى مجموعة من المؤشرات ، حيث يمكن إبراز المفهوم على شكل وحدات يمكن قياسها كمياً . وذلك أن المؤشرات كأداة منهجية تجد اهتماماً متزايداً ، حيث تمكن من صوغ مؤشرات - أدلة إجرائية - تساعد في التعرف على الظاهرة بل أنه مع بروز دراسات التنمية - نشأ اتجاه في دراسة التخلف أسمى اتجاه

(١) إسماعيل ، في النظرية السياسية من منظور إسلامي ، ص ٨٦ .

المؤشرات وهو اتجاه يدل على التخلف من خلال عدد من المؤشرات الكمية والكيفية ، كما يلقي الضوء على أهميتها كأداة منهجية وبحثية^(١).

فالمؤشرات كغيرها من مخرجات العلوم الاجتماعية قد تستخدم استخداماً مصلحياً ، أو ربما منحازاً لتوجه فكري معين^(٢).

ومن ثم يعبر البعض عن ضرورة الاطار النظري في صوغ المؤشرات ، وتحديد أهميتها ووزنها النسبي . وكذلك تحديد مستويات التحليل ووحداته ، حيث يعد الإطار النظري الأساسي الضروري الذي يحدد هوية المؤشرات ، ويساعد في صوغها وبنائها . ويصير المؤشر بذلك له هويته واتجاهه ، كما أن خصوصية المكان تفرض مراعاة اختلاف المؤشرات^(٣).

(١) د. عبد الباسط عبد المعطي ، البحث الاجتماعي ، محاولة نحو رؤية نقدية لمنهجه وأبعاده ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٨٤ م ، ص ٢٠٠ - ٢٠١

(٢) عبد الباسط عبد المعطي ، أسس ومعايير تحديد الحاجات الاجتماعية في الوطن العربي : استطلاع لبعض القضايا النظرية والمنهجية ، الكويت ، منشورات المعهد العربي للتخطيط ، ١٩٨٠ م ، ص ١١ - ١٤ .

(٣) د. عبد الباسط عبد المعطي ، البحث الاجتماعية ، ص ٢٠٦ - ٢٠٧ ، فاروق يوسف ، دراسات في الاجتماع السياسي ، القاهرة ، مكتبة عين شمس ، ١٩٨١ م ، ص ٩ - ٣٩ ، وسالم عبد العزيز محمود ، البحث الاجتماعي ، جامعة الأزهر ، القاهرة ، (د . ت) ، ص ٨٩ ، وما بعدها .

ثانياً : - التجديد اللغوي وبناء المفاهيم الاسلامية .

تختط هذه المحاولة الثانية طريقاً آخر في بناء المفاهيم الاسلامية أسميته التجديد اللغوي . وهي إذ تنطلق من رؤية صحيحة إلى حد ما للعلاقة بين اللغة والتعبير ، وضرورة الإحكام في الصياغة حتى يحسن الإيصال . ذلك أن اللغة وسيلة للتعبير ، ويمكن لفكرة صحيحة أن يعبر عنها بلغة غير محكمة ، فتثبت الفكرة وتنتشر ويعتنقها الناس . ومن ثم كانت أهمية اللغة وسيلة للتعبير والإيصال ^(١) .

وإذا كانت هذه المقدمة صحيحة إلى حد كبير ، فإن المقدمة التالية يشوبها كثير من الخلط وعدم التحديد ، مما يؤدي إلى التحفظ عليها ، فليس من الصحيح على إطلاقه لأن تجديد اللغة يحدث عندما تتطور الحضارة ، وتمتد وتتسع معانيها بحيث تضيق بلغتها القديمة الخاصة ، والتي لم تعد قادرة على إيصال أكبر قدر ممكن من المعاني لأكبر عدد من الناس ، فتنشأ حركة تجديد لغوي ، وتسقط فيها الحضارة لغتها القديمة الخاصة ، وتضع لغة جديدة أكثر قدرة على التعبير ^(٢) .

(١) د. حسن حنفي ، التراث والتجديد ، المركز العربي للبحث والنشر ، القاهرة

١٩٨٠م ، ص ١٢٣ ، د. محمد محمد حسين ، حصوننا مهددة من الداخل ، مؤسسة

الرسالة ، بيروت ، ط ٧ ، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م ، ص ٣٥ - ٣٩ .

(٢) د. حسن حنفي ، التراث والتجديد ، ص ١٢٣ - ١٢٤ .

ومنشأ التحفظ على هذا ينبع من طبيعة فهم عملية التجديد كلية ،
وتجديد اللغة على وجه الخصوص ، بكونها عملية تنفلت من الضوابط ،
وتصير محصلتها - حيث أن اللغة لم تعد قادرة على إيصال أكبر قدر ممكن
من المعاني لأكثر عدد من الناس - إسقاط الحضارة لغتها القديمة الخاصة
ووضع لغة جديدة أكثر قدرة على التعبير ، وأكثر انتشاراً بين عدد أكبر من
الناس .

ذلك أن اللغة تستبطن في ذاتها معانيها : دلالات ، وأحكاماً ، وقيماً ،
وعملاً ، وحركة تشكل جزءاً من مكونات اللفظ ، أو المفهوم^(١) .

ويعد عدم التفريط في هذه المفاهيم مهمة أساسية في عملية بناء المفاهيم
الاسلامية وإلا فقدت هذه المفاهيم مفعولها . ويسرت عملية الاستبدال لتلك
المفاهيم بمفاهيم وضعية ، يتضح ذلك من نقد البعض للحالة اللغوية الراهنة
باعتبارها أهم دواعي التجديد ، حيث العلوم الانسانية ، مازالت تعبر عن
نفسها بالألفاظ والمصطلحات التقليدية التي نشأت بها هذه العلوم ، والتي
تقضي في الوقت نفسه على مضمونها ودلالاتها المستقلة ، والتي تمنع أيضاً

(١) حسن حنفي ، التراث والتجديد ، ص ١٢٤ .

إعادة فهمها وتطويرها ، ويسيطر على هذه اللغة القديمة ، الألفاظ والمصطلحات الدينية^(١) .

وحقيقة الأمر : أن هذا موقف حيال الحقائق الشرعية يتميز بالتساهل بصورة ليس هي بالتجديد ، وإنما في جوهرها تقع من حيث هدفها ومحتواها في دائرة التبديد ، وعدم حقيقة الثابت اللغوي النابع من حقيقة أساسية تتمثل في حفظ الذكر بقول الله ﷻ : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾^(٢) .

ذلك أن هناك مصطلحات شرعية محددة تطلق على حالات مخصوصة لعل ومقاصد معينة ، لا يجري عليها التبديل ، أو التطوير تشكل منطقة حرام لا يجوز بحال الاقتراب منها ، أو التحايل عليها .

ومن أمثلة ذلك كلمات ارتبطت بمعان لا تقبل التغيير ، كالربا ، والحج ، والشورى ... الخ . حيث تصير قطعية الدلالة مؤكدة اللفظ ، والكلمة المخصوصة بما لا تقبل تبديلاً ، أو إحلالاً ، أو تطهيراً ، قال تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾^(٣) .

(١) حسن حنفي ، التراث والتجديد ، ص ١٢٤ .

(٢) سورة الحجر ، الآية / ٩ .

(٣) سورة الأنعام ، الآية / ١١٥ .

وقوله ﷺ : ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا

بِهِ ۚ ۱) .

إن تجديد اللغة ليس عملاً إدارياً يتم ، والباحث على مكتبه يغير اللغة التقليدية كيف يشاء ، بل هو عمل تلقائي يتم في شعور الباحث الذي يجد نفسه غير قادر على التعبير عن المعاني الكامنة في اللغة التقليدية نظراً لثقافته الحديثة ، ولبيئته الثقافية الجديدة ۲) .

وعلى هذا يتم التجديد اللغوي وكأن اللغة تنشأ من جديد ، ولكنها تكون لغة ثانية لها في اللغة التقليدية . ولذلك أمكن تسميته هذا التغيير تجديداً باعتبار النشأة الأولى التي تمت في المرحلة التقليدية ، وذلك لأن المعاني الكامنة والتي لا يتم التعبير عنها بسهولة في اللغة التقليدية ، قد تأتي لحظة إما تنفجر فيها ، وتصبح ثورة فكرية بلا قيود لغوية ، وبلا استمرار حضاري ، أو تلفظ كلية وتصبح انقطاعاً وتحولاً عن التراث التقليدي كله ۳) .

إن اللغة التقليدية ، أو اللغة الدينية كما يسميها البعض تتميز بأنها لغة إلهية تدور لألفاظ فيها حول (الله) ، ولو أنه يأخذ دلالات متعددة

(١) سورة المائدة ، من الآية / ١٣ .

(٢) حسن حنفي ، التراث والتجديد ، ص ١٢٤ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٢٤ - ص ١٢٥ .

حسب كل علم فهو الشارع في علم أصول الفقه ، وهو الحكيم في أصول الدين ، وهو الموجود الأول في الفلسفة ، وهو الواحد في التصوف . فلفظ : (الله) يستعمله الجميع دون تحديد سابقة لمعنى اللفظ إن كان له معنى مستقل ، أو ما يقصده المتكلم من استعماله .

وحقيقة الأمر ما زالت الإنسانية كلها تحاول البحث عن معنى لفظ الجلالة (الله) . وكلما مضت في البحث ازدادت الآراء تشعباً وتضارباً ، فكل عصر يضع من روحه في اللفظ ويعطي من بنائه للمعنى ، وتتغير المعاني والأبنية بتغير العصور والمجتمعات ^(١) .

بينما تعبر الدارسة عن عمدتها في تبديد المفاهيم الأساسية الإسلامية كما تعبر عن تناقضها في الموقف ذاته حينما تؤكد أن المعاني الكامنة في اللغة التقليدية لها من الاستقرار والأصالة ، لأنها خارجة من الوحي ^(٢) .

وواقع الأمر أن كثيراً من الذين يقصرون فهمهم اللغة وقواعدها وقدرتها على أداء المعنى إنما يحيلون قصورهم هذا إلى اللغة ذاتها ، فيتهمون اللغة بالقصور ، وهم أحق من اللغة بهذا الاتهام . ويتضح من تلك المقولات التي

(١) د. حسن حنفي ، التراث والتجديد ، ص ١٢٧ - ١٢٨ ، د. محسن عبد الحميد ، المذهبية الإسلامية والتغير الحضاري ، كتاب الأمة ، العدد ٦ ، رئاسة الشؤون الدينية ، قطر ، ١٤٠٤ هـ ، ص ١١٢ - ١١٥ .

(٢) د. حسن حنفي ، التراث والتجديد ، ص ١٢٨ .

استندت إليها الدراسة أنها قد تبنت رأياً ، وصارت تستظهر له الدليل أياً كان ضعف منطقته . فهي إذا استدلت بالعرف في استخدام اللغة تجاهلت ما قررته كتابات أصول الفقه في هذا المقام من علو الحقائق الشرعية في سلم التصاعد عن الحقائق العرفية .

إن هدف هذه المحاولة تكريس استعارة المصطلحات الحضارية الأجنبية دون تردد لأنها أصبحت لغة عالمية . وأننا لا بد أن نعيش على حد قول صاحبها - عصرنا - ونفهم مصطلحاته ، ونستعملها حتى يفهمها الناس ، ويتوحد فكرنا على أساسه . وتظهر آثار التقدم والتطور في حياتنا وتتحرك من المصطلحات التراثية التي أكل عليها الدهر وشرب^(١) .

إنها محاولة لتنحية لغة الدين عن الحياة كلية بزعمهم أنها غير قادرة على استيعاب العصر الحديث . فإننا نجد إنموذجاً آخر تبحث في الخفاء ، ويدعو إلى روح علمانية واقعية ، ينشغل فيها الناس بالعلوم الطبيعة والرياضية . فترى أصحاب هذه اللغة يجعلون اللغة التقليدية ، أو ما يطلق عليها البعض اللغة الدينية بأنها أداة عروج إلى السماء لا وسيلة اتصال بالواقع ، ويصير الادعاء بأن اللغة الدينية تصل إلى مرحلة التطور من تطور الحضارة لا تستطيع

(١) د. محسن عبد الحميد ، المذهبية الاسلامية ، ص ١١٢ ، البديري ، عبد العزيز ، حكم الإسلام في الاشتراكية ، المكتبة العلمية ، المدينة المنورة ، ط ٢ ، ١٩٦٥ م ، ص ١٢٦ .

معها أن تؤدي وظيفتها في التعبير عن المراد ، أو في إيصاله للآخرين ، وذلك للفرق الزمني الشاسع بين اللغة التقليدية ، وبين الباحث الحديث ، والقارئ المعاصر^(١) .

هو قول يتطلب مزيداً من إعادة النظر بما تشكله مصطلحاتها من قاعدة للاحتكام إليها في معاني الألفاظ والمصطلحات ، وأهميتها في عملية بناء المفاهيم الاسلامية .

ثالثاً : - التحليل وبناء المفاهيم الاسلامية .

برزت هذه المحاولة من تكريس وضع الانفصال بين المسلمين وإسلامهم في الحياة مما جعل البعض يتحدث عن مسلمين بلا إسلام^(٢) .

ووجدت هذه المحاولة سندها أحيانا في تبرير الواقع من جانب كثير من المفكرين السياسيين المسلمين في اتقاء للفتنة والضرر الأشد ، إلا أن هذه المحاولة التي بدت وكأنها تتضمن حسن النوايا في الإبقاء على الدولة الاسلامية فتطورت بعد ذلك إلى محاولة أخرى تتضمن سوءاً للنوايا في إطار

(١) د. حسن حنفي ، التراث والتجديد ، ص ١٣٩ - ١٤٠ . د. زكي نجيب محمود ، تجديد الفكر العربي ، دار الشروق ، القاهرة ، ط ٦ ، ١٩٨٠ م ، ص ٢٠٥ - ٢٥٥ .

(٢) عبد الكريم الخطيب ، مسلمون وكفى ، بيروت ، دار الشروق ، ط ٢ ، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م ، ص ٦٥ ، وما بعدها .

تفريغ المفاهيم الاسلامية من مضامينها الجوهرية ، والتعويل على الأداء الشكلي ، بل وأحياناً الانفلات من مجدد هذا الأداء تحت مسمى الحيل^(١) .

ذلك أن التحيل على المفهوم وتفريغه من معانيه الأصلية وضوابطه وشروطه التي تشكل محوراً لا يرتكب عيب التنقيص في المفهوم حسب ، بل يرتكب ما هو أشد ، وهو تجريد المفهوم من جوهر مضمونه الأصيل ، وضرورة الحركة وفق مقتضاه وشرائطه . ورغم أن الحيل كان موضوعها الأحكام والقدرة على التهرب منها في ثوب شرعي شكلاً ، إلا أنها كانت تتضمن من جانب آخر أثراً كبيراً على المفاهيم الاسلامية وتبديدها في الحركة والعمل والنية والاعتقاد . ومن ثم كان بناء المفاهيم الاسلامية عامة ، والسياسية خاصة ضمن عملية بناء التصور الإسلامي السياسي في حاجة إلى التحرز من مثل هذه المحاولات لتبديد المفهوم ، إما بالأداء الشكلي تارة ، أو التهرب من الحركة كلية بمقتضاه تارة أخرى ، فكان لزاماً على الفقهاء مواجهة مثل هذه المحاولة التي اتخذت مسمى الحيل ، بالإبطال ورفض وصفها بالشرعية^(٢) .

(١) د. عون الشريف قاسم ، مسلمون ولا إسلام ، العربي ، العدد ٢٥٠ ، الكويت

١٩٧٩م ، ص ١٢-١٤

(٢) الشاطبي ، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي ، (ت ٧٩٠ هـ) ،

الموافقات في أصول الشريعة ، المكتبة التجارية الكبرى ، مصر ، (د . ت) ٣٧٨ / ٢

٣٨٩- .

وتحقيق البيان في هذا الموضوع ، حفاظاً على المفهوم ، وجوهر معانيه الأصلية كما يتصور الإسلام حقيقته . ذلك أن دعوى التحيل وخطرها على بناء المفاهيم الإسلامية يسقط أثرها إذا ما أدركت حقيقة مناهج أساسية تؤكد على تعلق بناء المفاهيم الإسلامية عامة بالمقاصد بما يضبط عملية الأداء الشكلي أو الظاهري ، ويحقق اتساق الحركة مع صفاء المعنى^(١) .

ذلك أنه يجب التنبيه إلى خطورة اتجاه التحايل والتلبيس فيه . إذ يتخذ هذا الاتجاه صورتين :

أحدهما : إظهار فعل لغير مقصود الذي جعل له .

والثانية : إظهار قول لغير مقصود الذي وضع له .

ويكون الضبط لذلك بالتأكيد على أن الألفاظ إذ اختلفت ومعناها واحد حكمها واحد . فإذا اتفقت الألفاظ ، واختلفت المعاني كان حكمها مختلف وكذلك الأعمال إذا اختلفت صورها ، واتفقت مقاصدها فتعلق الأحكام

(١) الشاطبي ، الموافقات في أصول الشريعة ، ٣٨٨/٢ . البابي ، محمد سعيد ،

عمدة التحقيق في التقليد والتفليق ، دمشق ، مطبعة حكومة دمشق ، ١٣٤١ هـ -

١٩٢٣ م ، ص ١٤١ - ١٤٢ .

على مجرد الألفاظ ، والصور الظاهرة التي بها مناسبة بينها يدع المعاني المناسبة المفضية لها التي إرتبط بها كارتباط العلل العقلية بمعلولاتها^(١) .

وهذه المحاولة إذ تسعى إلى تبديد المفهوم أما في الفعل والمقصودة في الحركة والعمل ، وأما في الاسم بتبديد معناه والمقصود منه ، فإنه بين المفهوم والحركة وبين المفهوم ومعانيه علاقة وثيقة لا تنفصم ، ومن ثم يؤكد الأصوليون أن الألفاظ قوالب المعاني^(٢) .

وهو تأكيد في جوهره على المعنى أولاً ، واللفظ ثانياً . وهكذا يصير تبديد المعنى والتحايل عليه مبقياً على الألفاظ فارغة المضمون وإن بدت صحيحة ظاهراً . ومن ثم يشكل ارتباط المفاهيم الإسلامية والسياسية منها خاصة بالمعاني والمقاصد أحد الضوابط الأساسية إن لم يكن أهمها على الإطلاق في منهجية بناء المفاهيم الإسلامية .

إن نقل هذا التطور إلى دائرة التراث السياسي الإسلامي يتطلب من الباحثين مراجعة لكثير من المقولات والمفاهيم التي بدد مقصودها ومعانيها الأصلية . وهو ما يبدو في مفاهيم مثل : (الخلافة) كمفهوم أطلق على إمامة

(١) الشاطبي ، الموافقات ، ٣٨٥/٢ ،

(٢) الشوكاني ، محمد بن علي بن محمد ، (ت ١٢٥٥ هـ) ، إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول ، وبهامشه شرح الشيخ أحمد بن قاسم العبادي الشافعي ، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح ، القاهرة ، ١٣٢١ هـ ، ص ٤ الهامش .

وسلطة المتغلب ، والبيعة التي أطلقت على مجموعة من البيعات الصورية وجدت في تاريخ المسلمين السياسي دون النظر إلى ما شابها من عيوب القهر والإكراه والحسد أحيانا ، والمعنوي أحيانا أخرى . وكذلك مسمى (السياسية الشرعية) الذي أطلق على بعض من سياسات صورية باطنها الظلم^(١) .

كذلك التحيل لإسقاط الفعل بالتعلل ، مثل إسقاط فرض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مرة بدعوى أنه فرض على الكفاية ، ومرات بدعوى عدم الاستطاعة إثارة للعافية ، والتعلل بعدم التأثير للمقصود عنه . والتحيل من جانب بعض العلماء للانخراط في سلك السلطان وسياسته بدعوى تمكنهم من قضاء حوائج الخلق مما يكون سببا في فساد رأيهم ، أو عدم القيام بوظيفتهم السياسية تجاه السلطة على المقتضى الصحيح^(٢) .

(١) الشوكاني ، إرشاد الفحول ، ص ٨٩ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٨٩ .

المطلب الثالث

﴿ كيفية بناء المفاهيم الإسلامية السياسية المعاصرة ﴾

قدمنا في المطلب الثاني رؤية نقدية لبعض محاولات بناء المفاهيم الإسلامية السياسية ، وهي محاولات نطلق عليها بناء ما قبيل التجاوز ، إذ أنها في الحقيقة ليست إلا تبديداً للمفهوم تارة بتحجيمه وإهمال أبعاده المعنوية التي تستعصي على القياس بطبيعتها ، وتارة بتبديل المفهوم والخضوع للغة الغرب بدعوى اللغة المناسبة ، والقدرة والتوصيل والاتصال ، محاولة إقصاء الدين عن مجال السياسة كلية ، وبالتالي إقصاء مفاهيمه عن الحياة السياسية مما يجعل أمر ملئها هنا بالعقل .

وهذه المحاولات في إطار الرؤية النقدية تفرض على الباحث - بتقديم مقترح بناء المفاهيم الإسلامية السياسية - تشكل بناء متكامل قادر على المواجهة ، واضح الخطوات ، محدد المصادر وفق أولوياتها ، متوسلاً أدوات تتفق مع طبيعة هذا البناء ومصادره . وهو ما يعني أن هذا البناء المتكامل إنما يشكل من ناحية استكمالاً لبعض خطوط الرؤية النقدية لمجموع المحاولات السابقة . كما أنه من ناحية أخرى يشكل خطوفاً رئيسة لصياغة هذا المقترح في بناء المفاهيم الإسلامية السياسية^(١) .

(١) إسماعيل ، سيف الدين ، في النظرية السياسية ، ص ١٣٦ .

فمن المحاولة الأولى وقصورها ، يصير التأكيد في هذا المقترح على مصادر بناء المفاهيم الاسلامية . وعلى طبيعة الشمول والكلية في النظرة للمفاهيم المشتقة من نظام الإسلام ، وعدم إمكان تجزئتها والأخذ منها ما هو قابل للقياس لأي سبب من الأسباب ، إلا في إطار فهم الجزء ومكانته في إطار الكل الإسلامي ، ومن غير هذا وذاك يصير المفهوم مشوها ، والنتائج المتحصلة من الدراسة - على أساس منه - أكثر تشويهاً . ومن المحاولة الثانية وانفلاتها من كل قيد في تجديدها اللغوي يعد التأكيد على حدود عملية التعريب ، وضبط ما يقال عن تطور اللغة وعصريتها ضرورة ، وفق سلم التصاعد الفقهي الذي يعلي الحقائق الشرعية بفضل ثباتها وحاكمتها في الحقائق المعرفية ، كما نتخذ من الحقائق اللغوية أداة هامة لتحقيق البيان مع الاحتفاظ بقدرتها في أن تعطي للألفاظ معان متجددة وشاملة^(١) .

ومن المحاولة الأخيرة احتيالها على المفهوم تنبع ضرورة قيام المقترح بسد الطريق على التحيل على المفاهيم الاسلامية السياسية من خلال ضبطها وتحديد ما قصدتها . وذلك ببيان معانيها الحقيقية الأصلية والاصطلاحية

(١) محمد عبد الرحمن عوض ، فقه الكلمة ومسئوليتها في القرآن والسنة ، دار

الأنصار ، القاهرة ، ١٣٩٩هـ ، ص ٤ - ٣٦ .

واللغوية وفق الحقائق الشرعية الثابتة ، والتي تشكل حدوداً للحركة حيث لا يجوز التعلل ، أو التبرير^(١).

فالحقيقة الشرعية التي تشكل الحقيقة الجامعة ، والعقيدة الجازمة لا تعرف إلتواء في المعنى أو الحركة ، بل تتضمن الكيفية التي يمكن على أساس منها رؤية علاقة المفاهيم الاسلامية بالواقع ، سواء تعلق بخبرة تاريخية ماضية ، أو بخبرة معاصرة معاشة ، والتي تأخذ شكل علاقة تقويمية ، وضبط لهذا الواقع وعرضه على مجمل هذه المفاهيم الاسلامية الثابتة التي تشكل معايير ضابطة ونسقاً قياسية . فهي تقومه - تأخذ الواقع في الحسبان - من حيث خبرة التعامل معه لا الانسحاب منه لكنها لا ترضخ له وفق مقولة الأمر الواقع خاصة إذا لم يوافق هذا الواقع جوهر هذه المفاهيم^(٢).

ومن مراجعة تلك المحاولات السابقة تبرز ضرورة مناقشة فكرة التقليد للمفاهيم العربية بلا حجة ولا بينة في إطار رؤية نقدية لتلك المفاهيم وصلاحياتها ، رغم أنها تشكل لغة شائعة بمفرداتها في علوم السياسة في الوطن

(١) أنور الجندي ، تصحيح المفاهيم الاسلامية ، دار الاعتصام ، القاهرة ، ١٩٧٨ م ، ص ٤٠٣ .

(٢) إسماعيل ، سيف الدين ، في النظرية السياسية ، ص ١٣٧ ، محمد رفاعي سرور ، حكمة الدعوة ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، (د . ت) ، ص ٧١ - ٧٧ .

العربي . وفي هذا السياق يمكننا معالجتها في عدة نقاط أساسية في مقترح بناء المفاهيم الإسلامية تباعاً في النقاط الآتية :

أولاً : - (القرآن والسنة الصحيحة) المصدر الأساس لبناء المفاهيم الإسلامية السياسية المعاصرة .

إذا كانت اللغة تشكل أداة البيان ، فإن الوحيان الكتاب والسنة يؤلفان بدورهما المصدر الأساس لبناء المفاهيم الإسلامية السياسية ، وارتباط الأداة بالمصدر ارتباطاً لا ينفصم . فاللغة أداة لفهم القرآن ، والسنة الصحيحة . ومعظم الخطر الواقع بالإحداث في الشريعة يقع من هذا الباب ^(١) .

ومن ثم فإن بناء التصورات والأسس العقائدية التي تشكل بدورها مفاهيم كلية وأساسية تقوم عليها العلوم الإنسانية والاجتماعية (علوم الأمة) يجب أن تستند إليها المفاهيم الإسلامية النابعة من الوحي ، فهو مصدر أساس قرآناً كان ، أم سنة صحيحة ، ويصير الوعي بالقرآن وتدبره له قيمة لدى الدارسين والباحثين ، وله قيمته في مواجهة (الفتنة) بالمنهج الشائعة في الغرب والشرق ، والتي تفتن الناس بأنها مناهج مفصلة ومدروسة ، فيغفلون عما فيها من انحراف من خطر ويظنونها صالحة لمجرد كونها مدروسة ومفصلة ^(٢) .

(١) محمد قطب ، منهج التربية الإسلامية ، القاهرة ، دار القلم ، ط ٢ (د . ت)

ص ٧٨ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٧٨ .

إن دور القرآن الكريم في بناء المفاهيم الاسلامية وصياغتها محدد بضوابط ، وهو من صميم عملية التدبر والتذكر^(١) .

ويعد الوحي مصدراً لبناء المفاهيم الاسلامية السياسية ، والإطار الفراغ هو المسيطر على العقول ما لا يدع لها مجالاً للملء الصحيح ، فيقبل كل ما يلقي إليه دون تفكير أو تدبر ، ودون توفر المستلزمات والحدود والشروط ، بحيث يعزل الإسلام عن الحياة بكل مناحيها من جراء إقصاء القرآن علماً وعملاً وقيمة واقعية للإجابة على كل مشكلة حياتية في إطار عملية بناء المفاهيم الاسلامية المنبثقة عنه ، إذ يشكل ذلك جوهرية عملية التجديد في العودة إلى الأصول . والعودة إلى أصل الأصول أمر بديهي في بناء مجموعة المفاهيم الاسلامية القياسية والمعيارية لمعرفة وتحديد الحق والباطل .

ومن هجر القرآن العظيم في هذا الزمان محاولة البعض تنحيته عن وظيفته الأساسية في بناء المفاهيم الاسلامية . وكذلك فإن المشابهة ما بين المفاهيم القرآنية ، ومفاهيم كتب لها السيادة والانتشار بفعل التغريب ، إنما تحاول بصورة غير مباشرة عدم الاعتماد على القرآن مصدراً أساساً لبناء المفاهيم الاسلامية ، وهجران معانيه ومفاهيمه^(٢) .

(١) محمد قطب ، منهج التربية الاسلامية ، ص ٧٩ ، وما بعدها .

(٢) ابن فارس ، آثار بن باديس ، إعداد وتصنيف ، عمار الطالبي ، الجزائر ، دار اليقظة العربية بالاشتراك مع دار الشركة الجزائرية ، ١٩٦٨ م ، ص ٤٠٧ . موريس

وهجر القرآن لا يقف عند حد عملية البناء للمفاهيم الاسلامية ، والعجز عن أعمالها في حياتنا ومشكلاتنا ، بل يتعدى ذلك إلى الوقوع فيما حذر منه الرسول ﷺ قال تعالى على لسان نبيه ﷺ : ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾^(١).

ذلك أن الهجر لا يعني عدم التلاوة والقراءة فقط ، وإنما يعني أيضا العجز عن وضع خطاب التكليف في مكانه المطلوب في الحياة ، والحكم على الأشياء من خلال القيم القرآنية والسنة^(٢).

وهجر القرآن ومفاهيمه إنما يشكل مقدمة لغربة الإسلام ، وقد حفل القرآن بتحذيره للمسلمين وإنذارهم ، وأمرهم أن يتعاملوا مع معطيات القرآن ومفاهيمه بصورة مستمرة ومتجددة ، آخذين في اعتبارهم طول الأمر ، وما يحدثه من

بوكاي ، دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة ، لبنان ، دار المعارف ، (د . ت) ، ص ١٥٦ - ١٥١ .

(١) سورة الفرقان ، الآية / ٣٠

(٢) عمر عبيد حسنة ، نظرات في مسيرة العمل الإسلامي ، كتاب الأمة ((العدد الثامن)) قطر ، رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية ، ١٤٠٥ هـ - ص ٤٨ .

عملية تغيير وتبديل وانحراف وغفلة وغيرها من المواقف ، ومع الإنذار والتنبيه ينتفي العذر أيا كان استناده وأساسه ^(١).

ثانياً : - العقيدة وتأصيل المفاهيم الاسلامية السياسية .

العقيدة تعني - فيما تعني من حيث أثرها - الارتباط بين القلب البشري والعقل ، وبين الفكرة ، أو الرأي ، أو المفهوم ، أو المنهج المعين . وهذا الارتباط يتميز بالوثاقة والقوة والإحكام كما يتسم بالثبات والاستمرار ، والاعتقاد والعقيدة ، ومحور الفكر والتفكير ، ومنطلق السلوك وقاعدة المفهوم . ومن هنا يتبدى أن الممايزة في المفاهيم ضرورة يفرضها تميز العقيدة والاستمساك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها ^(٢).

ويعد بناء المفاهيم الاسلامية بوجه عام ، والسياسية بوجه خاص ، جزءاً من مهمة ممتدة لمواجهة النظم العقائدية الوافدة والمغايرة التي ترد على مجتمعات المسلمين ، وجزءاً أصيلاً من نظام عقائدي إسلامي . ذلك أن صياغة

(١) الشاطبي ، الموافقات ، ٣/٣٤٥ - ٤٢٤ ، محمد تقي الأمين المندوي ، عصر الإلحاد ، ترجمة ، د. مقتدى حسن ياسين ، مراجعة وتقديم : د. عبد الحلیم عويس ، دار الصحوة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، (د.ت) ، ص ١٣ - ٣٨ .

(٢) السيد رزق الطويل ، العقيدة في الإسلام منهج حياة ، وزارة الأوقاف ، القاهرة ، ١٤٠٢هـ - ١٩٨١م ، ص ١٥ - ١٦ .

مفاهيم الإسلام السياسية الأساسية إنما تنظم جماعة المسلمين ، وتكون منهم أمة وتقيم على أساس منها دولة لتجتمع لهم ، بذلك عقيدة واحدة^(١) .

وكما تبدو أهميتها مع تراكم صفات الضعف والجمود وغلبة النقل والتقليد والاهتمام بالجزئيات تفكيراً وعملاً بدلاً من الاهتمام بأهداف الإسلام العام ومقاصده وکلياته مما أضعف الوعي الإسلامي العام من جراء ما طرأ من تغيير على المفاهيم الأساسية والانحراف عن الاتجاه الإسلامي الأصيل . وتبديل سلم الأولويات كما رتبها الإسلام في كتابه وسنته ، بحيث أصبح الاهتمام الأكبر بالأمر الكمالية ، والإغفال للأمر التي اعتبرها الإسلام من الضروريات أو الحاجيات . يضاف إلى هذا ما أدخل في المحيط الإسلامي من المفاهيم الوافدة ، وما ابتدع في مجال العقيدة والعبادات مما أخل بعقيدة التوحيد التي هي محور الإسلام . وسبب قوته فضلاً عما تبلور من مفاهيم ارتبطت بعصور الضعف تلك التي أكدت على الشكل دون القصد^(٢) .

إن بناء المفاهيم الإسلامية وفق هذا التصور يجعل من تأسيسها على العقيدة أمراً لا انفكاً منه ، حيث يحقق ذلك التوحيد لاستخدامها في

(١) د. محمد فتحي عثمان ، دولة الفكرة التي أقامها رسول الإسلام ﷺ عقب الهجرة ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، (د . ت) ، ص ٨٢ .

(٢) د. محمد مبارك ، نظام الإسلام العقائدي في العصر الحديث ، دار الدعوة الإسكندرية (د . ت) ، ص ٤ - ٦ .

المجال البحثي ، بل في الواقع المعاش ، وبذلك تشكل المفاهيم الاسلامية القبلية " التي يجب التوجه إليها ، وتحري الدقة في تولية الوجه شطرها باعتبارها من صميم عملية التمايز التي ترتبط بالأمة ^(١) .

وتفصيل الأمر أن العقيدة تتمركز حول قيمة التوحيد التي تشكل جوهر الحضارة الاسلامية ، والالتزام العقيدي للإنسان المسلم في حركته وسلوكه ^(٢) . ومن ثم يجب أن يكون تحديد المفاهيم الاسلامية السياسية موصلاً بالقاعدة العقائدية الأساسية قيمة التوحيد ^(٣) .

مستندة إليها في تمييز الكلمة الطيبة عن الكلمة الخبيثة ، والمفهوم الطيب المستند إلى الشرع عن المفهوم الخبيث المنبت الصلة بالشرع ، بحيث يصير التفاعل الإيماني مع الكلمة الطيبة ورعايتها وحمايتها حتى تؤتي أكلها كل حين ورفض الكلمة الخبيثة حتى لا تتجذر ، ولا يكون لها من قرار ، فيتيسر اجتثاثها قبل التمكن ، ويعتد هذا وذاك جوهر الالتزام العقائدي .

(١) حمدي إبراهيم ، حول المجتمع الإسلامي ، المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية ، العدد ١٢٧ ، ١٣٩ ، القاهرة ، ص ١١ - ١٢ ، سيد قطب ، خصائص التصور الإسلامي ومقوماته ، دار الشروق ، القاهرة ١٤٠٦ هـ ، ص ٢٧ ، وما بعدها .

(٢) د. إسماعيل راجي الفاروقي ، إعادة البناء الإسلامي والمفاهيم السياسية ، مجلة المسلم المعاصر ، العدد (٢٢) ، بيروت ، ١٩٨٠ م ، ص ٣٧ - ٧١ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ٣٧ .

الكلمة الطيبة التي تشكل الأصل الذي يبني عليه ليست سوى كلمة التوحيد ، والأصول ، والفروع تكون نابعة عنها بحيث تصير الكلمة قضية جازمة وعقيدة جامعة ، فعقيدة التوحيد أصل أصول الإيمان^(١).

وخلاصة القول : إن دائرة المفاهيم تعد أهم الدوائر لضرورة تحقيق التمايز والهوية الحضارية والمباينة والمفارقة ، ورفض التشبه أو التقليد للغرب في مفاهيمه حتى لا يؤدي ذلك إلى التناسب والتشاكل بين المتشابهين وما يقود إلى موافقة في الأخلاق والاعمال بما يتناقض والقواعد والمعايير الإسلامية . وعلى حد تعبير ابن تيمية فإن ترك المشابهة واقتضاء سلوك المخالفة بالجملة بما فيها دائرة المفاهيم يحقق اختصاص هذه الأمة بالوصف الذي فارت به غيرها ، وهو ما يقتضي أن ترك المشابهة للأمم أقرب إلى حصول الوفاء بالاختصاص^(٢) . أو بتعبيرنا الهوية والتمايز .

(١) د. عبد العزيز كامل ، الإسلام والمستقبل ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٥ م ، ص ٩٨ ، محمد بن الشريف ، الأمثال في القرآن ، دار المعارف القاهرة (د.ت) ، ص ٧٥-٧٦ ، حامد بدر ، الإسلام قلعة الإنسانية ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، ١٣٩٢هـ-١٩٧٢م ، ص ١٥ ، ما بعدها .

(٢) ابن تيمية ، أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام (ت ٧٢٨ هـ) ، اقتضاء الصراط المستقيم بمخالفة أصحاب الجحيم ، القاهرة ، دار الحديث ، ١٩٨٣ م ، ص

ثالثاً : - اللغة أداة البيان .

إن اللغة ليست بشرية بما تشتمل عليه من حركات وسكنات ، وإنما هي بشرية بما تنبض به من معنى يضيفه الإنسان على الأشياء التي يسميها . فهذا مناطها دون سواه من المقاييس والمعايير . واللغة ليست مجرد أداة رمزية ، إنها جوهر التفاعل الحضاري من منطلق العملية الاتصالية ، وهي تعبير عن حقيقة حضارية . فعلاقة اللغة بالفكر ليست على نحو من التجريد والثبات ، بل هي إنسانية ، ولكل لغة نظام خاص في تأليف ألفاظها ، فما يشيع في إحداها قد يندر في الأخرى .

وإلى جانب هذا ، فإن كل لغة تؤدي إلى مسلمات تنزل ، منزلة القيم التي تضي على الدلالات حجية يتعاطاها إبتاء اللغة فيما بينهم ، وربما غربت عن سواهم^(١) .

اللغة بهذا الشكل هي أداة التفكير كما أنها أداة البيان ، وهذا الأمر رغم أنه بديهية تفترض التسلم وقضية واضحة بذاتها ، إلا أنه ينتهي إلى نتيجة معقدة . ووجه التعقيد في هذا الأمر يكمن في تحديد العلاقة الحيوية بين اللغة والفكر . ويزيد هذا الوجه تعقيداً التساؤل حول صحة مقولة : إن ألفاظ اللغة محدودة المعاني حداً قاطعاً واضحاً في كل لسان ، وفي كل زمن من

(١) د. أحمد محمود شاكر ، أباطيل وأسمار ، القاهرة ، مطبعة المدني ، ١٩٧٢م ،

أزمة هذا اللسان . فإن تركيب ألفاظ اللغة أي الجمل وأساليبها المختلفة محددة هي الأخرى تحديداً قاطعاً واضحاً في كل لسان وفي كل زمن من أزمنة هذا اللسان^(١) .

ومن ثم يصير إدراك وجوه التعقيد في هذه العلاقة مؤدياً إلى التباس في قدرة اللغات على الإبانة ، ذلك أن الاختلاف على معاني الألفاظ ، واستعمالها لم يمنع من اتخاذ اللغة وسيلة إلى البلاغ والتفاهم^(٢) .

ومن ثم يشكل البيان المهمة الأساسية في وضوح المفهوم ورفع الالتباس عنه ، ويعد البيان وتعليمه أعظم منة من الله بها على عباده^(٣) .

ويقترن البيان بقواعد مخصوصة ، من حيث أن اللغة هي وعاء الفكر والحضارة بدونها لا يمكن التعبير عن المعاني إحدى المقومات الرئيسة التي

(١) د. أحمد محمود ، أباطيل وأسما ، ص ٥١٣ - ٥١٤ .

(٢) جوردن هلفيش ، التفكير التأملية ، ترجمة : السيد محمد العزاوي ، وتحليل إبراهيم شهاب ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٦٣ م ، ص ١٦٥ - ١٦٨ .

(٣) أحمد محمود ، أباطيل وأسما ، ص ٥١٥ - ٥١٧ ، د. نيفين عبد الخالق ، المعارضة في الفكر السياسي الإسلامي ، مكتبة الملك فيصل الإسلامي ، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م ، ص ١٦ - ١٧ .

تكون شخصية الأمة وتمنحها ملامحها وهويتها ترسي دعائم التفاهم بين أبنائها وتحقق وحدتها^(١).

والنظر إلى اللغة ومكانتها وإسهامها في عملية التمايز أمور يحققها القرآن الكريم ويؤكددها . فاللغة هي الوعاء الذي احتضن الوحي وعبر عنه ، فقد أكد ﷺ على الصلة بين لغة النبي ﷺ وبين الوحي الذي أنزله في آيات كثيرة بما يكرس الارتباط بين لغة القوم ، والوحي ، والرسول^(٢).

قال تعالى في كتابه العزيز : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رُسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾^(٣).

غير أن أهم القضايا التي تثيرها العلاقة الحيوية بين اللغة والهوية هو تحديد أساس هذه الهوية ، والأصل الذي تستند إليه من الوحي من ناحية ،

(١) العمري ، د. أكرم ضياء ، التراث والمعاصرة ، سلسلة فصلية ، كتاب الأمة ، العدد العاشر ، رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية ، الدوحة ، ١٤٠٥ هـ ، ص ٧٢ .

(٢) السامرائي ، د. عبد الله سلوم ، الإسلام والقومية ، بغداد ، العراق - دار الحرية للطباعة ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م ، ص ٥٣ - ٥٨ .

(٣) سورة إبراهيم ، الآية / ٤

وتحقيق قضية تطور اللغة الخاصة في إطار بيان الحدود لعملية التعريب التي قد تلقي بظلال الشك حول قضية التمايز والهوية من ناحية أخرى^(١).

ومن ثم فإن القول بأن اللغة من الدين لا يُعد تزييداً أو مبالغة ، بل هو قول يستند إلى كثير من الأدلة ، حيث يشكل فهم اللغة – الفهم المنضبط بقواعدها الثابتة – مقدمة لفهم المصادر الأساسية (قرآناً ، وسنة) ويشكل الأداة لبناء المفاهيم الاسلامية عامة والسياسية منها خاصة^(٢).

(١) د. علي عبد الواحد وافي ، فقه اللغة ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ط٢ ، ١٣٦٣هـ-١٩٤٤م ، ص ٩٢ - ٩٣ .

(٢) مالك بن نبي بين الرشد والنتيه ، إصدار مالك بن نبي ، دمشق ، دار الفكر ، ١٩٧٨م ، ص ٤٦ ، د. طه حسين ، مستقبل الثقافة في مصر ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٤٤م ، ص ٢٢٩ - ٢٣٣ ، محمد حسين ، حصوننا مهددة من الداخل ،

رابعاً : - الخبرة وبناء المفاهيم الاسلامية السياسية .

تبقى هذه النقطة الأخيرة حتى تكتمل الخطوة الرئيسية لمقترح بناء المفاهيم الاسلامية السياسية ، والتي تركز على العلاقة بين الخبرة والمفهوم وفق أصول الرؤية الاسلامية .

وبادئ ذي بدء فإن استخدام مفهوم الخبرة في هذا المجال يجب ألا ينصرف إلى الحركة والممارسة الفعلية فحسب ، ولكن مفهوم الخبرة وفق معانيه اللغوية يعني ضمن ما يعني النظر الواضح ، والمعرفة الشاملة العميقة كمقدمة لحركة فعلية وممارسة عملية . ومن ثم قد تكون الخبرة تعبيراً عن نماذج تاريخية حركية ، أو نماذج فكرية تراثية . هذا من جانب ، ومن جانب آخر ، فهي لا تقتصر على خبرة ماضية ، بل هي وفق ترابط حلقات الزمن المتواصلة والمتداخلة والممتدة تهتم بالحاضر ، حيث تعد خبرة معاشية معاصرة وآنية ، كما أنها قد تنطلق من الخبرة الماضية والمعاشية الآفاق حركة المستقبل ، وضرورة ضبطها وفق حقائق العبرة من خبرة الماضي ، ومعرفة معطيات الواقع الحاضر المعاش ، وإمكانات تغييره المستقبلية في ظل فهم شامل لمفهوم الخبرة يتواصل فيه الفكر بالحركة ، كما تتواصل فيه حلقات الزمن الماضي والحاضر والمستقبل^(١) .

(١) إسماعيل ، سيف الدين ، النظرية السياسية ، ص ١٦٨ - ١٦٩ .

- الخبرة التاريخية والمفاهيم الإسلامية :

أين الخبرة التاريخية من بناء المفهوم الإسلامي ؟

تساؤل له مشروعيته خاصة أن الإسقاطات التاريخية على المفهوم الإسلامي قد لعبت دوراً في تشويه المفهوم ، وربما تفرغته من جوهر معانيه . غير أن من اعتد بهذه الإسقاطات التاريخية في عملية بناء المفهوم الإسلامي ، وجعلها جزءاً من المفهوم ، فاختلط في المفهوم جانبه القياسي الثابت ، وجانبه المتغير الذي يعنى بالواقع وتفاعل المفهوم معه زمنياً ومكاناً وبشراً يقوده إلى إحالة الثابت على المتغير ، مما أحدث فوضى في الفهم ، وقيام جدل كلامي دفاعي في منهجيته دون أن يحاول لفت النظر إلى الخطأ المنهجي الذي ارتكب بداءة في فهم طبيعة المفهوم الإسلامي ومستوياته المختلفة .

والباحث إذ لا ينفى أن يكون للخبرة التاريخية للمسلمين دورها في هوان وتبديد المفاهيم الإسلامية والسياسية من ناحية ، إلا أنه من ناحية يرى أنه يجب التأكيد على أن الإسلام تحمل العنت من الساسة الذين حكموا باسمه ، ونسوا هدايه ، أو من المجتمعات التي انتمت إليه ، ثم قدمت مواريتها وأهواءها على مطالبه ووصاياه ومفاهيمه الصحيحة . غير أن مكنم الخطأ والخطر كان في ذلك الاستسلام للواقع الكئيب الذي سيطر على الفقه عدة قرون ، والذي فرض اغتصاب السلطة وأعطى الحكام المتغلبين صفة

شرعية ، ورضى بانحرافات ثقافية واجتماعية وسياسية ، وصار هؤلاء الذين أضعوا مفاهيم الكتاب التي ورثوها^(١).

وعلى هذا : فإنه ليس من الصواب أن ينسب الخطأ إلى الإسلام ومفاهيمه من خلال الخبرة التاريخية ، وممارستها المنحرفة عن ذات الإسلام ومفاهيمه ، إذ يعد هذا خلطاً من الناحية المنهجية يجب دفعه ، وليس يلزم رفعه وبيانه . ويبقى انتقاد آخر يكمن في طول فترة التجاوزات في الخبرة التاريخية عن منهج الإسلامي الصحيح ، ومن ثم فقد يدعى هؤلاء أن الفترة التي تطابق فيها منهج الإسلام مع الممارسة الحركية كانت حتى الخلافة الراشدة ، وهي لا تتجاوز ثلاثين عاماً ، وقد يستنتجون من هذا الحساب الكمي لخبرة المسلمين التاريخية أن هذه الفترة على قصرها غير صالحة للدلالة على فاعلية الفكرة في الواقع . والحق أن هذا الرأي يتضمن نوعاً من التلبيس على منطقية الظاهرة^(٢).

حيث يتناسى قاعدة منهجية أساسية مفادها أن الحساب في هذا المجال ليس حساب السنين التي وافقت فيها لممارسة الإسلام الصحيح ، أو

(١) محمد الغزالي ، الإسلام والاستبداد السياسي ، القاهرة - دار الكتاب العربي (د.ت) ، ص ٤٦ - ٥٥ .

(٢) الفيومي ، د. محمد إبراهيم ، تأملات في أزمة العقل العربي ، القاهرة ، مكتبة الانجلو المصري ، ١٩٨٣ م ، ص ١٩٦ - ٢٢٣ .

السنين التي خرجت فيها الممارسة الحركية عن مقتضى الإسلام وانحرفت عن مفاهيمه ، بل هو حساب السنن التي تحكم عملية التغيير ، فلا تحال – وفق هذا الانضباط المنهجي – أخطاء الحركة على المنهج ولا تحال أخطاء المسلمين على الإسلام . ومن ثم فإن تاريخ المسلمين يحمل تفسيره في إطار تخلف البشر عن التفاعل مع السنن الإلهية والابتعاد عن جادة الإسلام ومفاهيمه . وهذا هو المحك في اعتبار النتيجة ، وضبط عملية الحساب .

ويعالج القرآن الكريم هذه القضية مشيراً إلى ضرورة الفهم الصحيح لقضية التغيير وحساب السنن في إطار التحذير والإنذار المشابه أهل الكتاب في فعلهم ، ومن ثم في جزائهم ومصيرهم : ﴿ الْمَيَّانُ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فُاسِقُونَ ﴾ (١) .

فمع طول الأمد يتعكر المجرى ، ويكثر الغش ، ويكثر التبديل ويتراكم ، وتكون النتيجة أن تصبح أمة المسلمين منحرفة عن طريقها ، وضرورة تفحص الخبرة التاريخية من خلال ضبط معايير يمكننا من تقويم عناصر هذه الخبرة في ضوء منظومة المفاهيم الإسلامية . ذلك أن مفاهيم مثل الخلافة ، أو البيعة ، أو الشورى ، كلها مفاهيم إسلامية يمكن ضبطها وتأسيسها على

(١) سورة الحديد ، الآية/١٦ .

أساس من القرآن والسنة الصحيحة . هذا الجانب الثابت من المفهوم يشكل مقياساً ومعياراً لتقويم الخبرة التاريخية في امتدادها الزمنية بصدد مفهوم ما ، مما يجعل أمر تقويم هذه الخبرة ميسوراً ، وبما يعني ضبط الخبرة التاريخية من خلال المفهوم القياسي وتقويمه لها .

ومن هنا يبدو للباحث أن فكرة النموذج التاريخي من الأفكار المنهجية التي يمكن توظيفها في إطار إبراز البعد التاريخي للمفهوم في إطار تقويمي لهذه الخبرة ونماذجها ، سواء كانت خبرة ايجابية تسهم في إبراز المفهوم ، أو سلبية بما يعني ضرورة الاعتبار^(١) .

حيث يعد هذا المقصد المنهجي من دراسة التاريخ ونماذجها . وقد عرض القرآن تحقيقاً لهذا مجموعة من النماذج التاريخية من خلال الحوار القرآني التي ذكر آثار المجتمعات السابقة . وفي كل نموذج قرآني ينصب الفهم على مدى قرب ، أو بعد التجربة الإنسانية عن الاهتداء عقيدة وشريعة وحياة . ومن ثم تتميز الرؤية الاسلامية برؤيا مخصوصة للخبرة التاريخية حيث تتبنى اعتبار النظر في مسيرة المجتمعات الماضية ، بل حتى المعاصرة هو جزء من

(١) د. عماد الدين خليل ، القيادة والسلطة في التاريخ الإسلامي ، القاهرة ، مكتبة النور ، ١٩٨٥م ، ص ٨٥ - ٩٠ ، عبد الحليم عويس ، أوراق ذابلة من حضارتنا ، دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية ، بيروت ، دار الشروق ، ط ٢ ، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م ، ص ٧ - ١٥ .

العبرة الإيمانية التي يجب الوقوف عليها من الباحث المهتدي ليتقن من عاقبة الضلال الفردي والمجتمعي ، وليوظف هذه الرؤيا من فهمه وحركته :

﴿ فسيرُوا فِي الْأَرْضِ فَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾^(١) .

وفكرة النموذج التاريخي ليس إلا أعلاء لجانب الفكرة ، ومحور التأسيس لتحقيق الهدف الأصيل من الرؤية التاريخية وهو الاعتبار . هذا من جانب كما أن فكرة النماذج الفكرية التراثية تسهم بدورها في بناء المفاهيم الاسلامية ، سواء مثلت تلك النماذج الفكرية مفكراً بذاته ، أو مدرسة فكرية من جانب آخر بحيث ترى هذه النماذج في إطار الخبرة التاريخية التي عاشتها . كما أن هذه النماذج تاريخية أم فكرية يجب عرض وقائعها ، أو أفكارها على أصول الرؤية الاسلامية ومنظومتها في المفاهيم^(٢) .

- خبرة الواقع المعاش والمفاهيم الاسلامية :

إن معظم الرؤى الوضعي في مجمله تدعى اهتماما بالواقع المعاش وبخبرته . ومن هنا كان بروز معظم الأبحاث المسماة بالأمبيريقية والتجريبية

(١) سورة آل عمران ، الآية / ١٣٧

(٢) محمد أسد ، منهاج الإسلام في الحكم ، نقله إلى العربية ، منصور محمد ماضي ،

بيروت ، دار العلم للملايين ، ط ٥ ، ١٩٧٨ م ، ص ٤٥ - ٥٢ .

. وقد تراوحت تلك الرؤى الوضعية بين اعتبار الواقع مصدراً للمعلومات ، أو مصدراً أساساً وهاماً في (بناء المفاهيم وتطويرها وتعديله ، بل وأحياناً اختفائها) ، بل إن معظم هذه الرؤى – إن لم تكن كلها – قد اعتبرت الواقع أساساً تبني عليه النظرية ومفاهيمها ، وفي كثير من الأحيان محك صدقها ، وصحة مفاهيمها الأساسية^(١).

وهذه المواقف على تعددها تنصرف إلى تفسير نشأة المفاهيم وتطويرها وتعديلها في الفكر الغربي بارتباطها بخبرة تاريخية في مسيرته الحضارية .
وإذا كان في الإمكان التجاوز عن الأمر الأول (أي اعتبار الواقع مصدراً للمعلومات) ، فإنه لا يمكن تقبل هذا التوجه بصدد العلاقة بين الواقع من جانب والنظرية ومفاهيمها من جانب آخر حيث تأخذ العلاقة شكلاً يتضمن أعلاه لجانب الواقع ، والتحكم في عملية التنظير ومنها المفاهيم . وهي بذلك لا تملك إلا أن تتبدل دائماً وتدور حول حركة الواقع والخضوع لتصورات حيث لا يمكن لأي مفهوم وضعي أن يدعى استقلالاً عن الواقع والخبرة ، بينما الأمر يختلف إذا استمدت تلك المفاهيم من مصدر ثابت تكفل الله بحفظه له من الشمول والعموم والاستقلال عن كافة الأهواء ، وكافة ضغوط الواقع^(٢).

(١) د. عبد الباسط عبد المعطي ، اتجاهات نظرية في علم الاجتماع ، ص ١٣ – ١٦

(٢) المرجع نفسه ، ص ١٦ .

إن ضبط المفهوم تحت دعوى الإجرائية من ناحية والاهتمام بالواقع من ناحية أخرى ، يصبح زعماً يؤكد أنه التعريف الإجرائي ليس إلا تعريفاً دراسياً مؤقتاً ، وربما متغيراً وهو ما ينافي مهمة الضبط التي تشكل جوهر المنهجية . اللهم إلا إذا أريد به ضبط الدراسة الجزئية التي يقوم بها الباحث ، وهو ضبط مؤقت يقع في مجال التناقض في إطار التراكم المعرفي من خلال دراسات متتالية حيث تتبنى دراسات أخرى معنى لذات المفهوم مختلفة ، وتركز على جزئيات أخرى مدعية أن ذلك هو تعريفها الإجرائي كما ينبع التناقض من ناحية أخرى من كونها مفاهيم تدعى انعكاسها من الواقع وتعود إليه ، دون أن يكون بين المفهوم والواقع علاقة أداء وتقويم .

فالمفهوم الإجرائي الذي يعتمد فكرة المؤشرات - قد يحاول أن يشكل أداة تفسير للمجتمع الإنساني ، ولكنه تفسير آني يرتبط باللمحة المعاشية ملتصقاً بالبقعة المكانية متأثراً بكل شكل ظاهري ، وبكل معلومة متغيرة . وهذا التغيير يجعل من المفهوم الذي يعود إلى الواقع الذي قد يختلف عن سابقه - مفهوماً دائماً التغيير ، ذلك لأنه يقيم وزناً كبيراً لكل مظهر ، ولكل لون . ويعد كل شكل أو ملمح " حقيقة " مجتمعية تصلح قاعدة للبناء _ في المفهوم (ولا يميز في ذلك بين عنصر الثبات وعنصر الحركة ، ولا بين الخير والشر ، أو بين الصالح والطالح ؛ لأنه لا يقصد ذلك ولا يستطيعه . بينما المفهوم الإسلامي - يقوم وفق الرؤية الإسلامية قياماً منهجياً على الطريقة

الإسلامية في معالجة الواقع ، أي فهم المشكلة أولاً ، وتنزيل الحكم الشرعي المبين في المفهوم وشرائطه بعد استنباطه من النصوص عليها^(١).

ذلك أن الرؤية الإسلامية التي تشكل المنبع والإطار لموضوع الدراسات الإنسانية ليس لديها حكم أو قاعدة شرعية في غير محل ، وترفض أي جهد إنساني لا يحقق قيمة . وترفض أي علم لا ينتفع به . أو لا يرتبط به صلاح الناس . وتشتترط في أي معلومة يتوصل إليها أن تعرض على الأدلة وان تقاس بمقياسها الرؤية الإسلامية ، وكذلك المفاهيم المنبثقة عنها - منضبطة ابتداء ومساراً واتجاهاً ونتائج وملتزمة فكرة وطريقة .

والمفهوم الإسلامي يجب أن ينطلق من صميم الرؤية الإسلامية التي تعني أن كل عمل هو عمل إيماني ، وهو ثمرة تعقل موقفي واع وملتزم بالاهتداء ... وهذا هو في التنظير الإسلامي - ، ومنه بناء المفاهيم الإسلامية ذلك أن أي عمل تشريعي أو نظري ، أو حركي ، فردياً كان ، أو جماعياً ينبغي أن يتقيد بالعرض على مفاهيم الرؤية الإسلامية . وهذا التقيد ما يفرض بذل أقصى الجهد في تجسيد وضبط المسار الإيماني للفكرة والعمل ، وفي ضبط كل أشكال الفهم والحركة في الحياة الإسلامية ، وفي توظيف الشروط التي

(١) د. عبد الباسط عبد المعطي ، اتجاهات نظرية في علم الاجتماع ، ص ١٥ - ١٨

، إسماعيل ، سيف الدين ، في نظرية السياسية من منظور إسلامي ، ص ١٧٤ -

تشكل رابط الحركة بمقتضى المفهوم . حيث تجعل كل فعالية نظرية مقدمة لأداء إسلامي ، أو أساساً لأداء إيماني متحقق في واقع معاش فعلاً أو قابل للتحقق فيه – وعليه : فإن المفهوم وفق الرؤية الإسلامية – وفي كل مجالات المعرفة ، ومنها المعرفة السياسية لا يلقي جزافاً ، أو تقليداً ، أو إتباعاً لهوى ، وإنما هو نبتة طيبة تنبت في تربة صالحة ، وتنشأ في مناخ صالح لتؤتي أكلها كل حين بأذن ربها ، فإن لم تكن كذلك فهي سلبية وجب الخلاص منها اهتداءً بنص القران^(١).

وهذا التقييد هو أصل في أفعال الإنسان من وجهة النظر الإسلامية .

إن الرؤية الإسلامية التي تتميز بشمول مفاهيمها ، فتؤكد على جوانبها الحركية إنما تعبر عن أن الحركة المهدية ليست إلا تطبيقاً عملياً للأفكار ، ولطريقة الحياة الإسلامية ومفاهيمها الأساسية بواسطة الوسائل ، والنظم والأساليب في ظل مناخ مهتد . ولا يتم هذا برعاية ما هو سائد في المجتمع أو الرضوخ للواقع ، بل " بتجسيد الأفكار المفاهيم الإسلامية في ظلال الشريعة الإسلامية تجسيداً نقيماً مستمراً متحركاً في الاتجاه العالمي مرتبطاً بمرضاة الله ... " . ذلك أن الإيمان ومفاهيمه هو الذي يخلق الإنسان خلقاً جديداً ، ويكونه باستمرار ويمكنه من مواجهة السلبيات . ومن دون أن يحول بينه وبين الحياة ، وهو تطبيق متنوع متنوع موقف الأداء .

(١) إسماعيل ، في النظرية السياسية من منظور إسلامي ، ص ١٧٨

وعلاقة المفاهيم بالواقع تكمن في استقلالها عنه من حيث بناؤها الثابت ، ولكنها تهتم به تعاملاً تقويمياً إذا انحرف ، وتكريساً وتأكيداً إذا التزم ، واهتدى ، إنها علاقة تقويم مستمرة ومتجددة لكل سلوك ، فردياً كان أو اجتماعياً ، قيادةً كان ، أو رعيةً ، أو عالماً .

ومن ثم فإن تفاعل المفهوم في بنيانه الثابت المستند إلى الأصول مع الواقع لا بد أن يترك دلالات معاصرة للمفهوم تمثل استجابات نظامية وحركية له تختلف باختلاف الأزمان والأمكنة والأحوال . التي تشكل جانباً متغيراً في المفهوم الذي يشكل نطاق الاجتهاد البشري المتواصل ، والمتجه بالتفاعل معها^(١).

وخلاصة القول : إن العلاقة بين الخبرة في مستوياتها الفكرية والنظامية والحركية ، وفي تنوع عناصرها (الماضي - الحاضر - المستقبل) ، وفي علاقتها بخبرات أخرى ، وأفكارها ونظمها وحركتها (الخبرة الغربية) تعبر عن رؤية متميزة ، تكمن في أن الرؤية الاسلامية تشكل الرؤية الوحيدة في هذا المقام التي تستقل ، ولا تلتبس مع خبرة الواقع أياً كانت . وهي بامتلاكها هذا المعيار المستقل الثابت المتمثل في الوحي تملك قدرات لا محدودة في بناء نسق قياسية قادرة على تقويم الخبرة ، واعتبار الواقع دون الخضوع لعناصر

(١) إبراهيم بن علي الوزير ، على مشارف القرن الخامس عشر الهجري ، بيروت ،

دار الشروق ، ط ٢ ، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م ، ص ٢١٢ .

الخبرة ، أو تحكيم الواقع . وعلى هذا يرتبط الحكم بالدليل ، ولا ينفك عنه في جوهر الرؤية الاسلامية .

وتبدو عملية بناء المفاهيم الاسلامية السياسية من القضايا ذات الأهمية لسببين :-

الأول : حالة التقليد للغرب في إطار من المفاهيم ، والمقاييس الشائعة والسائدة في الإطار الأكاديمي والبحثي في العلوم السياسية في الغرب دون أدنى اعتبار للاختلاف والتمايز .

الثاني : حالة التفريط من جانب الباحثين في مجتمعات المسلمين ، إما من جراء حالة الانهزام حيال المفاهيم الغربية ، ومن ثم تبنيها وإهمال منظومة المفاهيم الاسلامية بدعوى البعض أنها سبب لحالة التخلف ، أو التفريط في المفاهيم الاسلامية معنًى وحركةً بتبديد معطياتها وطمس حدودها وشروطها .

وتتحدد من خلال هذه الأسباب الداعية لعملية بناء المفاهيم الاسلامية^(١) . أهم أهدافها في :-

الأول : تحقيق الهوية والاختصاص والتمايز لمنظومة المفاهيم الاسلامية الطابع والمصدر والوسائل والغايات .

(١) حبنكه ، عبد الرحمن حسن ، الإسلام الصافي ، المملكة العربية السعودية ، وزارة الحج والأوقاف ، ١٣٩١ هـ - ١٩٧٢ م ، ص ١٧٨ - ٢١١ .

الثاني : تحقيق الانضباط لفوضى المفاهيم الشائعة والمنتشرة ، ومراجعة معظمها وفق قواعد الرؤية الاسلامية .

الثالث : التعامل مع الإنسان المسلم بوحدات من المفاهيم قادرة على أن تمس حقيقة تكوينه – رغم هامشيته الظاهرة في فهمه للإسلام – إذ تستطيع هذه المفاهيم أن تفجر الطاقة الحضارية الكامنة من خلال التعامل بمفاهيم الإيمان (الفرض – الحرام والحلال – رقابة الله ... الخ) بما يحقق أقصى درجات الفاعلية .

وهذه العملية يجب أن تحدد أهم أدواتها المتمثلة في فهم اللغة العربية وقواعدها والقواعد التي ارتبطت بعلم أصول الفقه في التعامل مع الألفاظ والمعاني ، وقواعد تحليل النص والحديث ، كما تؤكد على المصدر الأساسي والتأسيسي لبناء المفاهيم الاسلامية حيث يمثل الوحي – قرآنا وسنة – والأساس الأصيل لعملية بناء للمفاهيم في جانبها الثابت .

كما يجب التحذير من مجموعة من المزالق في عملية بناء المفاهيم والانحراف في أدائها ، ذلك أن الفطنة تقتضي ونحن بصدد ذلك ألا يستغرقنا موقف الدفاع ، بل لابد من استيعابه في إطار رؤية نقدية علمية ، تتخطاه إلى البناء والتأسيس ، ومن الضروري التحديد الدقيق لمعركة الدفاع ومساحتها ووسائلها والهدف منها دون أن يستغرق جهودنا ويستنفد طاقاتنا . ذلك أن الاستمرار في مواقف الفكر الدفاعي لا تعنى تقدماً ، ولا تبصراً بالأمر ، ولا

شمولاً في الرؤية ، وإنما تعني مراوحة في المكان ولو بذل كل الجهد ، كما تعني انفعالاً ولا تعني فعلاً . فضلاً عن ذلك يجب الوعي ، ونحن بصدد بناء المفاهيم الاسلامية بعدم التأثير بالمجتمع المعاصر والمعاش في الفكر ، والعادات ، والانطلاق من أفكاره وعاداته ، ومحاولة تأويل النصوص الاسلامية لتوافقها . وكذلك عدم التأثير بأفكار معينة في مجتمعات المسلمين حيث تختلط الخبرة بالمفهوم ، رغم أن هذا ليس فهم الإسلام الصحيح المستند إلى الأصل من الكتاب والسنة . وكذلك الوعي بعدم التسرع في الاستنباط من نص أو أكثر من غير استقصاء للنصوص الواردة في الموضوع ، أو عدم استيفاء العناصر اللازمة للقدرة على الاستنباط . كما أنه يجب الوعي ، ونحن بصدد بناء المفاهيم الاسلامية ألا نحاول تبديدها لدفع تهمة الجمود عنها ^(١) . ذلك أنه في سبيل دفع تهمة الجمود ، التي قد يلصقها البعض بالمفاهيم الاسلامية ينحرف البعض إلى أقصى الطرف المناقض في بيان ما تنطوي عليه هذه المفاهيم من مرونة في التطبيق حتى يبلغ بهذه المرونة حد الميوعة ، التي تجعلها صالحة لأن تكون ذيلاً لأي نظام ، وتبعاً لأي هوية ، وبذلك تنتهي وظيفة تلك المفاهيم القياسية ، والمعيارية ، والتقويمية ^(٢) .

(١) إسماعيل ، سيف الدين ، في النظرية السياسية ، ص ١٨٠ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ١٨١ .

وعليه : فإن أهم خصائص المفاهيم الاسلامية تتمثل فيما يلي :-

أولاً : من حيث المصدر :-

إن المفاهيم الاسلامية تستمد من مصدر ثابت لا يتغير ولا يتبدل : ﴿إِنَّا نَحْنُ نُزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^(١) . ومن ثم هي تضيف على المفاهيم ثباتاً في جانبها المستمد من المصدر التأسيسي (الوحي) .

كما أنها تستمد من مصدر مستقل متميز عن كافة المكلفين ، فلا يتدخل فيه بشر كائناً من كان بالتعديل وفقاً لهوى أو مصلحة . ذلك أن العبرة في الاستدلال بالدليل . وهذا المصدر مستقل عن الخبرة التاريخية ، أو الخبرة المعاشة ، وإن كان يعتبرهما . مثال ذلك أسباب النزول التي هي عبارة عن وسائل معينة وأضواء كاشفة لكيفية تنزيل النص القرآني على الواقعة التاريخية ، وإدراك أبعاد الصورة التطبيقية لمدلولات الخطاب حتى يمكن فيما بعد القياس و (تعدية) الرؤية القرآنية ، وإعطاء الحكم الشرعي للأحداث المتجددة . ولا يمكن أن نتصور أن النص القرآني مقتصر عليها ولا يتعداها إلى غيرها من الوقائع المماثلة ؛ لأن ذلك يقضي على حقيقة الخلود ، والقدرة على العطاء المستمر ، لذلك لا يمكن اعتبار أسباب النزول من السدود والقيود للنص ، خاصة وأن القرآن أكد على ضرورة الاعتبار لأولى الأبصار . وإن العبرة عند

(١) سورة الحجر ، الآية / ٩ .

علماء الأصول بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . كما أن اعتبار أسباب النزول لا يعنى بحال وفق التفسير السابق تحكيمياً للواقع في النص . كما أنه أخيراً يتصف بالعموم في مخاطبة كافة المكلفين في إطار من تكريس قيمة المساواة في التكليف ، ولكن لكل دوره المخصوص وفق حكم التكليف : صح عن ابن عمر (رضي الله عنهما) عن النبي ﷺ قال : (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ..)^(١) .

ثانياً : - من حيث طبيعتها :-

فإن المفاهيم الاسلامية تستمد من الرؤية الاسلامية التي تتصف بالشمول والكلية تلك الطبيعة التي تؤكد شمولاً لكافة الجوانب والمستويات كما تفترض الرؤية الكلية التي لا تعتبر الجزء إلا في إطار الكل^(٢) .

وهي بالضرورة بما تتضمنه من خطوط للحكم الشرعي تعد مفاهيم ضابطة وقياسية تقوم بعلمها كمعايير تقويمية . وحيث أن دليل الحكم في الشريعة هو الشرع لا العقل ، ومهمة العقل هي فهم الحكم الشرعي من الدليل لا الدلالة عليه . فتلتزم الرؤية الاسلامية وما ينبثق عنها من مفاهيم بدلالات النصوص

(١) صحيح البخاري ، كتاب (النكاح) باب (المرأة راعية في بيت زوجها) ، ١٥٨/٣ ، رقم (٤٨٠١) .

(٢) حنبكة ، الإسلام الصافي ، ص ١٨٩ ، إسماعيل ، سيف الدين ، في النظرية السياسية ، ص ١٨١ .

كما تشكل العقيدة الإسلامية الأساس والقاعدة للمفاهيم الإسلامية ، كما تعد المفاهيم بدورها ضابطاً ومعياراً على أساسها يمكن فهم مسيرة المجتمع الإنساني عامة والإسلامي خاصة . إن المفاهيم تعبير عن نسق قياسي بالنسبة للمجتمع ولا تنتج عنه .

فضلا عن أنها تتميز بالخصوصية والأصالة ، ذلك أن البحث في دائرة التصور الإسلامي ، والمصادر الإسلامية يجعل تميز المفاهيم الإسلامية وأصالتها في مواجهة مفاهيم الغرب السائدة ضرورة منهجية . حيث أنه من البديهي ارتكازها على العقيدة ، والرؤية الإسلامية في شمولها وتساند جزئياتها ، فتشكل منظومة مفاهيمه يجب أن تتساند عند البحث (يشد بعضها بعضا) في مواجهة منظومة المفاهيم الغربية كما يتأكد تميزها بأخلاقيتها وقيمتها ، وهي لا تعتذر عن ذلك مثل الدراسات والمفاهيم الوضعية التي تدعى حيادها ، وبعدها عن إطار القيم والأخلاق . إذ تعتبر ذلك من صميم الاستقامة العلمية ، وهي أخيراً واقعية . بمعنى أن جانبها الثابت رغم استقلاله وتميزه عن الواقع وضغوطه يعد ذلك الواقع الذي يشكل عطاءها المستمر والمتجدد من خلال استجابات هذه المفاهيم النظامية والحركية لتحدياته ، فهي إن استقلت بناءً لا تستقل تعاملًا . وهذا هو جانبها المتغير ، وهو أمر يجب بيانه حتى لا تلتبس الأمور^(١) .

(١) إسماعيل ، سيف الدين ، في النظرية السياسية ، ص ١٨٠-١٨٥ .

في هذا الإطار السابق ، فإن الموقف من المفاهيم الشائعة في علم السياسة يتضمن مجموعة من القواعد الأساسية :-

أولاً :- المفاهيم الشرعية مقدمة على ما عداها من المفاهيم ، وذلك وفق قاعدة التصاعد في سلم الحقائق في علم أصول الفقه . فليس هناك حقيقة اجتماعية ، أو مفهوم اقتصادي ، أو سياسي بمعنى أنها تنبع من الاجتماع والاقتصاد والسياسة ، بل هناك حقيقة (ومفاهيم) شرعية ، وحقيقة لغوية ، وحقيقة عرفية . وهي كلها تتعلق باستعمال مفردات اللغة في معان محددة ، وحينما يتحدد معناها كمفاهيم أي كمعان مفهومة لدى الباحثين والفقهاء ، فإنها يمكن أن تنتظم في مجال دون آخر ، ولكن من غير أن تصدر عن المجتمع ، أو عن الاقتصاد ، أو عن السياسة كجسم معرفي مستقل عن المنهج الإسلامي المماثل في الأدلة ، وتصبح بعدئذ حقائق إسلامية ومفاهيم شرعية .

ثانياً :- ضرورة استخدام المفهوم الإسلامي الأوضح حين تتعدد المفاهيم مع خشية الالتباس ، مثل استخدام مفهوم الوحي كدلالة على الأصول المنزلة بدلاً من مفهوم التراث حتى لا يختلط المنزل بالبشرى .

ثالثاً :- ضرورة الاجتهاد ، فيوضع مفاهيم إسلامية أصلية ، وبديلة للمفاهيم الغربية تبرز حقيقة التمييز في طبيعة وغاية ومقاصد ، مثل مفهوم الأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر بدلاً من مفهوم المشاركة ، والنصح بدلاً من المعارضة ، والاستقامة بدلاً من الموضوعية^(١) .

رابعا :- ضرورة النظر إلى المفاهيم الغربية بالرؤية النقية الاسلامية ، فيجب عدم الاقتصار على فض الالتباس اللفظي فحسب ، بل الالتباس في المعنى والدلالة مما يتطلب البيان ، ثم تقديم البديل الإسلامي في إطار من فهم صحيح .

خامسا :- ضرورة الاهتمام ببناء مجموعة من المفاهيم المنهجية ، وبيان كيفية استخدامها في الدراسات الاسلامية ، مثل : (القياس الفقهي ، والمقارنة المنهجية - المصلحة الشرعية - الضرورة الشرعية ... والذرائع) ، وضرورة بيان الجانب القياسي المنهجي في المفهوم بما يتضمن بيان حدود تحقيق المفهوم وشروطه .

سادسا :- ضرورة تحقيق وتحرير مناط المفاهيم الاسلامية التي اختلطت أو تشابهت مع المفاهيم الغربية ، مثل : التراث - الشورى - النهضة -

(١) د. معن زيادة ، مدخل لدراسة مصطلحات عصر النهضة السياسية ، مجلة الفكر

العربي ، العدد "٣" ، ١٩٧٨ م ، ص ١٣٦ - ١٤٤ .

الاستنارة - الخلافة . والتحرز في ترجمة هذه المعاني التي قد لا تؤدي مضمون هذه المعاني ، والمفاهيم التراثية^(١) .

سابعاً :- ضرورة تحقيق انضباط تعدد المفاهيم في الفكر الإسلامي ، حتى لا تختلط المفاهيم بلا داع .

ثامناً :- ضرورة الضبط اللغوي للمفهوم حتى لا تتسرب معان سيئة للمفهوم خاصة عند الترجمة ، مثل مفهوم الموضوعية (الموضوع والمختلق) - التنمية .

تاسعاً :- رفض المفاهيم الغربية الموسومة بالوصف الإسلامي (الاشتراكية الاسلامية) ؛ لعدم صلاحيتها للتعبير عن الأفكار الاسلامية .

عاشراً :- المراجعة المستمرة للمفاهيم من ضبط لمفاهيم الغرب الشائعة ، وتقديم الرؤية النقدية لها ، والضبط للمفاهيم الاسلامية وفق مقتضياتها وشروطها وتنقية ما تركته الخبرة على المفهوم وثباته . والتأكيد على استجابة المفهوم وفق حوادث العصر . والمراجعة على هذا النحو يجب أن تواجه كافة الصور التالية^(٢) :

(١) د. معن زيادة ، مدخل لدراسة مصطلحات عصر النهضة السياسية ص ١٣٦ - ١٤٤ .

(٢) مالك بن نبي ، وجهة العالم الإسلامي ، ترجمة عبد الصبور شاهين ، القاهرة ، دار الفكر ، ط ٢ ، ١٩٧٠م ، ص ١٠٤ - ١٠٥ .

الأولى :- وهي الصور المختلطة في مفاهيم بعض الناس لحقيقة التعاليم الإسلامية ، حيث تختلط ولا تدرك مكانتها الصحيحة ، وتتعلق بها الشوائب الناتجة عن تداخل عناصر الصورة وتمازج بعضها في بعض ، وعدم تمايز حدود كل منها .

والثانية :- هي الصورة التي تدخل فيها أخطاء لدى بناء المفاهيم الإسلامية الصحيحة ، وطبيعي أن تكون هذه الأخطاء غير مطابقة للحقيقة الإسلامية .

والثالثة :- الصورة المشوهة للمفاهيم الإسلامية المصاغة من قبل خصومها .

والرابعة :- الصورة التي حدث فيها تغير في النسب بين مفردات ، ومفاهيم الإسلام ، لذا أخذ بعضها من المساحة الكلية في الأفكار والنفوس أكثر من نصيبه المقدر له في أصل التشريع الإسلامي بما يؤديه من خلل في وحدة النظام الكلي للمفاهيم الإسلامية التي تكمل بعضها بعضا . وتحتاج مراجعة المفاهيم - وفق هذا السياق - إلى جهود مكثفة وجماعية لتتبع تاريخ المفهوم وتطوره^(١) .

(١) أنور الجندي ، تصحيح المفاهيم الإسلامية ، القاهرة ، دار الاعتصام ، ١٩٧٨ م ،

ص ٣ ، وما بعدها .

وأخيراً : تجدر الإشارة إلى أن هذه الدراسة لعملية تأصيل المفاهيم الإسلامية السياسية قد سبقها دراسات في هذا التأصيل النظري ، ولو على سبيل الإشارات المجملية^(١).

كما أن هنالك نماذج تطبيقية على ندرتها تنفق وهذا المقترح ، خاصة في مجال النظرية السياسية^(٢).

ومن الجدير بالإشارة : أن المتابعة لموضوع بناء المفاهيم بوجه عام هو أمر حري بالاهتمام^(٣).

(١) أنور الجندي ، تصحيح المفاهيم الإسلامية ، ص ٧ .

(٢) مالك بن نبي ، شروط النهضة ، ترجمة عمر كامل مسكاوي ، و د. عبد الصبور شاهين ، القاهرة ، دار الفكر ، ط ٣ ، ١٩٦٩ م ، ص ٢١٩ - ٢٣٣ .

(٣) يعكف المعهد العالمي للفكر الإسلامي على إصدار مشروعية حول المفاهيم من الكتاب يقدم فيه النماذج المختلفة لعملية بناء المفاهيم وضرورات تفاعلها وتشغيلها .

ينظر : إسماعيل ، سيف الدين ، في النظرية السياسية ، ص ١٣٨ الهامش .

﴿ دستور الأمة ﴾

(نظم النبي ﷺ العلاقات بين سكان المدينة ، وكتب في ذلك كتاباً أوردته المصادر التاريخية . واستهدفت الصحيفة توضيح التزامات جميع الأطراف داخل المدينة ، وقد سميت في المصادر القديمة بالكتاب والصحيفة ، أطلقت الأبحاث الحديثة عليها : لفظة (الدستور) أو ما يسمى بميثاق التحالف الإسلامي)^(١) .

ولقد عرض الدكتور أكرم العمري في كتابه : (السيرة النبوية الصحيحة) طرق ورود الوثيقة ، قال : (ترقى بمجموعها إلى مرتبة الأحاديث الصحيحة)^(٢) .

وبين أن أسلوب الوثيقة ينم عن أصالتها . فنصوصها مكونة من كلمات وتعابير كانت مألوفة في عصر الرسول ﷺ ، ثم قلّ استعمالها فيما بعد حتى أصبحت مغلقة على غير المتعمقين في دراسة تلك الفترة .

(١) الصلابي ، د. علي محمد ، السيرة النبوية ، دار المعرفة - بيروت - لبنان ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م ، ص ٣٢٣ .

(٢) العمري د. اكرم ضياء ، السيرة النبوية الصحيحة ، مكتبة العلوم والحكم بالمدينة المنورة ، ط ١ ، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٢م ، ٣٧٥/١ .

(وليس في هذه الوثيقة نصوص تمدح أو تقدح فرداً أو جماعة ، أو تخص أحداً بالإطراء أو الذم ، لذلك يمكن القول بأنها وثيقة أصلية وغير مزورة)^(١) .

ثم أن التشابه الكبير بين أسلوب الوثيقة ، وأساليب كتب النبي ﷺ يعطيها توثيقاً آخر .

(١) العلي ، صالح أحمد ، تنظيمات الرسول ﷺ الإدارية في المدينة ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، مجلد/١٧- بغداد ١٩٩٧م ، ص ٤ - ٥ ، محمد حميد الله مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة ، دار الإرشاد ، بيروت ط ٣ .

١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م ص ٤١-٤٧

المطلب الأول

﴿ أحوال المدينة وأهلها قبل الهجرة ﴾

كانت موقعة بُعاث ، التي حدثت قبل خمس سنوات من هجرة الرسول ﷺ للمدينة ، إيذاناً بميلاد وعي جديد انتظم جميع فروع القبائل المتنافسة من الأوس والخزرج في مدينة (يثرب) .

فقد أثارت المعركة التي خرج الأوس منها منتصرين ، في نفوس الناس الكثير من التساؤلات ، وشحذت في قلوبهم الرغبة في البحث عن مخرج مما هم فيه من فوضى واضطراب . واعترى الجانبين شعور غامر بعد الرضا عن هذه السلسلة المتصلة من العداوات والمحن التي أفسدت العلاقات بينهما ، وأحالت الحياة المتحضرة في مدينتهما إلى ضرب من ضروب العنف الشامل الذي لا يعقبه استقرار . وكان عدد الضحايا كبيراً ، وسقط في ميدان المعركة جمع من القادة والزعماء من نوي الجاه (ممن لا ينقاد لأن يكون تحت حكم غيره لشدة شكيمته)^(١) .

(١) السمهودي ، نور الدين علي بن أحمد المدني (ت ٩١١ هـ - ١٥٠٥ م) ، خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى ، دار الطباعة الخديوية ، مصر ، ١٢٨٥ هـ ، ٨٤/١ ، حسن خالد ، مجتمع المدينة قبل الهجرة وبعدها ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٦٧ ، ص ١٤ - ١٥ .

(وأورث كل ذلك الناس شعوراً حقيقياً بضرورة إرساء دعائم السلم والنظام ، ووضع حداً للصراع والمزاحمة ، وتسلب ذلك الشعور على عقول أهل المدينة وأصبح شغلهم الشاغل ، إذ أن في ترجمته إلى واقع معاش الفصل بين الحياة والموت وقد أصبح جلياً أن تنفيذ هذه الرغبة الملحة في الأمن والطمأنينة لن يتم إلا عن طريق موحدة ، لم تكن المدينة تحلم بها من قبل)^(١) .

وأمام ضغط الحوادث تهيأ المناخ الملائم لبروز قائد فذ ، يبسط سلطانه على كلا المعسكرين المتحاربين من أوس وخزرج ، وكان القائد الوحيد الذي يملك من الصفات ما يجعله كفواً لملء هذا المنصب الخطير هو عبد الله بن أبي الخزرجي . فقد كان للدور السلمي المحايد الذي أضطلع به قبل الحرب وأثناءها^(٢) أثر بعيد المدى مما أضاف إلى أمجاده السالفة ، وضمن له رضا الغالب والمغلوب .

(١) السهمودي ، خلاصة ألوفا ، ٨٤/١-٨٥

(٢) السهمودي ، خلاصة ألوفا ، ٨٥/١ ، البليهشمي ، محمد صالح ، المدينة المنورة مطابع جامعة الملك سعود ، الرياض ، (د.ت) ص ٣٤-٣٥ .

وتدعم مركزه بعامل آخر ، إذ أن أخته كانت تحت أبي عامر ، الذي كان يحتل مكاناً مرموقاً وسط الأوس ، وكانت له صلات حميمة باليهود من بني النضير^(١) .

وبمعاونة أبي عامر هذا استطاع عبد الله أن يلعب دوراً بارزاً في تقريب الثقة بين الجانبين ، بحيث أشعرهما بضرورة الالتقاء والوحدة ، وكانت فرصته في أن يكون القائد المرتقب كبيرة . ولم يبق بينه وبين تولي منصب حاكم المدينة إلا فترة قصيرة . وكانت الاستعدادات في واقع الأمر تجري على قدم وساق لتنصيبه ملكاً على المدينة ، حين ظهر النبي ﷺ على المسرح السياسي ، فرأى فيه عبد الله بن أبي الخزرجى منافساً لزعامته .

قال ابن إسحاق : (وقدّم رسول الله ﷺ المدينة ، وكما حدثني عاصم بن عمر بن قتادة وعبد الله بن أبي بن سلول ، لم تجتمع الأوس والخزرج قبله ولا بعده على رجل من أحد الفريقين ، حتى جاء الإسلام ، غيرهم ومعه في الأوس رجل ، وهو في قومه من الأوس شريف مطاع ، أبو عامر عبد عمرو بن صفى بن النعمان ، أحد بني ضبيعة بن زيد ، وهو أبو حنظلة ، الغسيل يوم أحد ، وكان قد ترهب في الجاهلية ولبس المسوح ، وكان يقال له الراهب فأما

(١) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ١/٥٨٤-٥٨٥ ، العمري ، اكرم ضياء ، المجتمع المدني في عصر النبوة ، خصائصه وتنظيماته الأولى ، الجامعة الإسلامية ، المدينة المنورة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م ، ص ٥٧ - ٥٨ .

عبد الله بن أبي فكان قومه قد انضموا له الخرزة ليتوجوه ثم يملكوه عليهم ، فجاءهم الله برسول ﷺ وهم على ذلك ، فلما انصرف قومه عنه إلى الإسلام ضغن ، ورأى أن الرسول ﷺ قد أستلبه ملكه ، فلما رأى قومه قد أبوا إلا الإسلام دخل فيه كارهاً مصراً على نفاق وضغن (١) .

وقد كانت هناك إرهاصات لهذا الحدث الكبير ، فقد أبرز موقف الوفد المدني الذي أخذ بيعة العقبة الثانية قبل الهجرة بقليل تصدعاً في الجبهة التي يستند إليها عبد الله . ودل اختيار هؤلاء المندوبين للرسول ﷺ ليكون القائد المرتقب على أن رغبتهم الجامحة في الحصول على الوحدة كانت لها حدود . فقد كان كلا الجانبين ينفر نفوراً كبيراً من قبول مرشح من الطرف الآخر ، وكان اختيار رجل محايد خارج نطاق حزازات المدينة ، ويتمتع بالقوة والنزاهة كتلك التي توفرت في النبي ﷺ يخدم الغرض ، ويلبي حاجات أهل المدينة أكثر مما يلبيها اختيار مرشح من الطرف الآخر كعبد الله ابن أبي (٢) .

ولم يبدأ اتصال أهل المدينة بالنبي ﷺ باجتماع العقبة الأولى ، بل كان يرجع إلى فترة سبقت اشتعال الحرب في بعاث ، فقد ذهب حينذاك وفد من الأوس إلى مكة يبحث عن حلف قريش ضد الخزرج ، وأتاهم الرسول ،

(١) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ١ / ٥٨٤ .

(٢) المصدر نفسه ، ٤٣٧/١ ، الطبري ، تاريخ ، ٣٦٠/٢ ، العلي ، أحمد صالح ، الدولة في عهد الرسول ﷺ ، المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، ١٩٨٨ ، ٦٧-٦٦/١ .

وعرض عليهم ما هو خير من مسعاهم ذاك ، ولكن الدافع إلى الحرب كان أقوى من أن يتيح لهم فرصة ليتفكروا ويترووا فيما عرضه عليهم النبي ﷺ آنذاك ^(١) .

وأخيراً ، وعندما هدأت الخواطر ، ورجعت النفوس إلى صوابها ، والتمس الناس سبل الخلاص ، نظروا إلى العرض الذي قدمه محمد ﷺ من قبل في ضوء جديد . ولم تمنع الخطوة التي أتخذ بها الخزرج المبادرة بقبول الإسلام أولاً ^(٢) ، الأوس من السير على هداهم ، واتباع طريقهم في العام المقبل ، حين أخذ مندوبون عن القبيلتين ((بيعة العقبة الأولى)) ، التي قبلوا بمقتضاها أشياء ، كان من بينها ألا يعصوا الرسول ﷺ في معروف ^(٣) .

وقد مهد الرسل الذين أرسلهم الرسول ﷺ إلى المدينة كمندوبين من قبله ، الطريق لاستقباله كحاكم لا ينازع ، ولم يكن الرسول ﷺ في شك من أمره .

(١) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ٤٢٧/١-٤٢٨ .

(٢) المصدر نفسه ، ٤٣١/١ ، ابن سعد ، محمد بن سعد بن منيع (ت ٢٣٠هـ) الطبقات الكبرى ، بيروت - لبنان ، ١٩٥٧م ، ٢١٩/١-٢٢٠ ، الطبري ، تاريخ

٣٥٦-٣٥٥/٢٢

(٣) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ٤٣٣/١ .

فقد كان يعرف مهمته معرفة تامة ، وقد اضطلع ببعض مسؤولياته حتى قبل أن يهاجر إلى المدينة ^(١) .

وكانت العقبة الثانية بداية الاضطلاع بمسؤولياته كحاكم فعلي ، فقد تضمنت البيعة هذه المرة - وخلافاً لما حدث في المرة السابقة - شروطاً أبعد مدى كان من بينها الدخول في الحرب دفاعاً عن الرسول ﷺ إذ بايعوه على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم ^(٢) .

وبعد أن حصل على الضمانات اللازمة من الوفد لتأكيد قيادته العظيمة ، مارس سلطاته بتعيين اثني عشر نقيباً ، تسعة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس ليتولوا شؤون قومهم ، وليساعدوا في الإدارة عند وصوله ﷺ للمدينة ، وبعد هذا أذن لمسلمي مكة بالهجرة ، وسرعان ما وصل هو إلى المدينة بعد ذلك بقليل ^(٣) .

كانت كل الخطوات التي اتخذت في هذا السبيل حتى الان من تدبير الرسول ﷺ والأوس والخزرج دون غيرهما من بقية السكان . ولم تستشر المجموعات

(١) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ٤٣٤/١-٤٣٥ ، العلي ، الدولة في عهد الرسول ﷺ ، ٦٥-٦٦ .

(٢) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ٢٣٤/١ ، الطبري ، تاريخ ، ٣٦٢/٢ .

(٣) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ٤٤٢/١ ، الطبري ، تاريخ ، ٣٦٣/٢ .

اليهودية في المدينة ، ولم يكونوا على أي حال يرحبون في الفكرة . فقد كانت العداوة بينهم وبين القبيلتين الكبيرتين عظيمة وقديمة . وقد ساعدتهم المنافسة الدائمة بين الأوس والخزرج على الحفاظ على مكانتهم في المدينة ، ولكنهم أيضا كانوا منقسمين على أنفسهم ، وكانوا كالأوس والخزرج كثيراً ما يلجئون إلى وسائل العنف لحل المشاكل التي تنجم بينهم ، فتسيل الدماء وتزهق الأرواح . وقد وجدوا أنفسهم منساقين بحكم هذه الانقسامات الداخلية للانضمام إلى القبائل العربية المتنافسة ، ليكونوا عوناً لهم على إخوانهم من اليهود المعادين لهم ، فتحالف بنو النضير وبنو قريظة مع الأوس ، بينما حالف بنو قينقاع الخزرج^(١) .

وقد ضمنت هذه التدابير الحماية ضد الجانب اليهودي الآخر المنافس ، ومنعت في ذات الوقت احتمال القيام بعمل موحد من جانب الأوس والخزرج ضدهم .

وكان ميزان القوى الداخلي هذا قائماً حين جاء الرسول ﷺ إلى المدينة ، وما كان لهذا الميزان أن يبقى على حاله والأحداث تترى بهذه الصورة التي

(١) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ٤٤٢/١ ، الفراجي ، أ.د. عدنان علي ، الحياة الفكرية في المدينة المنورة في القرنين الأول والثاني للهجرة الموسوعة العلمية ، عدد ٨ ، بغداد ، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢ م ، ص ٢١ - ٢٢ .

قدمنا . فقد كانت التطورات الجديدة التي نجم منها توحيد القبائل العربية تحت قيادة النبي محمد ﷺ تواجه اليهود بخطر حقيقي داهم^(١) .

وكان أول نتائجها اختلال هذا الميزان في المدينة ، مما يندرهم بشر مستطير ، ونظروا بعين الخوف إلى احتمالات هذه السياسة الجديدة ، التي كان النبي ﷺ يسعى بتنفيذها لإعادة الاستقرار في المدينة ، ولتقريب الثقة بين المجموعات المتصارعة بإحلال رابطة العقيدة المشتركة في المدينة بينهم محل العداوة التقليدية ، ولتوجيه جهودهم المشتركة لملاقاة خطر مرتقب يهدد هذه العقيدة المشتركة ، وهذا الخطر هو قريش^(٢) .

وكل هذا كان يعني بالطبع انعزالهم في المقام الأول ، إذ لم يقبلوا العقيدة الجديدة ، ثم طغيان المسلمين عليهم كنتيجة حتمية في المقام الثاني . وكان رد الفعل من جانبهم حيال هذه الاحتمالات ، تلقائياً وجمهورياً ، وإن أعوزه التدبير المنظم ، وتركيز الجهود^(٣) .

فبذلوا أقصى الجهود للتصدي للديانة الجديدة والهجوم عليها ، ونشر الشكوك والتهم حول رسالة محمد ﷺ ونبوته . وأثارت وحدة الأنصار

(١) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ٤٤٢/١ ، ابن سعد ، الطبقات ٢٢٦/١ .

(٢) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ٤٦٨/١ ، العمري المجتمع المدني ، ص ٦٦ .

(٣) ابن هشام ، ٤٨٩/١ ، خليفة بن خياط (شباب العصفري) ، (ت ٢٤٠هـ) ،

تاريخ ، تحقيق : سهيل زكار ، دمشق ، ط١ ، ١٩٦٧ ، ١٣/ .

حفيظتهم ورأوا فيها تهديداً مباشراً لوجودهم . ومن ثم سعوا لإضعاف قاعدة هذه الوحدة وتحطيمها ، بتذكير الأطراف المشتركة فيها بعداوتهم القديمة ، وإذكاء نار البغضاء التي خمدت بقبولهم الإسلام ، وقد تذرع الرسول ﷺ معهم بالصبر أولاً . ولما أصروا على نشاطهم المعادي ، و استشرى شرهم طلب الرسول ﷺ من الأنصار أن ينبذوا الأحلاف التي كانت بينهم وبين اليهود .

قال ابن إسحاق : (وكان رجال من المسلمين يوصلون رجالاً من اليهود لما كان بينهم من الجوار والحلف في الجاهلية ، فأنزل الله فيهم ماينهاهم عن مباطنتهم بقوله ﷻ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأُولُونَكُمْ خَبَالًا وَدُوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُمْ تُعْقِلُونَ . هَآ أَنتُمْ أَولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ ﴾ (١) .

أي تؤمنون بكتابهم وكتابكم ، وبما مضى من الكتب قبل ذلك ، وهم يكفرون بكتابكم ، فأنتم أحق بالبغضاء لهم منهم (٢) .

(١) سورة آل عمران : الآيات ١١٨ - ١١٩ .

(٢) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ٤٤٣/١ .

وما كان هدف النبي محمد ﷺ في هذا الوقت بالذات أن يثير ثائرة اليهود ، لأن في ذلك إفساد لخطته المرسومة ، وإنما كان غرضه الحقيقي أن يدفع القبائل العربية لقطع علاقاتها الرسمية مع حلفائها من اليهود ، حتى يضطر هؤلاء إلى الدخول في أحلاف جديدة لا ترتبط بالقبائل كوحدات منفردة كما كان الأمر سابقاً ، وإنما ترتبط بالسلطة الجديدة التي يمثلها النبي محمد ﷺ (١) .

كانت الفكرة أن تلقى هذه الأحلاف القبلية القديمة لتحل محلها موثيق جديدة ، يوقعها ويلتزم بتنفيذها الهيكل العام للمجتمع المدني الجديد ومع أن كل ذلك قد حدث في واقع الأمر ، فإن العلاقات لا تنفهم بنفس السرعة التي تطبق بها القرارات الرسمية ، فاستمرت الروابط القديمة بين الجانبين لبعض الوقت ، وساعد على ذلك وجود عوامل خاصة قوت من بعض هذه الروابط .

فاستمر الساخظون من أهل المدينة ، والذين عارضوا زعامة محمد ﷺ وتحذوا قدراته بطرق ملتوية كعبد الله بن أبي ، على تحالفهم مع اليهود ، في الوقت الذي نبذ فيه أتباع النبي ﷺ المخلصون أحلافهم (٢) .

(١) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ٤٤٣/١-٤٤٤ ، خليفة بن خياط ، تاريخ ١٤/١ .

(٢) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ٥٤٧/١ ، خليفة بن خياط ، تاريخ ، ١٤/١ .

والإشارة إلى اليهود بلفظ : ((موالينا)) كما ورد في حديث الأوس ،
حين تحدثوا في أمر بني قريظة ^(١) . بعد هزيمتهم في أعقاب حصار الخندق
عام (٥ هـ) لا تعبر إلا عن تلك الروابط التقليدية .

(١) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ٦٨٩/١ ، د . عبد الرحمن البر ، الهجرة النبوية
المباركة ، دار الكلمة ، المنصور ، مصر ، ط ١ - ١٩٩٦م ، ص ٢٠٦ .

المطلب الثاني

﴿ معاهدات ووثائق الأمة (المهاجرين والأنصار) ﴾

أورد ابن هشام ^(١) ، وغيره من العلماء ^(٢) ، هذه السلسلة من الوثائق كعقد متكامل بين المهاجرين والأنصار من جهة ، وبينهم وبين اليهود من جهة أخرى . وتشير الطريقة التي نقل بها النص في المصادر المختلفة ، وعبارات التقدم التي صدره بها الرواة ، إلا أن النظر أتجه منذ القدم إلى اعتبار نص وثيقة واحدة ، وقد تكون كتبت في مرة واحدة ^(٣) .

والقراءة المتأنية للنص ، وإخضاع فقراته المختلفة للتحريص الدقيق ، تبين أنه لا يشمل على معاهدة واحدة ، بل بعكس ذلك ، تبرز في ثناياه سلسلة من المعاهدات المنفصلة . فدليل النص — إذا أغفلنا للحظة واحدة

(١) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ٣٤١/١ .

(٢) أبو عبيد القاسم بن سلام ، الأموال ، مؤسسة ناصر الثقافية ، بيروت — (د.ت)، ص ٣٠٣ ، ابن كثير ، أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن كثير القرشي (ت ٧٧٤هـ) ، البداية والنهاية ، مطبعة السعادة ، مصر ، ط ١ ، ١٣٥١هـ — ١٩٣٢م ، ٢٢٤/٣ — ٢٢٦ ، ، ١٩٨٤م ، ١٧٧/١ .

(٣) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ٣٤١/١ ، أبو عبيد ، الأموال ص ٣٠٣ ، والواقدي ، أبو عبد الله محمد بن عمر الواقدي (ت ٢٠٧هـ) المغازي ، تحقيق : مارسدن جونز ، عالم الكتب — بيروت ، ط ٣ ، ١٤٠٤هـ .

متكاملة ، وهو في الواقع مجموعة من الوثائق المتعددة ، ضمت دون تمييز ، وجمعت في مكان واحد ، فتبدو متداخلة في مواضع ، ومكملا بعضها بعضا في مواضع أخرى ^(١) .

لقد كانت العهود والمعاهدات التي أوردتها المصادر عن هذه الفترة وما قبلها تتسم بالإيجاز والتحديد ، والتعليل الأرجح لهذه الظاهرة التي يبرزها لنا هذا النص ، هو أنه كانت هناك مجموعة من المعاهدات ، عقدت في فترات مختلفة بين الأطراف المذكورة تشمل أحيانا فقرات متشابهة . ثم ضمت إلى بعضها في فترة متأخرة ، وجمعت كوثيقة واحدة تقوم الفقرات المكررة فيها شاهداً على تعدد النصوص الأصلية ^(٢) .

وهناك دليل آخر على طبيعة التعدد في هذا النص ، تتمثل في تكرار من نوع آخر ، فعبارات مثل : ((الله على أبر)) و ((البر دون الإثم)) و ((على أحسن هدي وأقومه)) تجيء عادة في نهاية المعاهدات ، لتؤكد التزام الأطراف المتعاقدة بنصوص الاتفاق ، وذكر الله والوفاء وما إلى ذلك من عبارات يستقيم مع هذه الروح ، وورود هذه العبارات في مواضع متعددة من هذه الوثيقة يدل على أن هناك أكثر من نص واحد في وثيقة الأمة ^(٣) .

(١) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ٤٤٥/١ .

(٢) د . محمد حميد الله ، مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٣٩-٤٠ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ٤٠ .

ولكنه من العسير أن يحدد الباحث بدقة ، أين ينتهي النص الواحد ، وأين يبدأ الآخر ، لأننا إذا قبلنا فكرة اشتغال وثيقة الأمة على سلسلة من المعاهدات المنفصلة ، فإن احتمال الاحتفاظ بكل فقرة في مكانها الأصلي من النص المعنى يكون ضئيلاً جداً^(١) .

وإذا أدخلنا العنصر التاريخي في الصورة ، فإن محاولة تمييز الوحدات المطموسة في هذه الوثيقة تحرز بعض النجاح ، فليس من الشطط أن نفترض أن العملية الطويلة التي تم بمقتضاها تجميع العناصر المختلفة ، والمتناقضة في كثير من الأحيان في المجتمع المدني تحت قيادة الرسول ﷺ قد اكتملت على مرحلتين ، ففي المرحلة الأولى كان الهم الأول توحيد القبائل العربية في المدينة ، إذ كانت تقوم مقام العمود الفقري للدولة الجديدة^(٢) . وكانت هذه المهمة مليئة بالمصاعب والمشاكل ، فلم تكن كل هذه القبائل قد قبلت الإسلام في هذا الوقت ، إذ استمرت بطون وقبائل بأسرها على وثنيته^(٣) .

(١) المباركفوري ، الرحيق المختوم ، ص ١٧٥ .

(٢) ابن هشام ، السيرة النبوية ٣٤٠/١ ، العمري ، السيرة النبوية الصحيحة ، ٢٩٩/١ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ٤٠١/٤-٤٠٢ .

(٣) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ٣٤١ .

وكانت المرونة السياسية وروح الوفاق لازمتين ، إذا كان لمثل هذه الوحدة أن تتم ، أما في المرحلة الثانية ، فقد استغلت قوة هذا التجمع القبلي وتكاتفه للتأثير على القسم اليهودي من سكان المدينة ، بغرض كسب تعاونهم ، والاستفادة مما يبذلون من عون ، لمجابهة أي خطر خارجي ، والتصدي له كجبهة متماسكة . وروح التسامح والوفاق هي الوسيلة لتحقيق أي قدر من النجاح في هذه المرحلة أيضا ^(١) .

ومن خلال ما تقدم يمكننا القول : بأن النبي ﷺ استطاع توثيق العلاقة بين القبائل المتواجدة في يثرب ، حيث قام بعقد معاهدة أزاح بها ما كان بينهم من حزازات في الجاهلية ، وما كانوا عليه من نزعات قبلية جائرة ، واستطاع بفضلها إيجاد وحدة إسلامية ^(٢) .

ومن أجل ذلك فقد استطاع النبي ﷺ أن يقارب بين أفكار المهاجرين والأنصار ، والالتفات إلى بناء الدولة أو المجتمع الجديد تحت عقيدة واحدة وقائد واحد . ويرجع أصل الاتفاق بين المهاجرين والأنصار إلى بيعتي العقبة الأولى والثانية ، ففي البيعة الأولى كانت الشروط أن إلا يشركوا بالله أحداً ،

(١) عون الشريف ، دبلوماسية محمد ﷺ (دراسة لنشأة الدولة الإسلامية في ضوء رسائل النبي ومعاهداته) ، قسم التأليف والنشر ، جامعة الخرطوم ، (د . ت) ، ص ١٧ - ١٨ .

(٢) ابن هشام ، السيرة النبوية ١/٣٤٠ ، المباركفوري ، الرحيق المختوم ، ص ١٧٤

ولا يسرقوا ولا يزنوا ، ولا يئدوا أطفالهم ، ولا يؤذوا الجار ، وأن يطيعوا محمداً ﷺ في كل ما هو معروف ^(١) .

وفي العقبة الثانية كان العنصر الجديد الذي أضيف هو الحرب ، فإن الأنصار بايعوا الرسول ﷺ على أن يحاربوا معه أي عدو له يتصدى لمهاجمة المدينة . وشرع الرسول ﷺ في تنفيذ النموذج الذي تصوره للمجتمع المدني الجديد بتعيين اثني عشر نقيباً لقبائل الأوس والخزرج الإثني عشرة ، أوكل إليهم الأشراف على شئون قومهم ، والاضطلاع بواجباتهم داخل المدينة ^(٢) . وبذلك حافظ على النظام القبلي ، حيث احتفظت كل قبيلة بكيونيتها المميزة ، تحت نقيبتها المسؤول عنها أمام الرسول ﷺ .

وفيما يلي بعض تلك البنود التي تم الاتفاق والمصادقة عليها من قبل جميع الأطراف الموجودة في يثرب ، حيث نذكرها بصورة موجزة وكالاتي :-
١- هذا كتاب من محمد النبي ﷺ (رسول الله) بين المؤمنين والمسلمين من قريش (وأهل يثرب) ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم ^(٣) .

(١) الصلابي ، فقه النصر والتمكين ، ص٤٣٦ ، منير الغضبان ، المنهج الحركي للسيرة النبوية ص ٢٧٦ .

(٢) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ٣٤٤/١ ، ومحمد حميد الله ، مجموعة الوثائق السياسية ص١٧٥ .

(٣) د . محمد حميد الله : مجموعة الوثائق السياسية ، ص٤١-٤٧ ، المباركفوري ، الرحيق المختوم ، ص١٧٦-١٧٧ ، الجميلي ، د . خالد رشيد ، أحكام الأحلاف ،

- ٢- إنهم أمة واحدة من دون الناس .
- ٣- المهاجرون من قريش على ربعتهم^(١) يتعاقلون بينهم ، وهم يفدون عانيهم^(٢) بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وكل قبيلة من الأنصار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف ، والقسط بين المؤمنين .
- ٤- وإن المؤمنين لا يتركون مفرحا بينهم أن يعطوه بالمعروف ، من فداء أو عقل وأن لا يحالف مؤمن مؤمنا .
- ٥- وإن المؤمنين المتقين (أيديهم) على (كل) من بغى منهم ، أو ابتغى دسيعة ظلم^(٣) ، أو أثما ، أو عدوانا ، أو فسادا بين المؤمنين ، وإن أيديهم عليه جميعا ولو كان ولد أحدهم .

والمعاهدات في الشريعة الإسلامية والقانون ، دار الحرية للطباعة - بغداد ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م ، ص ٥٣٥ وما بعدها ، د . علي مصطفى ، التاريخ السياسي والعسكري لدولة المدينة في عهد الرسول ﷺ ، مؤسسة المعارف ، بيروت ، لبنان ، ط ١ ، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م ، ص ١٩٧ .

(١) الربعة : الحال التي جاء الاسلام وهم عليها . ينظر : ابن منظور ، لسان العرب مادة (ربع) ، ٩٩/٨ .

(٢) العاني : الأسير . ينظر : ابن منظور ، لسان العرب مادة (عنا) ، ١٠١/١٥ .

(٣) دسيعة ظلم : أي طلب دفعا على سبيل لظلم .

ينظر : ابن منظور ، لسان العرب ، مادة دسعة ٨/٨٤ .

- ٦- ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر ، ولا ينصر كافراً على مؤمن^(١) .
- ٧- وإن ذمة الله واحدة ، يجير عليهم أديانهم ، وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس .
- ٨- وإن من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة ، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم .
- ٩- وإن سلم المؤمنين واحدة ، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله .
- ١٠- وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضا .
- ١١- وإن المؤمنين يببىء بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله .
- ١٢- وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدي وأقومه ، وإنه لا يجير مشرك مالا لقريش ، ولا نفساً ، ولا يحول دونه على مؤمن^(٢) .
- ١٣- وإنه من اعتبط مؤمناً قتلاً عن بينه ، فإنه قود به إلا أن يرضى ولي المقتول (بالعقل) . وإن المؤمنين عليه كافة ، ولا حل لهم إلا قيام عليه .

(١) محمد حميد الله ، مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٤٥ ، والصلابي ، السيرة النبوية ، ص ٣٢٤ - ٣٢٧ .

(٢) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ٥٠٢/١ ، عون الشريف قاسم ، دبلوماسية محمد ﷺ ، ص ٢٠-١٩ .

١٤- وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة ، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً أو يؤوبه ، وإن من نصر أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل .

١٥- وإنكم مهما اختلفتم في شيء ، فإن مرده إلى الله عز وجل ، وإلى محمد صلى الله عليه وسلم ^(١) .

ومن خلال ما تقدم من ذكر بنود المعاهدة ، نرى أنها ضمت فيها مبادئ عامة درجت دساتير الدول الحديثة على وضعها فيها ، وفي طليعة هذه المبادئ ، تحديد مفهوم الأمة في الصحيفة تضم المسلمين جميعاً مهاجريهم ، وأنصارهم ، ومن تبعهم ممن لحق بهم ، وجاهد معه ، أمة واحدة من دون الناس ^(٢) .

وهذا شيء جديد كل الجدة في تاريخ الحياة السياسية في شبه جزيرة العرب إذ نقل الرسول صلى الله عليه وسلم قومه من شعار القبيلة والتهيئة لها ، إلى شعار الأمة التي تضم كل من اعتنق الدين الجديد ، فلقد قالت الصحيفة عنهم :

(١) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ١/٥٠٣-٥٠٤ ، د . كامل سلامة الدقس ، بين التكوين والتمكين دولة الرسول صلى الله عليه وسلم ، دار عمارة ، عمان ، الأردن ، ط ١ ، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م ، ص ٤١٠ - ٤١١ .

(٢) ظافر القاسمي ، نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي : دار النفائس ، ط ٦ ، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م ، ١/٣٧ .

أنهم ((أمة واحدة)) ، وقد جاء به القرآن الكريم قال تعالى : ﴿ إِنِ هَذِهِ
 أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾^{(١)(٢)}.

وبهذه الحكمة ، وبهذا التدبير أرسى رسول الله ﷺ قواعد مجتمع
 جديد ، كانت صورته الظاهرة بياناً للمعاني التي كان يتمتع بها أولئك
 الأمجاد بفضل صحبة النبي ﷺ ، وكان النبي ﷺ يتعهدهم بالتعليم والتربية
 ، وتزكية النفوس ، والحث على مكارم الأخلاق ، ويؤدبهم بآداب الود
 والإخاء والمجد والشرف والعبادة والطاعة^(٣) .

(١) سورة الأنبياء ، آية ٩٢ .

(٢) د.علي مصطفى ، التاريخ السياسي والعسكري لدولة المدينة ، ص١٦٩-١٧٠ ،
 العطار ، د . عبد الناصر ، دستور للأمة من القرآن والسنة ، مؤسسة علوم القرآن ،
 الشارقة ، دولة الإمارات ط ١٤١٤ ، هـ - ١٩٩٣ م ، ص ٩ ، أحمد راتب عرموش ،
 قيادة الرسول ﷺ السياسية والعسكرية ، دار النفائس ، ط ١ ، ١٤١٩ هـ - ١٩٨٩ م ،
 ص ٩٣ .

(٣) المباركفوري ، الرحيق المختوم ، ص١٧٧ ، العمري ، اكرم ، السيرة النبوية
 الصحيحة ، ٢٩٣/١ ، الصلابي ، السيرة النبوية ، ص٢٢٨ .

المطلب الثالث

﴿ بناء الدولة وانعقاد الحكم ﴾

يطلق بعض علماء السياسة على دولة الاسلام المبكرة (دولة المدينة)^(١)

(١) أنواع الدول في المجتمعات الفرعية :

أ - الدولة - المدينة : ((حيث الرقعة محدودة والمجتمع من حيث عناصره متجانس ، والكيان السياسي من حيث علاقاته مترابط بفضل ظاهرة الاتصال المباشر ، إنه الأسرة السياسية . وهو نموذج ساد جميع المجتمعات القديمة ، فلاسفة اليونان لم يستطيعوا رغم تألقهم الفكري أن يتخطوا هذا الواقع بخصائصه ومتغيراته)) .

ب - الدولة الشعب : وهي التي سيعبر عنها في القرن الثامن عشر بكلمة الدولة ، وقد عرف العالم القديم من نماذجها الدولة الفرعونية ، والدولة الصينية . في هذا النموذج تتسع المدينة ، فإذا بها إقليم واسع الأرجاء ، شعب واحد لا يعرف الدخلاء ، وهي تتميز بالانطواء على الذات .

ج - الدولة الامبراطورية : حيث يتفوق شعب واحد ، ويسعى لتحقيق سيادته وسيطرته على باقي الشعوب ولاستخدام ثروات الآخرين لصالحه ، ومن أمثلتها : الامبراطورية الرومانية في جميع مراحلها ، والفارسية في أغلب مراحلها .

د - الدولة العالمية : الدولة العالمية تحوي مجموعة من الشعوب تتفاعل في تناسق حقيقي ، وتعبر عن السلام البشري ، ويسيطر عليها مبدأ التسامح والمساواة . والدولة الاسلامية تنشأ هذا النوع من الدول . ينظر : د. حامد عبد الله ربيع ، دراسته وتحقيقه على سلوك الممالك لابن أبي الربيع ٢٦٨/٢ - ٢٧٠ .

بسبب قيامها في المدينة المنورة^(١). لكن قد يسوقنا هذا التعبير الى لبس يوهم أن المقصود أنها كانت دولة ، مثل أثينا أو إسبارطة في التاريخ القديم ، حيث كانت (الدولة - المدينة) منطوية على ذاتها لا تعرف العالمية^(٢). في حين أن دولة الاسلام التي أنشأها الرسول ﷺ لم تنحصر في المدينة المنورة ، بل سرعان ما توسعت في عهد الرسول ﷺ لتشمل معظم أنحاء شبه الجزيرة العربية . وكان آخر جهود النبي ﷺ تحركاته السياسية والعسكرية الى الشام في أحداث مؤتة وتبوك ، وكان آخر أوامره العسكرية عقد راية جيش أسامة لارساله الى الشام ، وبشر ﷺ بفتح الشام والعراق وسقوط ملك كسرى وقيصر تحت سنانك خيول المسلمين . عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : ﴿ هلك كسرى ثم لا يكون كسرى بعده وقيصر ليهلكن ثم لا يكون قيصر بعده ولتقسمن كنوزها في سبيل الله ﴾^(٣).

(١) ينظر هذه التسمية : د. حامد عبد الله في دراسته وتحقيقه على سلوك المالك لابن أبي الربيع ، ٢٦٨/٢ - ٢٧٠ .

(٢) محمد فتحي عثمان ، دولة الفكرة ، دار القلم - الكويت ، ١٩٧٤م ، ص ١٦ ، و د. عماد الدين خليل ، حول القيادة والسلطة في التاريخ الاسلامي ، مكتبة النور ، ط ١ ، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م ، ص ١٠ .

(٣) البخاري ، الصحيح ، كتاب الجهاد والسير ، باب الحرب خدعة ، رقم الحديث ٣٠٢٨ ، ١٧٥/٣ .

والسؤال الذي يطرح نفسه : هل قامت الدولة التي تبناها النبي ﷺ قصداً أم عرضاً ؟ يقول د. عبد الغفار عزيز : ((وحين قرأت لكثير من الكتاب ((إن الدولة الاسلامية تأسست على يد محمد ﷺ عرضاً وليس غرضاً))^(١) .. حين قرأت ذلك وجدت أن ذلك تجنّ على الرسول ﷺ وعلى الاسلام ؛ لأن الرسول ﷺ عمل على تأسيس الدولة من أول يوم بعث فيه ، حيث كانت ضرورة من الضرورات وجزءاً من رسالته كما كانت جزءاً من الرسائل السابقة))^(٢) .

إن الرجوع الى دراسة العهد المكي يجعلنا نؤكد أن الدولة الاسلامية قامت من النبي ﷺ قصداً وليس عرضاً . فهذا هو النبي ﷺ يعد من يراه من الوفود بالعزة في الدنيا والآخرة إن هم أسلموا . وفي فترة الاضطهاد القرشي نسمع بشارات النبي ﷺ للمسلمين بفرج الله ﷻ : فعن خباب بن الأرتّ رضي عنه^(٣) قال : شكونا الى رسول الله ﷺ ، وهو متوسد بردة له في ظل

(١) نقلاً عن الصعيدي : عبد المتعال ، السياسة في العهد النبوي ، دار الفكر العربي (د - م) ، (ت - ت) ، ص ١٩٤ .

(٢) محمد زكريا ، الأخلاق السياسية للدولة الاسلامية في القرآن والسنة ، ص ١١٣ .

(٣) خباب بن الأرتّ بن جندلة بن سعد بن خزيمة التميمي ، ويقال : الخزاعي ، أبو عبد الله ، كان من السابقين الأولين ، شهد المشاهد كلها ، وآخى رسول الله ﷺ بينه وبين جبر بن عتيك ، ونزل الكوفة ، ومات بها سنة ٣٧ هـ .

ينظر : ابن حجر : الاصابة ٢/٢٥٨ ، رقم ٢٢١٢ .

الكعبة قلنا له : ألا تستنصر لنا ، ألا تدعو الله لنا ؟ قال : كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض فيجعل فيه فيحاء بالمنشار فيوضع على رأسه ، فيشق باثنتين وما يصده ذلك عن دينه ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب وما يصده ذلك عن دينه والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون ﴿١﴾ .

وكيف يكون الأمن في هذه الجزيرة الموّارة بالفتن وقطاع الطرق بدون دولة ؟!

- بيعتا العقبة حجر الزاوية في الدولة الاسلامية : ((والواقع أن بيعتي العقبة كانت نقطة التحول في حياة الاسلام ، فهما حجر الزاوية في بناء الدولة الاسلامية ، وما أشبههما بالعقد الجماعي الذي بدا لروسو - أحد فلاسفة السياسة في العصور الحديثة - أن يفترض حدوثه باعتباره الأساس الذي قامت عليه الدولة والحكومات ، ولكن العقد الاجتماعي الذي تحدث عنه روسو وأمثاله كان مجرد وهم وخيال .

أما بيعتا العقبة ، فقد كانتا حقيقة تاريخية واقعة ^(٢) .

(١) البخاري : الصحيح ، كتاب المناقب ، باب علامات النبوة في الاسلام ، حديث رقم ٣٦١٢ ، ١٣٥/٢ .

(٢) محمد ضياء الدين الريس : النظريات السياسية الاسلامية ، ص ٣١ .

فبيعة العقبة الثانية تضمنت أمرين مهمين : الأول : البيعة . والثاني ، وهو الذي ينبغي أن نقف عنده : انتخاب نواب عن مجموع المبايعين ، ليعلن أن الدولة المسلمة دولة نظام . وقد تم اختيار هؤلاء النواب دون تدخل من النبي ﷺ قال كعب بن مالك رضي الله عنه : إن رسول الله قال : ﴿ أخرجوا إليّ منكم اثني عشر نقيباً يكونون على قومهم ، فأخرجوا له اثني عشر نقيباً تسعة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس ﴾ ^(١) . وقد استمر العمل على وجود نواب عن الرعية فيما بعد ، إذ كان لكل قبيلة عرفاء يرجع إليهم النبي ﷺ ليعرف آراء الناس . ومن التطبيقات العملية لدور هؤلاء النواب حادثة سبي هوازن ، إذ طلب النبي ﷺ من العرفاء النواب التأكد من رضا مرشحيهم بالتخلي عن سبي هوازن لإعادتهم إلى أهليهم بعد أن أسلموا .

إذ قام النبي ﷺ خطيباً في المسلمين ، فأثنى على الله بما هو أهله ، ثم قال : ﴿ أما بعد ؛ فإن إخوانكم هؤلاء قد جاؤونا تائبين ، وإني قد رأيت أن أردّ إليهم سبيهم ، فمن أحب منكم أن يطيب بذلك فليفعل ، ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول ما يفيء الله علينا فليفعل ﴾ . فقال الناس : قد طيّبنا ذلك لرسول الله ﷺ لهم ، فقال رسول الله ﷺ : ﴿ إنا لا ندري من أذن منكم في ذلك ممن لم يأذن ، فأرجعوا حتى يرفع إلينا

(١) الامام أحمد ، أبو عبد الله الشيباني (ت ٢٤١ هـ) ، مسند الامام أحمد ، مؤسسة قرطبة - مصر (د - ت) ، ٤٤٦/٣ ، رقم الحديث ١٥٨٣٦ .

عرفاؤكم أمركم ﴿ فرجع الناس ، فكلهم عرفاؤهم ، ثم رجعوا الى رسول الله ﷺ فأخبروه أنهم قد طيّبوا وأذنوا ^(١) .

أليس هذا مثالا حيا لما يسمى اليوم بالانتخابات أو التصويت على أمر مهم من أمور الأمة ؟ ولم ينقصه سوى إعلانات ، وصناديق اقتراع !؟

- قيام الدولة الاسلامية بوظائفها :

وإذ بدأت الدولة الاسلامية فإنها قامت بوظائفها ، فلم تكن هناك أية وظيفة من الوظائف التي يمكن أن يقال عنها أنها سياسية في عرف ذلك الزمان وامكانياته : من إعداد الأداة لتنفيذ العدالة ، أو تنظيم الدفاع ، أو بث التعليم ، أو جباية الأموال ، أو عقد معاهدات ، أو انقاذ السفارات إلا كانت الدولة النبوية تؤديها ^(٢) . ولا يعاب على تلك الدولة أنها لم تشمل النظم الادارية المتطورة الموجودة في الدول في العصر الحاضر ؛ لأن هذه النظم لم تكن مكتشفة ، بل وما كانت تلك العصور بحاجة الى كثير منها ، ومع ذلك فإن حكومة النبي ﷺ أقامت دولة حقيقية لا تقل في نظمها عن الدولة الرومانية في

(١) البخاري : الصحيح ، كتاب (الوكالة) ، باب (إذا وهب شيئا أو شفيع قوم جاز) ، ٣/٣٤١ .

(٢) محمد ضياء الدين : النظريات السياسية الاسلامية ، ٣٠ - ٣١ .

بدايتها . فالنبي ﷺ وضع بالفعل النظم الأساسية للدولة الاسلامية ، فأوجد نظاماً مالياً ، وادارياً ، وعسكرياً^(١) .

وتقديراً من الاسلام لأهمية الدولة كان أول عمل قام به الرسول ﷺ عندما هاجر الى المدينة هو إضفاء صفة الدولة على المدينة المنورة ، وقد سعى لاستكمال المقومات التي تصبح بها دولة الاسلام دولة حقيقية ذات أعمدة داخلية ، وذات علاقات خارجية^(٢) .

ومن أهم ما قام به النبي ﷺ في المدينة :

* بناء المسجد مكان العبادة وإدارة الحكم .

فالمسجد النبوي لم يقتصر نشاطه على أداء الصلوات ، بل كان له العديد من الوظائف الأخرى :

- ١ . مدرسة لبناء الأمة وتربيتها .
- ٢ . منتدى لتحقيق الوحدة ، والتماسك الداخلي .
- ٣ . برلمان يجتمع فيه المسلمون لمناقشة أمورهم .
- ٤ . هيئة تشريعية يتم فيها إعلان القوانين .

(١) السنهوري : فقه الخلافة ، ص ٨٢ .

(٢) د. عبد الحلیم عویس : الدولة الحديثة بين الحقيقة والتزييف ، ص ٤٩ .

٥. مقر للحكومة لممارسة سلطاتها التنفيذية ، وتحقيق سياستها الداخلية والخارجية .

٦. مكان استقبال الوفود الأجنبية ، والتفاوض معها لعقد المعاهدات الى جانب شرح تعاليم الاسلام .

٧. ثكنة عسكرية يتلقى فيها المجاهدون تدريباتهم المعنوية والجسدية ، فقد كان صلى الله عليه وسلم يعقد الألوية والسرايا ، ويتفقد القادة والأمراء في المسجد النبوي .

٨. قاعدة اتصالية بين الحاكم والمحكوم^(١). فقد امتاز هذا المسجد بالاهتمام بجميع طاقات المجتمع : نساءً ورجالاً وأطفالاً . والقيادة النبوية خصت يوماً واحداً كل أسبوع للمرأة ، تستطيع فيه السؤال عن أمر دينها ، كما تستطيع سماع دروس الوعظ والفقهاء التي تساهم في تشكيل وعيها الاسلامي^(٢).

فضلاً عن بناء المسجد كان هناك عدة خطوط لاستكمال بناء الدولة المسلمة :

* المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، وهذا يعني تعزيز وحدة الجبهة الداخلية

(١) بشير سعيد محمد أبو القرايا ، البعد السياسي للمسجد ، رسالة كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، (د - م) - (د - ت) ، ص ٢٥-٢٦ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٣٢ .

- * الدستور المدني (الوثيقة) فيها تنظيم العلاقات بين المسلمين واليهود القاطنين بالمدينة .
- * تعيين رسول الله ﷺ للأمراء .
- * تنظيم أحوال المعاملات الأسرية ، والاقتصادية ، ومراقبة الأسواق
- * تنفيذ الأحكام الجنائية (قانون العقوبات) .
- * مراسلة الملوك بعد صلح الحديبية .
- * إرسال الدعاة والقضاة الى المناطق البعيدة ، كاليمن ^(١) .

(١) د. عبد الحلیم عویس ، الدولة الحديثة ، ص ٤٩ ، وينظر : السنهوري ، فقه الخلافة ص ٨٤ .

لقد ابتلى الله المسلمين في المدينة بيهودها ، وهم بنو قينقاع ، وبنو قريظة وبنو النضير . فإنهم أظهروا العداوة والبغضاء حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق . وكانوا قبل مجيء الرسول ﷺ يستفتحون على المشركين من العرب إذا شبت الحرب بين الفريقين نبي يبعث قد قرب زمانه ، فلما جاءهم ما عرفوا استعظم رؤسائهم أن تكون النبوة في ولد إسماعيل (١) .

فكفروا بما أنزل الله بغياً مع أنهم يرون أن رسول الله محمد ﷺ لم يأت إلا مصداقاً لما بين يديه من كتب الله (جل وعلا) على من سبقه من المرسلين مبيناً ما أفسده التأويل منها ، ولكنهم نبذوه وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون ، وقد تبين الهدي لأحد رؤساء بني قينقاع ، وهو عبد الله بن سلام ، فترك هواه فأسلم بعد أن سمع القران ، وبعد أن كان اليهود يعدونه من رؤسائهم عدوه من سفهائهم حينما بلغهم بإسلامه ، قال تعالى : ﴿ بَسْمًا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَيَّ مِنْ شَيْءٍ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ (٢) .

(١) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ٥٤٣/١ ، د. علي مصطفى ، التاريخ السياسي والعسكري ، ص ١٥٨ .

(٢) سورة البقرة : الآية ٩٠ .

ولما استحكمت في قلوبهم عداوة الإسلام صاروا يجهدون أنفسهم في إطفاء نوره : ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُمْ نُّورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ (١) .

وهكذا تظل عداوة اليهود للإسلام والمسلمين مبعثها الحقد والحسد والبغى والعدوان ، ولا يقطعها إلا الحق وقوته ، والأيمان وجنده ، وصدق الله وَعَلَيْكَ بِقَوْلِهِ : ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزُّبْدُ فَمِمَّا زُجِرَ وَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴾ (٢) .

(١) سورة التوبة : الآية ٣٢ .

(٢) سورة الرعد : الآية ١٧ .

المطلب الأول

﴿ البنود الخاصة بالدستور (اليهود) ﴾

بدأ النبي ﷺ منذ نشوء الدولة الإسلامية في المدينة بإقامة العلاقات الطيبة مع ساكني المدينة من غير المسلمين ، وهم اليهود ، وكتب الصحيفة التي تبين انضمام اليهود لدولة الإسلام في المدينة ، وتعاونهم مع المسلمين في نفقات الحروب والدفاع عن الدولة .

قال ابن إسحاق : وكتب رسول الله ﷺ كتاباً بين المهاجرين والأنصار وادع فيه اليهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم ، وشرط لهم واشترط عليهم . وحملت هذه المعاهدة روح التسامح والتجاوز والحرية ما لم يعرف في عالم ملئ بالتعصبات والانحرافات ، ولا يعرف إلا سياسة السلب والنهب والمصادرة^(١) .

وكان من نصوص تلك المعاهدة ما يأتي :

(١) محمد زكريا ، الأخلاق السياسية ، ص ٤٠٢-٤٠٣ ، حسام حميدة ، في رحاب

الإسلام ، بغداد ، العراق ، ١/١٣٥-١٣٦

١- وإن اليهود بني عوف أمة المؤمنين ، لليهود دينهم ، وللمسلمين مواليتهم وأنفسهم إلا من ظلم نفسه وأثم ، فإنه لا يوتغ^(١) ، إلا نفسه وأهل بيته^(٢) .

٢- المسلمون من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم ، أمة واحدة .

٣- المسلمون واليهود بينهم النصرة على من حاربهم ، أو داهم يثرب ، وعلى المسلمين نفقتهم ، وعلى اليهود نفقتهم .

٤- وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ ، وإنه لا ينجز على ثار جرح ، وإنه من فتك فبنفسه فتك ، وأهل بيته ، إلا من ظلم ، وأن الله على أبر هذا .

٥- وإن على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم ، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم .

(١) يوتغ : يهلك . ينظر : ابن منظور ، لسان العرب مادة (وتغ) ، ٤٥٨/٨ .

(٢) الطبري ، تاريخ ١٢٨/٢ ، ابن هشام ، السيرة النبوية ، ٥٤٧/١ ، محمد حميد الله ، مجموعة الوثائق السياسية ، ص ١٧٨ ، د.احمد حمد ، الجانب السياسي في حياة الرسول ﷺ ، دار القلم ، الكويت ، ط ١٤٠٢ ، ١هـ - ١٩٨٢م ، ص ١١٥ .

٦ - من خرج من المدينة آمن ، ومن قصد آمن ، إلا من ظلم أثم ، وأن الله جار لمن بر وأتقى .

٧ - وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة ^(١) .

٨ - وإن الجار كالنفس غير مضار ، ولا آثم .

٩ - لا يجير مشرك مالاً لقريشي ولا نفساً ، ولا يحول دون مؤمن ، ولا يحل لمؤمن بالله واليوم الآخر ، وأقر بما في هذه الصحيفة أن ينصر محدثاً ، ولا يؤويه ، وأنه من نصره وآواه ، فإن عليه لعنة الله وغضبه إلى يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل .

١٠ - وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها .

١١ - وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو أشجار يخاف فساده ، فإن مرده إلى الله ، وإلى محمد ﷺ ، وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره ^(٢) .

(١) محمد حميد الله ، مجموعة ، الوثائق السياسية ، ص ١٧٧ .

(٢) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ٣٤١/١ ، وما بعدها ، أحمد راتب عرموش ، قيادة الرسول ﷺ السياسية والعسكرية ، دار النفائس ط ١ ، ١٤١٩هـ - ١٩٨٩م ، ص ٩٠ ، محمد زكريا ، الأخلاق السياسية ، ص ٤٠٢ ، الجميلي ، أحكام الأحلاف والمعاهدات ، ص ٥٣٦ - ٥٣٧ ، عبد القادر عوده ، الإسلام وأوضاعنا السياسية ، مؤسسة الرسالة - بيروت - (د - ت) ، ص ٢٨١ - ٢٨٢ .

١٢- إذا دعوا إلى صلح يصلحونه ويلبسونه ، فإنهم يصلحون ويلبسونه ،
وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك ، فإن لهم على المؤمنين إلا من حارب الدين .

١٣- وان يهود الأوس ، مواليهم وأنفسهم ، على مثل ما لأهل هذه الصحيفة
مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة ، وإن البر دون الإثم لا يكسب كاسب
إلا على نفسه ، وإن الله على ما أصدق ما في هذه الصحيفة ^(١) .

وبإبرام هذه المعاهدة صارت المدينة وضواحيها دولة وفاقية ، عاصمتها
المدينة ، ورئيسها أن صح التعبير - رسول الله ﷺ - ، والكلمة النافذة
والسلطان الغالب فيها للمسلمين ، ولا شك أن هذه المعاهدة كان لها تأثير
طيب وأهداف كريمة ، ونتائج جيدة على المجتمع في المدينة وقت الالتزام بها
، حيث تحث بنود هذه المعاهدة على إشاعة الاستقرار والأمن في المدينة .

(١) محمد حميد الله ، مجموعة الوثائق السياسية ، ص ١٧٨ .

المطلب الثاني

﴿ الأسباب وراء الاتفاق مع اليهود ﴾

لا شك أن اليهود شعب نشيط ، وأنهم - حيث حلوا - يبذلون جهوداً
مذكورة للسيطرة على زمام التوجيه المالي ، ولا يبالون بأساليب الختل والمكر
لبلوغ أهدافهم ، وقد ألفوا أنفسهم قلة بين أصحاب البلاد ، وخشوا أن يفنوا
إذا اشتبكوا معهم في صراع ، فاحتالوا حتى زرعو الضغائن بين الأقوياء . وما
زالوا بها حتى آتت ثمرها المر . فأخذ العرب يأكل بعضهم بعضاً ، في سلسلة
متصلة من المعارك التي لا مبرر لها ، على حين قوى اليهود ، وتكاثروا ونمت
ثروتهم ، وأستحمت حصونهم ، وخيف سطوهم^(١) .

أي إن اليهود يتربصون ويستغلون الفرص من أجل إثارة الفتنة بين
القبائل الموجودة في شبه الجزيرة العربية بصورة عامة ، وفي يثرب بصورة
خاصة . ولا يهدأ لهم بال إلا عندما يرون ناراً لفتنة قد اشتعلت بين الأوس
والخزرج ، فإن هذا الوضع قد أهلك المجتمع في يثرب ، وذلك بازدياد القتل
بين القبائل المتناحرة .

(١) الصلابي ، السيرة النبوية ، ص ٣٥١ - ٣٥٤ ، ظافر القاسمي نظام الحكم ،

وهذه الفتن المتلاحقة جعلت أهل المدينة - عندما ترامت إليهم أنباء الإسلام - يؤملون من ورائه الخير ، من يدري ؟ لعله يجدد حياتهم ، فيعيد السلام إلى صفوفهم ، ويهب لهم حياة روحية ترجع بكفتهم على اليهود^(١) .

وقد هاجر النبي ﷺ إلى يثرب ورحب به جميع من أسلم ؛ لأنهم رأوا فيه الخصال الطيبة والحميدة ، فأقام بالمدينة ، ورسخ فيها روح الأخوة والتسامح استعداداً لبناء مجتمع جديد ولائه للإسلام وحده .

فأراد الرسول ﷺ أن يجعل المدينة دار أمن وسلام حتى يتفرغ لنشر دعوة الإسلام ، وتربية أصحابه ﷺ على منهجه ، ولتكون ملاذاً لكل مؤمن في مشارق الأرض ومغاربها ، وحتى يستطيع تدريب جيش قوي قادر على رد العدوان ، والدفاع عن الحق ورفع راية الإسلام .

هذا وقد دخل الإسلام كل بيت من بيوت الأنصار الذين قابلوا الرسول ﷺ كما علمت بالحب والترحيب ، ولكن المدينة يسكنها مع الأنصار اليهود ، فما كانت لتصبح دار أمن إلا بعد أن يدخل اليهود الإسلام ، وهذا أمر قد نفروا منه ، أو يسألهم رسول الله ﷺ ، وهذا شيء ممكن الوقوع^(٢) .

(١) الصلابي ، السيرة النبوية ، ص ٣٢٩ ، كامل سلامه ، دولة الرسول ﷺ من التكوين إلى التمكين ، ص ٤١٨ .

(٢) حسام حميدة ، في رحاب الإسلام ، ص ١٣٦ .

فتمت المعاهدة بين الرسول ﷺ ، وبين اليهود ، وتم تصديق الوثيقة وقبول جميع الأطراف بما جاء في بنودها ، والتركيز على البند المهم ، وهو إذا وقع خلاف أو شجار يخاف فساده ، فإن مرده إلى الله ورسوله ﷺ . وهكذا أصبح النبي ﷺ سلطة قضائية مركزية عليا ، يرجع إليها الجميع .

وقد اعترف اليهود في هذه الصحيفة بوجود سلطة قضائية عليا ، يرجع إليها سكان المدينة بمن فيهم اليهود ، لكن اليهود لم يلزموا بالرجوع إلى القضاء الإسلامي دائماً ، بل فقط عندما يكون الحدث أو الشجار بينهم وبين المسلمين . أما في قضاياهم الخاصة وأحوالهم الشخصية فهم يحتكمون إلى التوراة ، ويقضي بينهم أحبارهم ، ولكن إذا شاءوا فبوسعهم الاحتكام إلى النبي ﷺ ، وقد خير القرآن الكريم النبي ﷺ بين قبول الحكم فيهم ، أو ردهم إلى أحبارهم ^(١) ، قال تعالى : ﴿ سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَلُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرَضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ ^(٢)

(١) كامل سلامه ، دولة الرسول ﷺ من التكوين إلى التمكين ، ص ١١٨-٤٢٠ ، السباعي ، السيرة النبوية دروس وعبر ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، ط ٩ ، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م ، ص ١١٩ .

(٢) سورة المائدة : الآية / ٤٢ .

كانت الوثيقة قد اشتملت على أتم ما قد تحتاجه الدولة من مقوماتها الدستورية والإدارية وعلاقة الأفراد بالدولة . وكان القرآن ينزل في المدينة عشر سنين يرسم للمسلمين خلالها مناهج الحياة ، ويرسي مبادئ الحكم ، وأصوله السياسية ، وشئون المجتمع ، وأحكام الحرام والحلال ، وأنس التقاضي ، وقواعد العدل ، وقوانين الدولة المسلمة في الداخل والخارج ، والسنة الشريفة تدعم هذا وتشيده ، وتفصله في تنوير وتبصره .

فالوثيقة خطت خطوطاً عريضة في الترتيبات الدستورية ، وتعد في القمة من المعاهدات التي تحدد صلة المسلمين بـ (الأجنبي) المقيمين معهم ، في شي كثير من التسامح والعدل والمساواة . إذ كانت هذه الوثيقة فيها من المعاني الحضارية الشيء الكثير ، وما توافق الناس على تسميته اليوم بحقوق الإنسان ، وأنه لا بد على الجانبين المتعاقدين أن يلتزموا ببنودها^(١) .

(١) أحمد عبد الغني المنجولي الجمل ، هجرة الرسول ﷺ في القرآن والسنة ، دار الوفاء ، مصر ، ط ١ ، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م ، ص ٢٦١ ، د . عماد الدين خليل ، دراسات في السيرة ، دار النفائس ، بيروت ، لبنان ط ١١ ، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م ، ص ١٥٠ .

كان من أهدافها ما يلي :-

- ١- إفساح المجال للمسلمين لترتيب أحوالهم ، ونشر دينهم ، وتدريب جندهم ، والتفرغ إلى عدوهم ^(١) .
- ٢- إقرار مفهوم الحربية الدينية ، والاعتراف بأهل الكتاب وحب التعايش معهم ، وترك التعصب ، وإفساح المجال للنظر والتفكير ^(٢) .
- ٣- نشر السكينة في المدينة وما حولها .
- ٤- إلغاء النصرة بالقبيلة والعصبية لها ، وإبدالها بالاخوة الإسلامية ، والدفاع عن العقيدة الدينية .
- ٥- نصرة المظلوم ودحر الظالم ، وعدم موالاته ، وردعه ، ومحاسبة الآثم .
- ٦- الاعتراف بالدولة الإسلامية في المدينة ، وبروزها كحقيقة واقعة ، وقوة مؤثرة .
- ٧- إعطاء الرياسة العليا للرسول ﷺ ، والنزول على حكم الله ورسوله ، ووضع حدود لتنظيم العلاقات بين المسلمين ، وغيرهم ^(٣) .

(١) حسام حميدة ، في رحاب الإسلام ، ١/١٢٧ .

(٢) منير الغضبان ، المنهج الحركي للسيرة النبوية ، ص ٢٧٧ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ٢٧٧ .

ومن هذا يتبين لنا براعة الرسول ﷺ السياسية والتنظيمية ، وحسن تصرفه (عليه الصلاة والسلام) ، كما يعلم أن الإسلام بدأ ينشر بدولة وقيادة تحمل لواء الدعوة إليه ، والجهاد في سبيله . كما أن هذا يعطي فكرة واضحة عن قدرة الإسلام والقيادة المسلمة على إدارة الأمور برفق وعزم وعدالة . كما يظهر هذا بسماحة الإسلام ، وحبه لمعايشة الناس والتفاهم معهم بغير جبر ، أو إرهاب أو قسر^(١) .

- نتائج تلك المعاهدة :

لا شك إن هذه المعاهدة أتاحت للدولة الإسلامية الجديدة بعض الوقت للاستعداد لمصارعة القوى الوثنية المتربصة على الحدود ، ومنازلة جيوشها المتحدة والمتحدية للمسلمين ، كما أتاحت الفرصة للاستقرار النفسي والتربوي فترة معينة ، كما منعت العون العسكري والمادي بين اليهود والمشركين والوثنيين ، لفترة من الوقت .

وقد كان من المؤمل من اليهود - وهم أهل كتاب - أن يتجاوبوا مع الدعوة الجديدة ، ويقوموا بمساندتها في لحظات الخطر والصراع ضد العدو

(١) حسام حميدة ، في رحاب الإسلام ، ١٢٨/١ ، الفهداوي ، خالد سليمان ، الفقه السياسي للوثائق النبوية ، ص ٢٤٤ - ٢٤٥ ، أحمد ، أ. د . لبيد إبراهيم العبيدي ، عصر النبوة ، دار الحكمة ، بغداد ، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م ، ص ٩٠ - ٩١ .

الوثني المشترك . ولكن الذي حدث بعد ذلك من عداة اليهود للمسلمين ومن مساندتهم للمشركين ، غير مجدي العلاقات بينهما ، وجمد بنود الصحيفة المتعلقة بهم ، لا لشيء إلا لأنهم اختاروا النقض على الوفاء ، والخيانة على الأمانة ، والمنفعة الشخصية على الأهداف الإيمانية والمستقبلية ، وتحمل الرسول في سبيل الإبقاء على مودتهم الكثير (١) .

إن هذه الوثيقة وضحت مدى العدالة التي تميزت بها معاملة النبي ﷺ لليهود ، وأعطت لمواطني الدولة مفهوم الحرية الدينية ، وضربت عرض الحائط بمبدأ التعصب ومصادرة الأفكار والمعتقدات . ولم تكن المسألة مسألة تكتيك مرحلي ريثما يتسنى للرسول ﷺ تصفية أعدائه في الخارج لكي يبدأ تصفية أخرى إزاء أولئك الذين عاداهم . وحاشاه وإنما صدر هذا الموقف وفق سياسة إسلامية منبثقة من شريعة ربانية (٢) .

إن النبي ﷺ أراد المعاهدة مع اليهود ؛ لأنه يعلم جيداً بأنهم أصحاب مصالح ، وتغلبهم صفة المادية . وإذا ما عرضت عليهم قريش وأغرثهم بالمال فسوف يتفقون معهم في محاربة النبي ﷺ ، وأصحابه ، ففكر في الشأن

(١) منير الغضبان ، المنهج الحركي للسيرة النبوية ، ص ٣٧٧ - ٣٧٨ .

(٢) د. عماد الدين خليل ، دراسات في السيرة ، ص ١٥١ ، د. عبد الله الشقاري اليهود في السنة المطهرة ، دار طيبة ، الرياض ط ١ ، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م ، ٤٨٧/٢ -

الداخلي قبل غيره بأن اليهود لا يحافظون على عهد أو ميثاق ، وأنهم كذبوا موسى عليه السلام وحاربوا النصرانية ، وافتروا على الله الكذب ، ويظنون أنهم أسياد الأرض أهلها وعرف ذلك من أثر تعاملهم مع القبائل العربية . وإن أبرز ما يتصف به اليهود من صفات رذيلة هي : الكذب ، والنفاق ، والحسد ، والحقد والكرهية ، وغيرها . وكما ذكرها الله سبحانه في كتابه العزيز بقوله تعالى :

﴿ لَعْنُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ . كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾^(١) .

لقد عقد الرسول صلى الله عليه وسلم مع اليهود المعاهدات التي تؤمن لهم الحياة الكريمة ، في ظل الدولة الإسلامية بحكم أنهم أهل كتاب (أهل الذمة) ، ولكن طبيعة اليهود الغدر والخيانة وعدم الوفاء ، ولم يستطيعوا — ولن يستطيعوا — لؤما وخسة — أن يتخلوا عن تلك الصفات الذميمة ، فنقضوا عهودهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت نهايتهم بما يتلاءم مع تلك الأفكار ، إذ أجلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بني قينقاع وبني النضير ، واقتص من رجال بني قريظة^(٢) .

(١) سورة المائدة : الآيات : ٧٨-٧٩

(٢) د. ناصر العمر ، العهد والميثاق في القرآن الكريم ، دار العاصمة ، ١٤١٣هـ -

١٩٩٣م ص ١٢٠-١٢١ .

ولقد أشار القرآن الكريم إلى طبيعة اليهود مع العهود ، فقال تعالى :
﴿ الَّذِينَ عَاهَدتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْتَظُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ
لَا يَتَّقُونَ ﴾^(١) .

(والعهد هنا ما عقده رسول الله ﷺ مع اليهود من عهود ومواثيق بألا يحاربوه ولا يعاونوا عليه ، كما بين ذلك المفسرون)^(٢) .

لقد سلك اليهود وسائل عدة ، ومتغايرة ومتنوعة للكيد لرسول الله ﷺ والذين آمنوا معه ومقاومتهم ، إلا أن هذه الوسائل لم تفلح ولم تؤت ثمارها المرجوة منها ، وهي القضاء على جماعة المسلمين ودولتهم وكيانهم السياسي . فقد كان مكر اليهود في غاية الدهاء تكاد تزول منه الجبال ، ولكنه لم يفلح مع الرعييل الأول بسبب القيادة النبوية والمنهج الرباني الذي سار عليه رسول الله ﷺ^(٣) .

(١) سورة الأنفال : الآية / ٥٦

(٢) الطبري ، تفسير الطبري ، جامع البيان في تأويل آي القرآن ، دار الفكر ، بيروت (د.ت) ، ٣٠ / ٨ .

(٣) د. محمد أبو فارس ، الصراع مع اليهود ، دار الفرقان ، ط ١ - ١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م ، ٧٩ / ١ .

إن المسلمين اليوم يتساقطون أمام المخططات اليهودية ومؤامراتها ،
لبعدهم عن المنهج النبوي في تربية الأمة وكيفية التعامل مع اليهود ، فالأمة في
أشد الحاجة للقيادة الربانية الحكيمة الواعية الموفقة من عند الله الخبيرة
بأخلاق اليهود وصفاتهم ، فتتعامل معهم معاملة واعية مستمدة أصولها
السياسية النبوية الراشدة في التعامل مع هذا الصنف المنحرف من البشر^(١) .

إن في عصرنا هذا تغلغلت الأصابع اليهودية القذرة في مجالات عديدة
من حياة الشعوب والدول ، تلك الأصابع التي تهدف إلى غاية محدودة هي
" الفساد في الأرض " . إن استعمال الفعل المضارع في الجملة يدل على التجدد
والاستمرار ، فليس سعيهم للفساد مرحلة تاريخية انتهت ، لكنه قدرهم
الكوني إلى يوم يبعثون ، وقد استطاع اليهود أن يهيمنوا على كثير من مقدرات
الأمم من خلال كيدهم المدروس ، وفي غيبة الوجود الإسلامي القادر على
إحباط مؤامراتهم وفضح ألعيبهم^(٢) .

إن قوتهم بسبب ضعف أيماننا وبعثنا عن نهج ربنا ، لأن الأيمان
الصحيح تنهار أمامه جميع المؤامرات ، وتفشل جميع الخطط ، ولكن لا بد

(١) الصلابي ، السيرة النبوية ، ص ٣٥٣ .

(٢) سلمان العودة ، قضايا في المنهج ، دار مكتبة القدس ، ط ٣ ، ١٤٢٠هـ -

١٩٩٩م ، ص ٨٤ - ٨٥ ، محمد أبو فارس ، الصراع مع اليهود ، ٧٢/١ - ٧٣ .

من نزع عنصر الخوف الذي قتل كثيراً من الهمم ، وأحبط كثيراً من الأعمال ،
فالأحداث تؤكد أن (الخوف) قد يقتل .

وحين توجد الفئة المؤمنة الصابرة يتحطم الكيد كله يهودياً كان أم غير
يهودي أمام عوامل التصدي والنهوض ، قال تعالى : ﴿ إِن تَمَسُّكُمْ
حَسَنَةٌ تَسُوهُمْ وَإِن تَصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ
كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنِ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾^(١) .

وهذا لا يعني - بحال من الأحوال - تجاهل قوة العدو ، أو التقليل
من شأنه ، حتى لو كان عدواً حقيراً فضلاً عن عدو ، ومدجج ، وقديم .

والمطلوب أن نسلك طريق الاعتدال في تقدير حجم العدو ، فلا نبالغ في
تهويل قوته بما يوهن قوانا ، ويفتت عزيمتنا ، ويسوغ لنا الهزيمة . وفي
المقابل لا نستهيئ به أو نتجاهل وجوده^(٢) . وستمضي في اليهود وغيرهم سنة

الله تعالى : ﴿ إِنِ اللَّهُ لَا يَصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾^(٣) .

(١) سورة آل عمران آية / ١٢٠ .

(٢) سلمان العودة ، قضايا في المنهج ، ص ٨٦ - ٨٧ .

(٣) سورة يونس ، آية / ٨١ .

المطلب الثالث

﴿ نماذج من الوثائق النبوية في التعامل مع النصارى ﴾

١. وثيقته ﷺ الى أهل أيلة^(١).

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه أمانة من الله ومحمد النبي رسول الله ليوحنا بن رؤبة وأهل أيلة ، سفنهم وسيارتهم في البر والبحر ، ذمة الله وذمة محمد النبي ، ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر . فمن أحدث منهم حدثاً ، فإنه لا يحول ماله دون نفسه ، وأنه طيب لمن أخذه من الناس ، وأنه لا يحل أن يمنعوا ماءً يدونه ، ولا طريقاً يريدونه من بر وبحر .

هذا كتاب جهيم بن الصلت ، وشرحبيل بن حسنة بإذن رسول الله^(٢).

دراسة هذه المعاهدة :

١. كانت أيلة تمثل ميناء بحريا ضخما وفيه مجموعة صيادي السمك ، وبالتالي فهي مركز التقاء هام جداً ، وThغر بحري فريد من نوعه ،

(١) أيلة : مدينة غنية على ساحل البحر الأحمر قليلة الزراعة ، وكانت مركزاً مسيحياً ، فكان حاكمها يوحنا بن رؤبة أسقفاً نصرانياً . وهي بلدة معروفة حالياً بين مصر والشام . ينظر : دائرة المعارف الاسلامية - مادة أيلة .

(٢) ابن سعد ، الطبقات ، (١ - ٢) ص ٣٧ ، حميد الله برقم (٣١) .

وعلى هذه الحال يُجمع أهل الشام وأهل اليمن وغيرهم . إضافة لكونه مركزاً دينياً ضخماً ، لذلك ركز عليه الرسول ﷺ فوائدهم وأقام العلاقة السياسية والاقتصادية معهم .

٢. الوثيقة مع (أيلة) لا تشير الى مسألة الجزية من قريب ولا من بعيد مع أنهم أهل كتاب تجب معهم المراحل الثلاث ، وهي : الاسلام ، أو الجزية ، أو الحرب . وهذا يدل على أن فرض الجزية أمر يقرره الامام حين يصبح للمسلمين قوة قاهرة وشوكة عالية ، أما عندما يكون الهدف التحالف السياسي أو تحسين العلاقة الاقتصادية فإن الخطاب لا بد أن يتبدل ، لأن الجزية حقيقة هي مال يدفعه أهل الكتاب أو من جرى مجراهم مقابل الحماية من الدولة الاسلامية وذوبانهم في شخصية الدولة الاسلامية وعدم اعلان شعائرتهم مع بقائهم على دينهم إن أرادوا.

ولو درسنا حالة (مدينة أيلة) لوجدناها مدينة مستقلة لها مؤسساتها الاقتصادية والسياسية والدستورية ، بدليل وجود الحاكم النصراني الديني المتقدم ذكره . وهذا يتنافى مع عقد الذمة مقابل الجزية ، لأن من مستلزمات دفع الجزية - كما قلنا - أن تكون الحاكمة للاسلام وشريعته ، وقد كان هذا التصرف من الرسول الكريم ﷺ غاية في الحنكة والدراية في الأخذ بالمرحلية

والتدرج مع أهل هذه المدينة المهمة ، فقد جاء يوحنا الى تبوك أثناء إقامة النبي ﷺ فيها وعقد معه معاهدة صلح^(١) .

٢. أذرح .

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من محمد النبي لأهل أذرح ، إنهم آمنون بأمان الله ومحمد ، وأن عليهم مائة دينار في كل رجب وافية طيبة ، والله كفيل عليهم بالنصح والاحسان للمسلمين ، ومن لجأ اليهم من المسلمين من المخافة والتعزير إذا خشوا على المسلمين ، وهو آمنون حتى يحدث إليهم محمد قبل خروجه^(٢) .

٣. بنو غاديا .

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من محمد رسول الله لبني غاديا إن لهم الذمة وعليهم الجزية ولا عداء ولا جلاء ، الليل مد والنهار شد .

وكتب خالد بن سعيد^(٣) .

(١) ابن سعد ، الطبقات ، ١٦٥/٢ .

(٢) حميد الله برقم (٣٢) .

(٣) ابن سعد ، الطبقات ، (٢-١) ص ٢٩-٣٠ ، حميد الله برقم (٢٠) .

٤. نصارى نجران .

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما كتب محمد النبي رسول الله ﷺ لأهل نجران : إذ كان عليهم حكمه في كل ثمرة ، وفي كل صفراء وبيضاء ورقيق ، فأفضل ذلك عليهم ، وترك ذلك كله لهم ، على ألفي حلة من حلل الأواقي ، في كل رجب ألف حلة ، وفي كل صفر ألف حلة مع كل حلة أوقية من الفضة . فما زادت على الخراج ، أو نقصت عن الأواقي فبالحساب ، وما قضاوا من دروع ، أو خيل أو ركاب ، أو عروض أخذ منهم بالحساب . وعلى نجران مؤنة رسلي ، ومتعتهم ما بين عشرين يوماً فما دون ذلك ، ولا تحبس رسلي في شهر . وعليهم عارية ثلاثين درعاً ، وثلاثين فرساً ، وثلاثين بعيراً ، إذا كان كيد باليمن ومعة ، وماهلك مما أعاروا رسلي من دروع ، أو خيل أو ركاب أو عروض ، فهو ضمير على رسلي حتى يؤدوه اليهم .

ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله ، على أموالهم وأنفسهم ، وملتهم ، وغائبهم ، وشاهدتهم ، وعشيرتهم ، وبيعهم ، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير ، لا يغير أسقف من أسقفية ، ولا راهب من رهبانيتها ، ولا كاهن من كهانته ، وليس عليهم دنية ، ولا دم جاهلية ، ولا يحشرون ، ولا يعشرون ، ولا يطاء أرضهم جيش . من سأل منهم حقاً فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين . ومن أكل ربا من ذي قبل

، فذمتي منهم بريئة ، ولا يؤخذ رجل منهم بظلم آخر . وعلى ما في هذا الكتاب جوار الله ، وذمة محمد رسول الله حتى يأتي الله بأمره ، ما نصحوا وأصلحوا ما عليهم . غير مثقلين بظلم .

شهد أبو سفيان بن حرب ، وغيلان بن عمرو ، ومالك بن عوف من بني النصر ، والأقرع بن حابس الحنظلي ، والمغيرة بن شعبة . وكتب لهم هذا الكتاب ، عبد الله بن أبي بكر^(١).

دراسة هذه الوثيقة :

عند دراسة الوثيقة الخاصة بنصاري نجران نجد العجب في السياسة النبوية ، فقد كان سكان نجران ينقسمون من حيث الدين الى مجموعتين متميزتين ، إحداهما : مسيحية . والأخرى : وثنية . وقد بلغ المسيحيون درجة عالية من التنظيم الاداري مما ظهر في توزيع السلطات والمناصب التي انعكست بوضوح في تكوين وفدهم الذي زار النبي ﷺ في المدينة^(٢).

وكان هذا الوفد مكوناً من ستين رجلاً ، ودخلوا معه في جدل حول المبادئ الدينية مما سماه ابن اسحاق في السيرة بالمباهلة ، وانتهوا بأن قالوا :

(١) أبو عبيد ، الأموال ، ص ١٨٧ ، حميد الله ، برقم (٩٤) .

(٢) ابن سعد ، الطبقات ، ٣٥٧/١ .

قد رأينا ألا نلاعنك وأن نتركك على دينك ، ونرجع على ديننا ، ولكن ابعث معنا رجلاً من أصحابك ترضاه لنا ، يحكم بيننا في أشياء اختلفنا فيها من أموالنا ، فإنكم عندنا رضاء^(١) . فأرسل معهم أبا عبيدة بن الجراح ، وقال له : ﴿ أخرج معهم ، فاقض بينهم فيما اختلفوا فيه ﴾^(٢) .

وهذا نوع من اكتساب الخبرات ، فقد كانت الدولة الاسلامية في بداية نشوئها بدائية في الأمور الادارية والتنظيمية ، فلا بد لها أن تستفيد من الكيانات القديمة والمجربة . وهذا بلا شك من الدين كما استفاد عمر رضي الله عنه من نظام الدواوين الذي اقتبسه من الفرس بعد دخولهم في الاسلام . فلم تكن حالة المجابهة آنذاك ناجحة مع أهل نجران ، بل ينفع معهم تحسين العلاقة التجارية ، والاستفادة من نظمهم الادارية . وهذا درس لنا في أن ليس كل ما عند أعدائنا سلبي وظالم ، بل إن منه الظلم والاعتداء ، ومنه العدل والنفع .

(١) ابن هشام ٥٩٣/٣ .

(٢) المصدر نفسه ٥٩٣/٣ .

إن هذه المرحلة التاريخية من عمر الدعوة الإسلامية لهي أهم مرحلة في تاريخ الدولة الإسلامية ، فقد كان الهدف الأول للنبي محمد ﷺ خلال العام الأول من الهجرة إقرار الأمن والنظام في مدينة يثرب ، وبتمكّنه من كسب ثقة الأوس والخزرج نجح في أن يكون الحكم الذي يرجعون إليه في شؤونهم .

وقد استطاع أن يزيل بالتدرج الأسباب الداعية إلى النزاع والخصام بينهما ، ونجح في نهاية المطاف أن يهيئ الأرض المشتركة التي يلتقون فيها مع المهاجرين ، وكسب بنفس القدر جانب اليهود ، والذين رأوا القبائل الأخرى في يثرب تلتف حول قيادته ، فلم يكن لهم من بديل غير الدخول معه في نوع من العلاقة كبقية السكان^(١) .

ونحن هنا في هذا المبحث نستهدف دراسة أربعة وثائق ومعاهدات هامة ، واثق بها النبي ﷺ بعضاً من قبائل العرب حول المدينة .

فقد سعى النبي ﷺ أن يوجه ضربة موجعة إلى قريش ، وذلك عن عزلها بالدخول في معاهدات دفاعية مع القبائل المحيطة بالمدينة ، وهو طريق قوافل قريش إلى الشام ، وهي تمثل الحلقة الأولى من الدبلوماسية الإسلامية الخارجية .

(١) د.عون الشريف قاسم ، نشأة الدولة الإسلامية على عهد رسول الله ﷺ ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط ٢ ، (١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م) ، ص ٤١ .

لنستجلي منها العبر والعصا التي تساعدنا على فهم ما يعيننا على معرفة تكوين وبلورة الأصول السياسية للدولة الناشئة ، وكيفية إنشاء علاقات أو تحالفات دولية كما هو معروف في عصرنا الحديث .

المطلب الأول

﴿ المعاهدة مع قبيلة ضمرة ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

((هذا الكتاب من محمد رسول الله لبني ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة بأنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم ، وأن لهم النصر على من رامهم إلا أن يحاربوا ^(١) في دين الله ما بل بحر صوفة ^(٢) ، وأن النبي إذا دعاهم لنصرة أجابوه ، عليهم بذلك ذمة الله وذمة رسوله ، ولهم النصر على من بر منهم واتقى)) ^(٣) .

خرج الرسول ﷺ غازياً في شهر صفر حتى بلغ ودان في ديار بني ضمرة ، يريد قافلة لقريش ، فأفلتت منه . وهي غزوة الأبواء ، ولكنه أنتهز هذه

(١) بالتاء المعلوم ((يحاربوا)) .

(٢) كناية على التأييد والاستمرار .

(٣) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، ٩٣/٢-٩٥

الفرصة المواتية ، فدخل في ضرب من العقد مع شيخ بني ضمرة مخشي بن عمرو^(١) .

لم يكن الهدف قطع الطريق على قافلة لقريش ، وإنما كان الهدف منها أيضا حمل بني ضمرة على الانصياع ، فقد كان موقع بلادهم الجغرافي ذا قيمة عسكرية مهمة في الصراع بين الدولة الإسلامية الناشئة وقريش . وما كان هدف الرسول ﷺ الأول في هذه المرحلة المبكرة أن يطلب منهم الانحياز إلى جانبه ومساعدته ضد قريش ، الذين كانت تربطهم بهم علاقات ودية حميمة بقدر ما كان يرمي إلى ضمان حيدهم في حالة وقوع صدام مسلح بين المدينة وأهل مكة .

وكانت خطته حتى وقعت بدر أن يزعج قوافل قريش بإرسال مجموعات صغيرة من المهاجرين . وخاصة إن هذه القوافل كانت غير مصحوبة بحماية كافية ، وهو أمر لم تفكر فيه قريش حتى تلك اللحظة^(٢) . وكان قرب بني ضمرة وحلفائهم من المدينة التي مصدر رزقهم ، قد وضعهم في موقف لا يسمح لهم بأي سلك للكيان الاتحادي في المدينة ، وهو حلف عدم الاعتداء وفق المصطلحات الحديثة .

(١) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ٥٤٢/٢ .

(٢) د. عون الشريف ، نشأة الدولة الإسلامية ، ص ٤٣ .

فقد يتبين لنا في هذا التحالف الأمور الآتية :

١- طغيان العنصر السياسي على بنوده : والمقصود بهذا الجانب أن النبي ﷺ لم يدعهم إلى الإسلام لأول وهلة ، بل كان هذا التحالف يمثل اتفاقاً سياسياً ، لكسب المودة قبل دعوتهم إلى الإسلام ، وبالتالي لا تشير هذه الوثيقة إلى دخولهم في الإسلام ، وذلك لأسباب آنفة الذكر .

٢- تدل هذه الوثيقة على أن مقتضيات السياسة الشرعية قد تدفع المسلمين إلى التحالف العسكري ، أو الاقتصادي ، أو التجاري مع أي من الكتل القائمة ، وأن هذا الأمر ليس له علاقة تماثل في المعتقد لدى الطرفين . ونحن هنا ليس بصدد التطرق إلى الكلام بالمسائل الفقهية حول هل يجوز التعامل أو الاستعانة بغير المسلمين في الحروب .

ولكننا بينا كيف أن النبي ﷺ اتخذ اتفاقاً سياسياً وعسكرياً مع دول ومجتمعات غير مسلمة . وهذا مما يساعدنا على فهم التعامل وكيفية الدعوة بصورة غير مباشرة مع جميع أطياف المجتمع المختلفة .

والغاية المهمة أو الرئيسة عند النبي ﷺ هي أنه يسبق قريشاً ، ويبدأ التحالف مع القبائل التي لها تأثير اقتصادي أو تجاري في منطقة شبه جزيرة العرب . والتي تمر قريش عن طريقها ، وضرب مصالح قريش من الناحية الاقتصادية . وقد زعم بعض المستشرقين ، ومن تأثر بأفكارهم من المثقفين والأدباء العرب بأن النبي محمد ﷺ ليس إلا رجل لديه مجموعات خاصة تقوم

بقطع الطريق على التجار والاستحواذ على الممتلكات العامة . وهذا الكلام مردود على كل ما زعموا ، وإنما مجرد افتراءات مغرضة الغاية منها تشويه شخص النبي ﷺ والتشكيك بنبوته . وإنما أراد النبي ﷺ من هذا العمل هو الضغط على قريش وإضعاف الحالة الاقتصادية الخاصة بهم . وإذا حصل ذلك فإن قريش لن تستطيع أن تجمع حلفاءها وتجهيز الجيوش من أجل محاربة المسلمين . وكما هو معروف في عصرنا الحديث أن البلد الذي يمتلك اقتصاداً جيداً يكون مسيطراً على جميع الدول ذات الاقتصاد الضعيف . ومثالاً على ذلك أن أمريكا حالياً هي صاحبة القرار الأول والأخير في تقرير مصير عالم اليوم .

إننا عند الحديث عن الاتفاقية السياسية مع قبيلة بني ضمرة لا نريد أن نغادرها حتى نبين مصطلحاً هاماً ، وهو مصطلح ((الأحلاف العسكرية ، تعريفه ، وحكمه)) . عرف الرازي الحلف في كتابه مختار الصحاح : (بأنه العهد يكون بين القوم ، وقد حالفه : أي عاهده ، وتحالفوا ، تعاهدوا)^(١) ، ((والحليف)) المعاهد يقال فيه : تحالفا ، إذا تعاهدا ، وتعاقدا على أن يكون أمرهما واحداً في النصر والحمية^(٢) .

(١) الرازي ، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر ، ت ٦٦٦ هـ ، مختار الصحاح ، دار

الرسالة - الكويت ، ١٩٨٣ م ، ص ١٤٩

(٢) الفيومي ، المصباح المنير ، ص ٥٦ .

أما تعريف الحلف في الاصطلاح : فهو اتفاقات يعقد بين دولتين ، أو أكثر تجعل جيوشهما تقاتل مع بعضها عدواً مشتركاً بينهما ، أو تجعل المعلومات العسكرية ، والأدوات الحربية متبادلة بينهما ، وهذه الأحلاف سواء كانت معاهدات ثنائية ، أو معاهدات جماعية تحتم أن يحارب الجيش مع حليفه ليدافع عنه وعن كيانه^(١).

إذ يمكننا أن نستنبط من التعريف المذكور آنفاً بأن الحلف لا يتوقف على المسلمين فحسب ، بل يمكن التحالف مع غير المسلمين ، وكما فعل ذلك النبي ﷺ حينما تعاهد مع خزاعة وجهينة وبنو ضمرة^(٢) ، وأبرمت بينهما اتفاقات سياسية متبادلة ، وذلك حسب المصلحة الشرعية التي يقرها المسلمون .

وهنا نذكر تعليق منير محمد الغضبان حول مسألة الحلف بين دولة المدينة وبين بني ضمرة بقوله : (ومع أن ضمرة على شركهم فقد نصت المعاهدة على إمكانية التناصر بين الفريقين)^(٣) .

(١) الشيخ تقي الدين ، الشخصية الإسلامية ، ٣/١٨٤-١٨٥ .

(٢) الزرقاني ، الشيخ مصطفى ، ص ٩٧٢ .

(٣) الغضبان ، منير محمد ، التحالف السياسي في الإسلام ، دار السلام ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م ، ص ١٢٩ .

ومن المعاهدات التي عقدها النبي ﷺ للدفاع عن الكيانات الأخرى من غير المسلمين المعاهدة التي تمت بين النبي ﷺ ، وبين خزاعة ، (وذلك ضمن معاهدة (صلح الحديبية) التي عقدت في الحديبية بين مكة وبين المدينة ، وكانت معاهدة مفتوحة يدخل فيها من شاء من قبائل العرب إلى جانب مكة ، أو إلى جانب المدينة ، فاختارت بنو بكر أن تدخل مع مكة في حلفها ، واختارت خزاعة أن تدخل إلى جانب المدينة في حلفها)^(١).

وكان هديه وسنته ﷺ إذا صالح قوما وعاهدهم ، فانضاف إليهم عدو له في عقده ، صار حكم من حارب من دخل معه في عقده من الكفار حكم من حاربه . وبهذا السبب غزا أهل مكة ، فلما صالحهم على وضع الحرب بينه وبينهم عشر سنين توثبت بنو بكر بن وائل ، فدخلت في عهد قريش وعقدها ، ثم عدت على خزاعة الحليفة لرسول الله ﷺ ، فقتلت منهم وأعانتهم قريش بالسلاح ، فعد رسول الله ﷺ قريشاً ناقضين للعهد بذلك ، واستجاز غزو بني بكر بن وائل لتعديهم على حلفائه .

وبعد هذا يتضح لنا بجلاء شرعية التحالف العسكري ، فيجب عليهم أن يوفوا بالتزاماتهم مع الحلفاء ولو كانوا على الشرك . وهذا يبني على القاعدة الشرعية التي تقول : ((لا ضرر ولا ضرار)) ؛ وذلك نظراً للمصلحة

(١) هيكل ، د. محمد خير ، الجهاد والقتال في السياسة الشرعية ، دار المنارة - جدة ، ط ٢ ، ٤٤/١ ، الفهداوي ، الفقه السياسي ، ص ١٤٣ ، ١٢٥ .

المشتركة ، وأن تكون لأصل الحلف غاية شرعية معلومة ، وأن يكون للمسلمين في الحلف قرار ورأي .

المطلب الثاني

﴿ بنو غفار ﴾

((إنهم من المسلمين ^(١) ، لهم ما للمسلمين ، وعليهم ما على المسلمين ، وإن النبي عقد لهم ذمة الله وذمة رسوله على أموالهم وأنفسهم ، ولهم النصر على من بدأهم بالظلم . وإن النبي ﷺ إذا دعاهم لينصروه أجابوه وعليهم نصره ، إلا من حارب في الدين ، ما بل بحر صوفة ، وإن هذا الكتاب لا يحول دون إثم ^(٢) .

كان بنو غفار من أوائل القبائل الصغيرة القريبة من المدينة التي تعاقد الرسول ﷺ معها وقد اعتبرتهم الاتفاقية جماعة من المسلمين ، لهم ما لهم من الحقوق وعليهم ما على المسلمين من الواجبات ، ومنحوا الأمان على أشخاصهم وممتلكاتهم ، وليس هناك من خبر مؤكد عن قبول بني غفار جميعهم للإسلام في هذه المرحلة

(١) هم من المسلمين تحالفا ، وليس انتماء في هذه المرحلة .

(٢) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، ص ٣٥٤ ، ومحمد حميد الله ، الوثائق السياسية

، برقم (١٦١) .

المبكرة ، وإن كانت المصادر حافلة بالإشارات إلى إسلام أفراد منهم منذ الأيام الأولى للهجرة^(١) .

يتبين لنا من مضمون الوثيقة التي عقدت مع بني غفار بأنهم من المسلمين لهم ما للمسلمين ، وعليهم ما عليهم ، هو ما يسمى وفق المصطلح الحديث (بالاتحاد الفدرالي) ؛ وذلك لوجود الحكومة المركزية الممثلة بالرسول ﷺ يشاوره كبار الصحابة ﷺ . وكذلك وجود الدستور الدائم الذي يحكم العلاقة بين السلطة ورعاياها . كما أن الشخصية الدولية للأعضاء لا بد لها من أن تذوب في شخصية الدولة الاتحادية^(٢) .

وهذا بالضبط الذي حصل مع قبيلة غفار ، فقد كانت لها استقلالية اقتصادية وسياسية ، فجاء أبو ذر الغفاري ﷺ في المرحلة الأولى . وفي المرحلة اللاحقة جاءت كل القبيلة من أجل توقيع الاتفاق المصيري مع الدولة الإسلامية بعد معاناة السفير الذي قدم نفسه لله تعالى ، ولم يخش في الله لومة

(١) راجع الباشا ، الدكتور عبد الرحمن رأفت ، صور من حياة الصحابة ، يذكر حادثة إسلام أبي ذر الغفاري ﷺ ودعوته في قومه ، دار الأدب الإسلامية ، القاهرة ، ط ١ ، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م ، ص ١٤٥ ، وما بعدها .

(٢) د. عصام العطية ، القانون الدولي العام ، مطبعة جامعة بغداد ، ط ٢ ، ١٩٨٠ م ، ص ٣٣٩ ، وما بعدها .

لائم ، وما لاقاه من قومه في بداية الأمر ، وتحمل الإهانة والضرب من زعماء ورجال بني غفار^(١) .

وكان أمر هذه المعاهدة يزعج قريشاً أيما إزعاج ؛ وذلك لأن قوافلها التجارية تمر بغفار لا محالة بما يجعلها في التعبير اليوم مرفأً تجارياً ، وممرأً للطرق حيويأً جداً ، ولذا أراد الرسول ﷺ أن يجعل هذا الاتفاق ذا إطار سياسي مع عموم القبيلة ، وفيه خيط دقيق من خيوط الدعوة والتعليم والعبادة والفرائض منذ الدرس الأول الذي تلقاه السفير الدبلوماسي الناجح أبو ذر الغفاري رضي الله عنه ، فلم يفعل الاتفاق في مسألة أركان الإسلام من صلاة وصيام وزكاة ، بل كانت هذه التفاصيل تعلم للناس من قبل الدعاة الركائز الموجودة في قبيلة غفار ، وذلك من أجل رفعة الانتساب الشعبي للإسلام .

ونحن هنا عند دراسة العلاقة مع قبيلة غفار وغيرها من العلاقات الأخرى التي وثقها الرسول ﷺ مع الاتجاهات القبلية والدينية ، وهو ما يسمى بالدخول من أبواب متفرقة ضمن الهدف الواحد ، وهو التمكين لهذا

(١) أحمد بن حنبل ، فضائل الصحابة ، ١٨١/٢ ، والباشا ، صور من حياة الصحابة ، ص ١٤٧ .

الدين لا بد لنا في واقعنا الراهن من أن نستفيد من هذه التجربة في تنوع أساليب الخطاب مع مجتمعاتنا والاتجاهات الفكرية المختلفة^(١).

(١) ينظر: الصلابي، محمد علي، فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم، دار المعرفة بيروت، لبنان، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م، ص ٤٣٣، والفهداوي، الفقه السياسي ص ١٣٨

المطلب الأول

﴿ بنو جهينة ^(١) ﴾

((إنهم آمنون وأموالهم ، وإن لهم النصر على من ظلمهم أو حاربهم إلا في الدين والأهل ، ولأهل باديتهم من برّ منهم واتقى ما لحاضرتهم ، والله المستعان)) ^(٢) .

يظهر من متابعة الوثائق ، ودراسة السياسة الخاصة بقبيلة جهينة ، إن طبيعة التحالف السياسي للدولة الإسلامية معها تميز بالتدرج فبنو زرة ، وبنو الربعة من جهينة . وقد كتب معهم الرسول ﷺ الوثيقة برقم (١٥١) عند حميد الله . هذه الوثيقة كانت ذات بنود سياسية بحثة ، بينما كانت الوثيقة النبوية لبني الحرقة وبني الجمز ، وهما من جهينة أيضا تمتاز بتعليق الأمان على جملة أمور هي : الإسلام ، إقامة الصلاة ، إيتاء الزكاة ، إطاعة الله ورسوله ، تخميس الغنائم ، سهم النبي الصفي ، والأشهاد على الإسلام ، ومفارقة المشركين ^(٣) .

(١) قبيلة جهينة من القبائل العربية التي تسكن سيف البحر الأحمر ، وهي معبر القوافل التجارية المتجهة إلى الشام ، وكانت ذات علاقة ودية مع قريش . ينظر : ابن سعد ، الطبقات الكبرى ٣٣٣/١ .

(٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى ٣٣٣/١ ، حميد الله ، الوثائق السياسية برقم (١٥١) .

(٣) ينظر : محمد حميد الله ، الوثائق السياسية ، ص ٢١٥ . برقم (١٥٢) ص ٢١٦

كما ذكرت في الوثيقة بعض الأحكام العملية ، وهي : بطلان الربا في الرهن ، وإن الصدقة في الثمار العشر . وهذا يدل على أن الوثيقة الأولى كانت في بداية تكوين الدولة الإسلامية ^(١) .

أما الوثيقة الثانية ، فهي عندما ازدادت قوة الدولة الإسلامية في المدينة إلى حد يمكنها من فرض أرائها على القبائل الأخرى ، وعندها نجد مثل هذه الشروط المالية منعكسة في المكاتبات والمعاهدات لهذه الفترة المتأخرة . فبعد أن استعان رسول الله ﷺ بالروابط السياسية مع القبائل المختلفة حول المدينة ليحقق الهدف الذي يرمي إليه وهو دحر قريش . انصرف إلى غاية رسالته الكبرى وهي نشر دينه بكل الطرق والسبل الميسرة له . فكان على العرب الوثنيين قبول الإسلام والخضوع لتعاليمه أو مواجهة العدو . وفي هذا الوقت كانت الخطوط العامة لنظام الحكم الإسلامي ، ومؤسساته المختلفة كالزكاة وغيرها من الفروض المالية والتشريعية قد بدأت تتشكل وتفرض وجودها ^(٢) .

(١) محمد حميد الله ، الوثائق السياسية ، القسم الثاني من الوثيقة برقم (١٥٢) ، ص ٢١٧ .

(٢) د . عون الشريف ، نشأة الدولة الإسلامية ، ص ٦٠ .

إننا عند التحدث عن المعاهدة مع قبيلة جهينة فيما يتعلق بالجانب السياسي ، والبحث في مسألة مهمة كالجهد في الإسلام قبل غيره من النظم الحديثة ، والتي عجزت عن معالجتها إلا وهي : مشكلة التفاوت الطبقي .

إننا لو نظرنا إلى الإسلام واستقرينا نظمه العامة لوجدناه وسطاً بين الحرية المفرطة الإباحية ، وبين الاستبدادية والتمييز الطبقي . ولاغرو فهو دين الله الذي امتاز بالوسطية وبين الرهبانية وقساوسة اليهود وأرقامهم الحسابية ، كما هو وسط بين الدكتاتورية العاتية والانفلات الغوغائي . ففيه شورى ومعها أمر وطاعة ، عندما ندرس طبيعة هذه المجتمعات ، فإنما هدفنا الوصول إلى موضوع هام جداً وهو إن كل هذه الحضارات ، والمناهج لها جذور مستمرة في الواقع العالمي المعاصر .

وإن الدولة الإسلامية قد تعاملت مع هذه المجتمعات ممثلة بالوثائق التي دونت في زمن النبي ﷺ والسياسية الشرعية في زمن الخلفاء الراشدين . وخاصة في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه فمع حنكة أبي بكر رضي الله عنه ، فإن الدولة الإسلامية في زمنه لم تصل إلى المؤسسة في المال ، والتدوين والسياسة ، والعلاقات الدولية هذا من حيث العموم ؛ وذلك بسبب انشغال الصديق رضي الله عنه بحروب الردة وبناء الدولة الداخلي .

أما خلافة عمر رضي الله عنه ، فقد تم فيها إدخال نظام الدواوين ، وترسيخ الأمر السياسي ، وإقامة مختلف العلاقات مع شتى الأقاليم والدول . أما عصر

عثمان ، وعلي (رضي الله عنهما) فهما محنة وفتنة واقتتال ساهم في تأخير دور الدولة الإسلامية العالمي^(١).

هذا الذي ذكرناه هو تاريخ وتشريع تعامل المسلمين مع مختلف الجهات المحاذية للدولة الإسلامية الناشئة . ومن خلال دراسة طبيعة هذه المجتمعات نرى بصيرة الرسول ﷺ ، وحنكة صحابته في كيفية التعامل مع هذه المجتمعات التي كانت تمتاز بالقوة والمتعة . وأن هذا التعامل يفيدنا في واقعنا اليوم في كيفية التعامل مع مختلف الاتجاهات الفكرية العالمية المعاصرة بأن القرآن الكريم هو أكثر الكتب السماوية إعلاناً ، وأوضحها تنويهاً بأن الله هو الحاكم المطلق الوحيد لهذا الكون : ﴿إِنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ﴾^(٢).

وإن الإنسان ليس بمخلوق ، ولا عبد ، ولا مربوب إلا لله تعالى ، ولذلك لا يفرض على الإنسان أن يطيع أحداً من أبناء جنسه ، وليس للإنسان أن ينال منصب الحاكمية المطلقة^(٣).

(١) المودودي ، أبو الأعلى ، حول الدين والدولة (د . ت) ، (د . م) ، ص ١٢٤ ، د . عماد الدين خليل ، حول القيادة والسلطة في التاريخ الإسلامي ، مكتبة النور القاهرة ، ١٩٨٥ م ص ٨٥ .

(٢) سورة الأنعام ، من الآية ٥٧ .

(٣) المودودي ، حول الدين والدولة ، ص ١٢٤ .

وليس من وراء بعثة الرسول ﷺ غاية سوى أن يكسر الأغلال التي
 وضعها الإنسان في عنق الإنسان : ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي
 كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ (١) .

وكان الذي غرسه الرسول ﷺ في القلوب من الولوع بالحرية الفكرية
 باب عظيم ، وما لقنه أتباعه من خلال سلوكه الفذ ، وتصرفاته المتزنة من
 درس عن حق الإنسان في إبداء الرأي مقابل أخيه الإنسان ، بجانب تربيتهم
 على طاعة الله تعالى فيما يأمر ويريد . كان من نتيجة ذلك أن ترى أصحابه
 (رضوان الله عليهم) أسبق الناس إتباعاً لأحكام الله تعالى ، وأكثر الناس
 حباً للشورى ، وأشد الناس تمسكاً بالحرية الفكرية (٢) .

(١) سورة الأعراف ، من الآية ١٥٧ .

(٢) ينظر المودودي ، حول الدين الدولة ، ص ١٣٧ .

المطلب الثاني

﴿ محالفة نعيم بن مسعود الأشجعي ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

(هذا ما حالف عليه نعيم بن مسعود بن رخيطة الأشجعي ^(١) حالفه على النصر والنصيحة ، ما كان أحد مكانه ، ما بل بحر صوفه وكتب عليها) ^(٢) .

إن خير مقياس لصحة النص فضلاً عن صحة سنده ، هو أن تنسب محتوياته إلى الظروف المحيطة التي أملت كتابته ، ودفعت به إلى حيز الوجود ، فحتى هدنة الحديبية في العام السادس من الهجرة . وفي بعض الأحيان حتى فتح مكة في العام الثامن من الهجرة كان سلام المدينة معرضاً للخطر ، إذ كان يهددها النشاط المعادي الذي تقوم به قبائل العرب التي كانت على صلة بقريش شجع هذا الأمر الظرف السياسي لمعركة أحد ، وفاجعة الرجيع ، وهي بعث النبي ﷺ ستة من أصحابه يعلمون بني مدرعة

(١) صحابي جليل أسلم وأخفى إسلامه . ينظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ، ٢٢٩/٤ .

(٢) ابن سعد الطبقات ، ٢٧٤/١ ، محمد حميد الله ، الوثائق السياسية برقم (١٦٢)

الإسلام ، حتى إذا كانوا على الرجيع غدروا بهم ، فقتلوا منهم من قتلوه ،
وباعوا لأهل مكة منهم من باعوه (١) .

وبلغت هذه التحرشات قمتها في العام الخامس من الهجرة عندما
تحالفت الأحزاب من بني النضير ، وقريش ، وغطفان ، وبني فزارة ، وبني
مرة ، حين حاصروا المدينة في موقعة الخندق (٢) .

وقد بلغ البلاء بالمسلمين مبلغاً عظيماً حتى اضطر الرسول ﷺ أن يجري
الصلح بينه وبين قائدي غطفان ، فأعطاهما ثلث ثمار المدينة ، ثم استشار
الرسول الكريم سعد بن معاذ وسعد بن عباد ، فقالا له : أمراً تحبه فتصنعه
، أم شيئاً أمرك الله به لابد من العمل به ، أم شيئاً تصنعه لنا ؟ قال : بل
شيء أصنعه لكم ، والله ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيت العرب قد رمتكم عن
قوس واحدة ، وطالبوكم من كل جانب فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى
أمر ما (٣) .

إنما ذكرنا آنفاً من حوار النبي ﷺ مع سعد بن معاذ ، وسعد بن
عبادة (رضي الله عنهما) لنستجلي أموراً تهمنا نحن كمسلمين منها :-

(١) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ٢١٤/٣ .

(٢) المصدر نفسه ، ٢١٤/٣ .

(٣) المصدر نفسه ، ٢٢٤/٣ ، الصلابي ، الدكتور علي محمد ، السيرة النبوية ، دار
المعرفة ، بيروت ، لبنان ، ١٤٢٧هـ ، ٢٠٠٠ م ، ص ٦٠ ، وما بعدها .

١- المشورة بين النبي ﷺ ، وأصحابه ﷺ ، وعدم الانفراد بالرأي إذا كان الأمر ليس موحى به من الله تعالى . فنرى حرية الرأي وأدب الحوار بين الأطراف ، أو مجلس الشورى المنعقد .

٢- توجيه السؤال للنبي ﷺ حول هذا العمل ، هل هو من عند الله تعالى نزل عليك ؟ فإذا كان الأمر كذلك ، فليس علينا إلا السمع والطاعة ؛ لأن الله تعالى أمرك به . يتبين لنا وجوب الطاعة وتنفيذ الأمر فيما ينزل من الوحي . أما إذا كان الأمر مشورة ، فالكلام فيه نوع من الأخذ بالآراء والتوصل إلى حل إيجابي لما فيه مصلحة شرعية تنفع المسلمين ، وخير مثال على ذلك حفر الخندق في معركة الأحزاب .

وقد نجحت محاولات التثبيط في نشر الخلاف والفرقة في أوساط الأحزاب خاصة ، وقد أنهكهم الحصار الذي طال أمده ، وقد تولى أمر تخذيل المشركين رجل بصير وجريء ، هو نعيم بن مسعود الأشجعي الذي أسلم حينذاك ، وسأل الرسول ﷺ أن يأمره بما شاء ، فقال له الرسول : إنما أنت فينا رجل واحد ، فخذل عنا إن استطعت ، فإن الحرب خدعه^(١) .

ونجحت هذه المساعي في فض الحلف ، وتفرقت الأحزاب بدءاً ، ورفع الحصار عن المدينة دون خسائر ، ويضم العقد مع نعيم مادة واحدة هي مخالفته على النصر والنصيحة ، ما كان أحد مكانه ، كناية عن الاستمرار

(١) ينظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ، ٢٢٩/٣ .

والثبات . وهذا يرشدنا إلى مسألة في غاية الأهمية ، وهي ما يراه أهل الحل والعقد في وضع الشخص المناسب في المكان المناسب . وذلك في إطار أن الخدعة والمرونة السياسية هو أمر من الإسلام . ولا يعني انتماؤنا للإسلام أن نكون مكشوفين محدوددي الخطوات ، بل الإسلام هو التخطيط والمتابعة ودراسة الواقع الدولي والإقليمي ، كما فعل رسول الله ﷺ .

فكم من المسلمين انتبه إلى هذه المسألة المهمة ، فوجّه الأتباع إلى الولوج في مختلف الدوائر المحاربة للإسلام من أجل معرفة العدو من الداخل ، وفرق بين أن تسمع بالشيء ، وبين أن تلمسه وتعاينه . وما فعله رسول الله ﷺ مع نعيم يعد سبقاً إعلامياً في توهن العدو ، وبشمل حركته ، وتدميره من الداخل^(١) .

ومن خلال قصة التحالف مع نعيم نستجلي مسألة عظيمة الشأن في حياة الأمة الإسلامية إذا أرادت النهوض من جديد . وتشير الدعوة الإسلامية ذات المنهج الوسطي والإحاطة لكل ما يدور حولها من تأمر ، ومحاولات لهدم معالم الشريعة الإسلامية من مخططات صهيونية ، فيجب علينا أن نعي ما يدور حولنا ، وذلك حرصاً على عدم الوقوع في أخطاء تحتدم عليها مصير أمتنا المسلمة ، وذلك باستلهم الصبر والعظمت من سير النبي ﷺ ، والوقوف

(١) ينظر : هيكل ، الجهاد والقتال ، ٩٦٤/٢ ، الفهداوي ، الفقه السياسي ،

على الجوانب المهمة التي تساعدنا في عصرنا الحديث ، والذي تكالبت فيه قوى الشر ، والتي تبثغي إلى تشويه الإسلام زاعمة بأن الإسلام والمسلمين لم يتمكنوا أو لا يستطيعوا بناء المجتمعات المتحضرة ، وأنهم منشغلين بالقتل والإرهاب ، وتدمير البنية التحتية . وما نراه من الصراعات الإعلامية ، ومع الأسف أصبحت الدول العربية الإسلامية تنهج منهج الغرب على أن المسلمين هم يشكلون خطراً على العالم المتقدم .

ونحن هنا نبين لكل من زعم ونرد عليهم بقولنا : إن الإسلام هو أول من اكتشف جهاز الاستخبارات ، وإن أبرز القادة العسكريين هم من المسلمين . وإن الشعوب طورت هذا الجهاز وبمسميات مختلفة . والأمثلة في السيرة النبوية كثيرة في مسألة التجسس ، منها : ما جاء في صحيح مسلم من قصة إرسال النبي ﷺ لحذيفة بن اليمان رضي الله عنه في ليلة من ليالي غزوة الخندق ليأتي بخبر العدو ^(١) . وفي غزوة بدر جاءت الأخبار لرسول الله ﷺ بأن قافلة قريش قادمة من الشام في طريقها إلى مكة ، وفيها خمسة وثلاثون رجلاً بقيادة أبي سفيان ، وفيها معظم أموال قريش ، فندب النبي ﷺ بناء على هذه الأخبار المسلمين الحاضرين للخروج واعتراض القافلة ^(٢) .

(١) مسلم ، الصحيح ، كتاب (الجهاد والسير) ، باب (غزوة الأحزاب) ، رقم الحديث (٤٧٤١) ، ٢ / ٢٣٣ .

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ، ٣١٠/٤ .

وكان رسول الله ﷺ أحيانا يستعين برجل قد اعتنق الإسلام لا يزال يعيش مع الأعداء دون أن يعلموا بإسلامه فيحذروا منه ، ومن هؤلاء العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه عم النبي ﷺ . فقد عاش في مكة ولم يهاجر إلى المدينة ، ولكنه كان يزود رسول الله ﷺ بأخبار عن قريش . وفي غزوة الحديبية أرسل رسول ﷺ عيناً له من خزاعة ، وهي القبيلة الداخلة ضمن التحالف السياسي مع دولة المدينة واسمه (بشر بن سفيان) ، وكان يومها على شركه يرصد له أخبار قريش وتحركاتها العسكرية ، وتدابيرها الأمنية^(١) .

ولم يكتف الرسول ﷺ بالاستخبارات العسكرية التي تعتمد على عناصر في الجيوش المساعدة ومعسكراتها ، أو عيون من المسلمين وغيرهم ، بل كان يرسل السرايا والبعوث العسكرية ليستطلع أخبار الجيوش المعادية ، وسرايا الأعداء وكذلك قوافلهم التجارية . وكانت هذه السرايا والبعوث تقوم بتزويد الرسول ﷺ بمعلومات دقيقة عن تحركات العدو^(٢) .

(وعلى أساس المعلومات تبني الخطة المناسبة لمجابهة العدو)^(٣) .

(١) محمد السيد طنطاوي ، السرايا الحربية في العهد النبوي ، الشركة المصرية للطباعة ، القاهرة ، ١٩٧١م ، ص ١٢٠ . وما بعدها .

(٢) المرجع نفسه ، ص ١٢١ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ١٢٠ .

المطلب الأول

﴿ الحديبية ﴾

ذكرها أهل التاريخ والسير وأطلقوا عليها عدة مسميات منها : غزوة الحديبية ، والفتح المبين ، وصلح الحديبية ، وبيعة الحديبية ، وغيرها من المصطلحات الأخرى . ونحن هنا ليس بصدد الاختلاف في التسمية ، وإنما نريد أن نركز على أهم الأحداث التاريخية التي حدثت في الحديبية ، والوصول إلى أهم العبر ، وأبرز النتائج التي أثمرتها الحديبية^(١) .

لما تطورت الظروف في شبه الجزيرة العربية إلى حد كبير لصالح المسلمين ، أخذت طلائع الفتح الأعظم ، ونجاح الدعوة الإسلامية تبدوا شيئاً فشيئاً ، وبدأت التمهيدات لإقرار حق المسلمين في أداء عباداتهم في المسجد الحرام ، الذي كان قد صد عنه المشركون منذ ستة أعوام^(٢) .

وسبب هذه الغزوة ، أو العمرة أن رسول الله ﷺ رأى في المنام وهو بالمدينة ، أنه دخل هو وأصحابه المسجد الحرام ، وأخذ مفتاح الكعبة ، وطافوا واعتَمروا وحلق بعضهم وقصر بعضهم ، فأخبر بذلك أصحابه ففرحوا ، وحسبوا أنهم داخلون مكة عامهم ذلك ، وأمر أصحابه فتجهز للسفر ،

(١) المباركفوري ، صفي الرحمن ، الرحيق المختوم ، دار الوفاء للطباعة ، المنصورة ، ط ١٧ ، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م ، ص ٢٩٤ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٢٩٤ .

واستنفر العرب ومن حوله من أهل البوادي ليخرجوا معه ، فأبطأ كثير من الأعراب ، أما هو فغسل ثيابه ، وركب ناقته القصواء ، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم ، أو نميلة الليثي ^(١) .

وخرج منها يوم الاثنين غرة ذي القعدة سنة ٦ هـ ، ومعه زوجته أم سلمة في ألف وأربعمائة . ويقال : وخمسمائة . ولم يخرج معه سلاح إلا سلاح المسافر ، السيوف في القرب ^(٢) .

وأما سبب حمل السيوف من باب التعامل مع سنة الأخذ بالأسباب من هديه الكريم الذي جعله لأمته لتقتدي به من بعده ﷺ ، لما في ذلك من المصالح الكثيرة ، ولما فيه درء مكائد الأعداء الذين يتربصون بالمسلمين الدوائر ^(٣) .

وانتشر خبر مسير رسول الله ﷺ بين قبائل العرب ، وكان انتشار الخبر له أثر في الرأي العام ، وخصوصاً بعدما أكد رسول الله ﷺ بأنه لا يريد حرباً ، وإنما يريد أن يعتمر ويعظم شعائر الله . وحقق هذا الفعل الكريم مكاسب إعلامية رفيعة المستوى . وقد كان هدف النبي ﷺ معلناً ألا وهو زيارة

(١) المباركفوري ، صفي الرحمن ، الرحيق المختوم ، ص ٢٩٥ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٢٩٥

(٣) الصلابي ، السيرة النبوية ، ص ٦٥٨

بيت الله الحرام لأداء العمرة . فتجرد هو وأصحابه من المخيط ، ولبسوا ثياب الإحرام ، وأحرم بالعمرة من ذي الحليفة بعد أن قلد الهدى وأشعره ^(١) .

وقد كان النبي ﷺ على جانب كبير من الحيطة والحذر . فقد أرسل بشر بن سفيان الخزاعي عيناً له ، وقدم بين يديه طليعة استكشافية مكونة من عشرين رجلاً . وفي ذلك يقول الواقدي : دعا رسول الله ﷺ عباد بن بشر ، فقدمه أمامه طليعة في خيل المسلمين عشرين فارساً ، وكان فيها رجال من المهاجرين والأنصار ^(٢) .

وكان هدفه ﷺ من ذلك الاستعداد للطوارئ التي يمكن أن يفاجأ بها ، فضلاً عن مهمة هذه الطليعة كانت استكشاف خبر العدو ^(٣) .

لما وصل رسول الله ﷺ بعسفان لقيه بشر بن سفيان الكعبي الخزاعي ، فقال : يا رسول الله ، هذه قريش قد سمعت بمسيرك ، ومعها العوذ

(١) أشعره : إشعار الهدى أو البدن ، هو أن يطعن في سنامه الأيمن حتى يسيل منه دم ليعلم أنه هدي .

ينظر : محمد الرازي ، مختار الصحاح ، باب الشين ، ص ٣٣٩ .

(٢) الواقدي : محمد عمر (ت ٣٠٧ هـ) ، المغازي ، تحقيق د . مارسدن جونس ، عالم الكتب ، بيروت ، ط ٣ ، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م ، ٦٠٠/٢ .

(٣) باشميل ، محمد احمد باشميل ، صلح الحديبية دار الفكر ، ط ٣ ، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م ، ص ٣٠٩ .

والمطافيل^(١) قد لبسوا جلود النمر يعاهدون الله ألا تدخلها عليهم عنوة أبداً ، فقال رسول الله ﷺ : يا ويح^(٢) قريش لقد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر الناس ؟ فإن أصابوني كان الذي أرادوا ، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وهم واقرون^(٣) ، وإن لم يفعلوا قاتلوا ربهم قوة ، فماذا تظن قريش ؟ والله إنني لا أزال أجاهدهم على الذي بعثني الله له حتى يظهر الله له ، أو تنفرد هذه السالفة^(٤) .

ولما بلغ رسول الله ﷺ أن قريشاً قد خرجت تعترض طريقه ، وتنصب كميناً له ولأصحابه بقيادة خالد بن الوليد رضي الله عنه ، وهو لم يقرر المصادمة ، رأى أن يغير طريق الجيش الإسلامي تفادياً للصراع مع المشركين ، فقال : من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها ؟ فقال رجل من أسلم : أنا يارسول الله ، فسلك بهم طريقاً وعراً بين شعاب شق على المسلمين السير فيه حتى خرجوا إلى أرض سهلة عند منقطع الوادي ، وعند ذلك قال رسول الله ﷺ للناس : ﴿ قولوا نستغفر الله ونتوب إليه ﴾ ، فقالوا ذلك .

(١) المداد : خرجوا ومعهم النساء والأولاد ، لئلا يفروا عليهم وهو على الاستعارة .

(٢) يا ويح : كلمة ترحم وتوجع .

ينظر : محمد الرازي ، مختار الصحاح ، ص ٧٣٨

(٣) واقرون : جمع واقر وهو لم ينقص منه شيء . ابن منظور ، لسان العرب ، ٩٠٨/٣ .

(٤) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ٣٣٨/٣ .

فقال: ﴿ والله إنها الحطة التي عرضت على بني إسرائيل ، فلم يقولوها ﴾^(١) .

فأمر رسول الله ﷺ أن يسلكوا ذات اليمين بين ظهري الحمص في طريق تخرجه إلى ثنية المرار^(٢) ، مهبط الحديبية من أسفل مكة ، فسلك الجيش ذلك الطريق بخفة ودون أن يشعر به أحد ، فما نظر خالد بن الوليد إلا وقترة - أي غبار - جيش المسلمين قد ثارت ، فعاد مسرعاً هو ومن معه إلى مكة يخبر أهلها ، ويأمرهم بالاستعداد لهذا الحدث المفاجئ^(٣) . وقد أصاب الذعر للمشركين ، وفوجئوا بنزول الجيش الإسلامي بالحديبية حيث تعرض مكة للخطر ، وأصبحت مهددة من المسلمين تهديداً مباشراً^(٤) .

وهنا يعقب اللواء محمود شيت خطاب على هذا الدرس الرائع بقوله :
لم تكن حركة المسلمين على هذا الطريق خوفاً من قوات الجيش ، فالذي يخاف من عدوه لا يقترب من قاعدته الأصلية وهي مركز قواته ، بل يحاول الابتعاد عن قاعدة العدو الأصلية حتى يطيل خط مواصلات العدو . وبذلك

(١) رواه ابن اسحاق بإسناد منقطع . ينظر : فتح الباري ٣٣٥/٥ .

(٢) ثنية المرار : وهي طريق في الجبل تشرف على الحديبية . ينظر : ابن حجر العسقلاني ، فتح الباري ٣٣٥/٥ .

(٣) أبو فارس ، السيرة النبوية ، ص ٢٩ ، والصابي ، السيرة النبوية ، ص ٦٦٠ .

(٤) أبو فارس ، السيرة النبوية ، ص ٣٧٤ .

يزيد من صعوباته ومشاكله ، ويجعل فرصة النصر أمامه أقل من حالة الاقتراب من قاعدته الأصلية^(١) .

وقد جاء في كتاب اقتباس النظام العسكري في عهد الرسول ﷺ ما تبين الحكمة من تغيير الطرق ما نصه : ويؤخذ من اتخاذ الأدلة والتحول إلى الطرق الآمنة أن القيادة الواعية البصيرة تسلك في سيرها بالجيش طرقاً بعيدة عن المخاطرة والمهالك ، وتتجنب الدروب التي تجعل الجيش خاضعاً تحت تصرفات العدو وهجماته^(٢) .

ومضى النبي (عليه الصلاة والسلام) بأصحابه في وجهتهم المحددة ، فإذا بناقته تبرك لا تجاوز مكانها . ودهش الناس لما عراها ، فقالوا : خلأت القصواء^(٣) . فقال النبي ﷺ : ما خلأت ، وما هو لها بخلق ، ولكن حبسها

(١) محمود شيت ، الرسول القائد ، ص ١٨٦ ، ص ١٨٧ .

(٢) أبو فارس ، السيرة النبوية ، ص ٣٧٤ .

(٣) خلأت الناقة حرنت وبركت من غير علة . ينظر : محمد الرازي ، مختار الصحاح ، (باب الخاء) ، ص ١٨٣ .

حابس الفيل عن مكة ، لا تدعوني قريش اليوم الى خطة سألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها. ثم أمر الناس أن يحلوا حيث انتهى بالناقة المسيرة^(١) ونزل المسلمون كما أمروا ينتظرون مع الغد القريب أن تفتح لهم أبواب مكة فيطوفون ويسعون ، ثم يعودون وافدين رابحين . إنهم واثقون من إدراك بغيتهم ، ولماذا يفشلون وقد سمعوا من رسول الله ﷺ بشرى كثيرة بأنهم سيدخلون المسجد الحرام آمنين محلقي رؤوسهم ومقصرين^(٢) .

أما قريش فقد ذعرت لهذا الزحف المباغت ، وفكرت جادة في إبعاده عن مكة مهما كلفها من مغارم . وذلك أنها نظرت إلى الأمر من زاوية ضيقة ، فرأت أن مهابتها ستنزح من أفئدة الناس قاطبة إذا دخل المسلمون بلدهم على هذا النحو بعد ما وقع من حروب طاحنة . غير أن قريشا تعرف حروجه موقفها إن نشب قتال جديد ، فحجتها فيه أمام نفسها وأمام أحلافها داخضة ، وقد ينتهي بكارثة تؤدي بكيانها كله ، ولهذا سيرت الوسطاء إلى محمد ﷺ عليهم ينتهون معه إلى مخلص من هذه الورطة !!^(٣) .

(١) الغزالي ، محمد ، فقه السيرة ، تحقيق : الشيخ محمد ناصر الدين الألباني ، دار الدعوة للطباعة - الإسكندرية - القاهرة ، ط ٦ ، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠ م ، ص ٢٨٢ .

(٢) المرجع نفسه ص ٢٨٢ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ٢٨٢ ، وما بعدها .

وهنا بدأت مرحلة جديدة ، وهي لغة الحوار بين الطرفين والمفاوضات واللجوء إلى الدبلوماسية السياسية . وذلك من أجل الوصول إلى معرفة ما يبتغي إليه الجيش الإسلامي بقيادة النبي ﷺ ، وما هي نواياهم ؟ خصوصاً أن قريش تعلم جيداً ما هو حجم و ثقل المسلمين في المدينة ، وبعض مناطق الجزيرة العربية . فبدأت بإرسال أول سفير لها ، وذلك لمعرفة وكشف الحقائق ، وكان (بديل بن ورقاء) في رجال من خزاعة ، وكانت خزاعة عيبة أي خاصته وأصحاب سره ، فكلموه وسألوه ما الذي جاء به هنا ؟ فأخبرهم أنه لم يأت يريد حرباً ، وإنما جاء زائراً للبيت ومعظماً حرمة .

فرجعوا إلى قريش يقولون : يا معشر قريش ، إنكم تعجلون على محمد ﷺ إن محمداً لم يأت لقتال : وإنما جاء زائراً لهذا البيت ، فاتهموهم وخاطبوهم بما يكرهون ، وقالوا : وإن كان إنما جاء لذلك ، فلا والله لا يدخلها علينا عنوة أبداً ولا تتحدث بذلك العرب ^(١) .

وقد ظهرت براعة النبي ﷺ السياسية في عرضه على مشركي مكة الهدنة والصلح ؛ لأن في ذلك فوائد كثيرة منها :-

١- فبالهدنة يضمن حياد قريش ، ويعزلها عن أي صراع يحدث في شبه الجزيرة العربية ، سواء كان هذا الصراع من القبائل العربية الأخرى ، أم مع اليهود .

(١) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ٣/٣٤٠ ، الصلابي ، السيرة ، ص ٦٦٢ .

٢- حرص النبي ﷺ على أن يبقى باب الاتصال مفتوحاً بينه وبين قريش يسمع منهم ، ويسمعون منه بواسطة الرسل والسفراء ، وفي هذا تقريب للنفوس ، وتبريد لجو الحرب ، وإضعاف لحماسهم نحو القتال .

٣- حرص النبي ﷺ على أن تدرك خزاعة بقيادة بديل والركب الذي معه ، أن حليفهم قوي فتزداد ثقتهم به وحلفهم له ولبنو هاشم من قبل الإسلام ، فقد بقي وتأكد في صلح الحديبية ^(١) .

لم تقبل قريش ما نقله بديل الخزاعي عن الرسول الله ﷺ أنه جاء زائراً للبيت ، وليس محارباً لهم ؛ وذلك لأن خزاعة تعد من أول القبائل التي كانت عيبة نصح رسول الله ﷺ ، وأن قريشاً قد ظنت بأن خزاعة ترغب بدخول محمد ﷺ إلى مكة ، فرفضت قريش رفضاً قاطعاً من هذا الرأي ، وأسمعتهم ما يكرهون .

فكرت قريش بأن ترسل رسولاً آخر من غير خزاعة . وهنا نرى بأن قريش تريد التحاور ، وليس القتال في هذه الفترة الحرجة مخافة أن تلومهم العرب ، وتضعف هيبتهم أمام الجميع ، فقد بعثت قريش "مكرز بن حفص" ، فعاد بما عاد به بديل الخزاعي ، ثم بعثوا "الحليس بن علقمة" ، فلما

(١) الصلابي ، السيرة ، ص ٦٦٣ .

رآه النبي ﷺ قال : إن هذا من قوم يتألهون ، فابعثوا الهدى في وجهه حتى يراه ^(١) .

فلما رأى الهدى يسيل عليه من عرض الوادي ، عاد إلى قريش قبل أن يصل إلى رسول الله ﷺ إعظاماً لما شاهد ، فقال لهم ذلك ، فأجابوه : اجلس إنما أنت أعرابي لا علم لك ، فاستشاط الحليس ، وقال : يا معشر قريش ، والله ما على هذا حالناكم ، ولا على هذا عاقدناكم ، أيبعد عن بيت الله من جاء معظماً له ؟ والذي نفس الحليس بيده ، لتخلون بين محمد ﷺ وبين ما جاء له ، أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد . وقالوا له : إنما كل ما رأيت هو مكيدة من محمد ﷺ وأصحابه ، فكفف عنا حتى نأخذ نفساً ما نرضى به ^(٢) .

ثم بعثوا إلى رسول الله ﷺ (عروة بن مسعود الثقفي) ، وكره عروة أن يعود من مفاوضة المسلمين فيسمعه رجال قريش ما يسوؤه ، فقال : يا معشر قريش ، إنني قد رأيت ما يلقي منكم من بعثتمون إلى محمد من التعنيف وسوء اللفظ ، وقد عرفتم أنكم والد وإنني ولد ، وقد سمعت بالذي نابكم ، فجمعت

(١) الغزالي ، فقه السيرة ، ص ٢٨٣ .

(٢) الواقدي ، المغازي ، ٦٠٠/٢ ، الغزالي ، فقه السيرة ، ص ٢٨٣ .

من أطاعني من قومي ، ثم جنثكم حتى آسيتكم بنفسي ، وقالوا : صدقت ، ما أنت عندنا بمتهم^(١) .

فخرج حتى أتى رسول الله ﷺ ، فجلس بين يديه ، ثم قال : يا محمد ، أ رأيت أن استأصلت أمر قومك ، هل سمعت بأحد من العرب أجتاح أهله قبلك ؟ وإن تكن الأخرى فإني والله لأرى وجوهاً ، أني لأرى أوشاباً^(٢) من الناس خليفاً أن يفروا ويدعوك ، فقال له أبو بكر رضي الله عنه : امصن ببظر^(٣) اللات أنحن نفرَ عنه وندعه ، فقال : من ذا ؟ قالوا : أبو بكر ، قال : والذي نفسي بيده لولا يد كانت لك عندي لم أجزك بها لأجبتك^(٤) .

وعاد عروة حديثه مع رسول الله ﷺ ، وجعل يتناول لحيته وهو يكلمه ، كأنه ينبهه إلى خطورة ما سيقع بقومه — ألا أن المغيرة بن شعبة كان يقرع يده كلما فعل ذلك ، وهو يقول : أكفف يدك عن وجه رسول الله قبل أن لا تصل إليك ، فقال عروة له : ويحك : ما أفضك وأغلظك . ثم سأل النبي ﷺ : من هذا يا محمد ؟ فأجاب الرسول ﷺ ، وهو يبتسم : هذا ابن أخيك

(١) البخاري ، الصحيح ، كتاب (الشرط) ، باب (الشروط في الجهاد) ، ١٣٧/٣

(٢) أوشابا : أي خلاطاً من قبائل شتى . ينظر : ابن حجر ، فتح الباري ٢٨٣/٨ .

(٣) البظر : ما تقطعه الخاتنة من بضع المرأة عند ختانها . ينظر : ابن منظور ، لسان العرب ٧٠/٤ .

(٤) البخاري ، الصحيح ، كتاب (الشرط) ، باب (الشروط في الجهاد) ، ١٣٧/٣ .

المغيرة بن شعبة . فقال عروة للمغيرة : أي غدر هل غسلت سواتك إلا بالأمس^(١) . وقد رد النبي ﷺ على عروة بما يقطع اللجاجة وينفي الشبه ، إنه لا ينبغي حرباً ، وإنما يريد أن يزور البيت كما يزوره غيره ، فلا يلقي صاداً ولا راداً ، ورجع عروة ينوه بإجلال الصحابة لرسول الله ﷺ ، ويقول : إني والله ما رأيت ملكاً في قومه قط مثل محمد ﷺ في أصحابه ، لقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء ، فروا رأيكم^(٢) .

وهنا نرى كيف تحول عروة من نقل الأخبار ، وبدأ ينصح قريش عكس الذي كان في السابق ، وهو يتحاور مع النبي ﷺ . وغايته الكبرى هو تعظيم قريش ، واستخدام الحرب النفسية والإعلامية في صفوف المسلمين ، ولكن إرادة الله ﷻ هي التي تفوق كل شيء . وانقلب السحر على الساحر ، حيث لقد انتقلت الحرب النفسية ، وتأثيرها في صفوف المسلمين لتعمل داخل جبهة قريش وفي نفوسهم . فقد كان تصوير عروة صادقاً ، حيث بين لقريش وضع المسلمين في الحديبية من طاعتهم لنبيهم الكريم ، وحبهم له ، وتفانيهم بالدفاع عنه ، وبما يتمتعون به من معنويات عالية جداً ، واستعداد عسكري ونفسي يفوق الوصف . فكان ذلك بمثابة التحذير الفعلي لقريش بعدم التعجل

(١) كان المغيرة قبل إسلامه داهيةً فاتكاً ، قتل نفرا فوداهم عروة إطفاءً للفتنة .

(٢) الواقدي ، المغازي ، ٦٠٠/٢ .

والدخول في حرب مع النبي ﷺ وأصحابه ﷺ ؛ لأن الحرب لا تكون من صالح قريش .

لقد كان النبي ﷺ موفقاً من قبل الله تعالى ، وذلك نجد أثره على عروة بن مسعود مما جعل الانشقاق يدب في معسكر قريش ، وأخذت جبهة قريش تتداعى أمام قوة الحق الصامدة ، وكذلك فقد انهارت حجة قريش في جمعها للعرب ضد النبي ﷺ .

لقد نجح النبي ﷺ بحكمته وذكائه نجاحاً عظيماً باستخدام الأساليب الإعلامية ، والدبلوماسية المتعددة للحصول على الغاية المنشودة ، وهي تفتيت جبهة قريش الداخلية ، وإيقاع الهزيمة في نفوسهم ، وإبعاد حلفائهم عنهم ، وأن هذه النتيجة لتعد بحق نصراً ساحقاً حققه رسول الله ﷺ على الجبهات السياسية ، والإعلامية ، والعسكرية (١) .

رأى النبي ﷺ أن من الضرورة إرسال مبعوث خاص من جانبه إلى قريش ، يبلغهم فيها نواياه سلمية بعدم الرغبة في القتال ، واحترام المقدسات ، ومن ثم أداء مناسك العمرة ، والعودة إلى المدينة . فوقع الاختيار على أن يكون مبعوث الرسول ﷺ إلى قريش (خراش بن أمية الخزاعي) ، وحمله على جمل يقال له (الثعلب) ، فلما دخل مكة عقرت به قريش ، وأرادوا

(١) سليم حجازي ، منهج الاعلام الاسلامي في صلح الحديبية ، دار المنار ، ط ١ ،

١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م ، ص ١٤٥ .

قتل خراش ، فمنعهم الأحابيش ، فعاد خراش بن أمية إلى الرسول ﷺ وأخبره بما صنعت قريش ، فأراد رسول الله ﷺ أن يرسل سفيراً آخر بتبليغ قريش رسالة رسول الله ﷺ ، ووقع اختيار الرسول ﷺ في بداية الأمر على عمر بن الخطاب رضي عنه ^(١) .

فاعتذر لرسول الله ﷺ عن عدم الذهاب إليهم ، وأشار على رسول الله ﷺ أن يبعث عثمان بن عفان رضي عنه مكانه ^(٢) .

وعرض عمر رضي عنه رأيه هذا معزراً بالحجة الواضحة ، وهي ضرورة توافر الحماية لمن يخالط هؤلاء الأعداء . وحيث أن هذا الأمر لم يكن متحققاً بالنسبة لعمر رضي عنه ، فقد أشار على النبي ﷺ بعثمان رضي عنه ؛ لأن له قبيلة تحميه من أذى المشركين حتى يبلغ رسالة رسول الله ﷺ ^(٣) .

وقال لرسول الله : إني أخاف قريشاً على نفسي ، وقد عرفت عداوتي لها ، وليس بها من بني عدي من يمنعني ، وإني إن أحببت يا رسول الله دخلت عليهم ^(٤) .

(١) أبو فارس ، غزوة المدينة ، ص ٨٣ .

(٢) الواقدي ، المغازي ، ٦٠٠/٢ .

(٣) المصدر نفسه ، ٦٠٠/٢ .

(٤) ينظر : المصدر نفسه ، ٦٠٠/٢ .

فلم يقل رسول الله ﷺ شيئاً ، وقال عمر : ولكن أدلك يا رسول الله على رجل أعز بمكة مني ، وأكثر عشيرة وامنع ، عثمان بن عفان ، فدعا رسول الله ﷺ عثمان رضي الله عنه ، فقال : ((اذهب إلى قريش فخببرهم إنا لم نأت لقتال أحد وإنما جئنا زواراً لهذا البيت ، معظمين لحرمة ، معنا الهدي ، ننحر و ننصرف)) ، فخرج عثمان بن عفان رضي الله عنه حتى أتى بلدح^(١) فوجد قريشاً هنالك ، فقالوا : أين تريد ؟ قال بعثني رسول الله إليكم ، يدعوكم إلى الله وإلى الإسلام ، تدخلون في الدين كافة فإن الله مظهر دينه ومعز نبيه ، وأخرى تكفون ، ويولي هذا منه غيركم ، فإن ظفروا بمحمد فذلك ما أردتم ، وإن ظفر محمد ﷺ كنتم بالخيار إن تدخلوا فيما دخل فيه الناس ، أو تقاتلوا وانتم وافرون جامون^(٢) . فجعل عثمان رضي الله عنه يكلمهم ويأتيهم بما لا يريدون ، ويقولون : قد سمعنا ما تقول ، ولا كان هذا أبداً ، ولا دخلها علينا عنوة ، فارجع إلى صاحبك فأخبره أنه لا يصل إلينا . فقام إليه أبان بن سعد بن العاص ، فرحب به وأجاره . وقال : لا تقصر عن حاجتك . وبعد الضيافة التي قدمها له سعد بن العاص ، دخل عثمان مكة ، فأتى أشرفهم رجلاً رجلاً ، أبا سفيان بن حرب ، وصفوان بن أمية وغيرهما ، منهم من لقي ببلدح ، ومنهم

(١) مكان قريب من مكة . ينظر : ابن حجر ، فتح الباري ١١/١٤٣ .

(٢) البخاري ، كتاب (الشروط) ، باب (المصالحة مع أهل الحرب وكتابة

الشروط) ، ٣/١٣٥ - ١٣٨ .

من لقي بمكة ، فجعلوا يردون عليه : إن محمداً ﷺ لا يدخلها علينا أبداً ،
وعرض المشركون على عثمان رضي الله عنه أن يطوف بالبيت ، فأبى ^(١) .

وقام عثمان رضي الله عنه بتبليغ رسالة رسول الله ﷺ إلى المستضعفين بمكة ،
ويبشرهم بقرب الفرج والمخرج ^(٢) .

وأخذ منهم رسالة شفوية إلى رسول الله ﷺ جاء فيها : أقرئ على
رسول الله ﷺ منا السلام ، إن الذي أنزله بالحديبية لقادر على أن يدخله
بطن مكة ^(٣) .

وبعد هذه المبادرة التي قدمتها القيادة الإسلامية من أجل الصلح ،
وبيان حقيقة قريش في هذا الأثناء أختلط الفريقان ، وكاد أن يقع اقتتال
بينهما ^(٤) .

وقد ذكر القرآن الكريم هذا الحال بقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ
أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ
وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ ^(٥) .

(١) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ٣/٣٤٤ ، ابن قيم الجوزية ، زاد المعاد ، ٣/٩٠ .

(٢) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ٣/٣٤٤ .

(٣) الجوزية ، زاد المعاد ، ٣/٢٩٠ .

(٤) أبو فارس ، غزوة الحديبية ، ص ٨٥ .

(٥) سورة الفتح ، آية /٢٤ .

قال ابن كثير : (هذا أمتنان من الله تعالى على عباده المؤمنين حيث كف أيدي المشركين عنهم ، فلم يصل إليهم منهم سوء ، وكف أيدي المؤمنين عن المشركين ، فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام ، بل صان كلا من الفريقين ، وأوجد بينهم صلحاً فيه خيرة للمؤمنين ، وعافية في الدنيا والآخرة) (١) .

وهنا بعد هذه السكينة التي أنزلها الله ﷻ على المؤمنين أنتشر خبر قتل عثمان بن عفان رضي الله عنه دعا رسول الله ﷺ أصحابه إلى مبايعته على قتال المشركين ومناجزتهم ، فاستجاب الصحابة رضي الله عنهم ، وبايعوه على الموت . وفي رواية : على الصبر . وفي رواية أخرى : على عدم الفرار . ولا تعارض في ذلك ؛ لأن المبايعة على الموت تعني الصبر وعدم الفرار (٢) .

وكان أول من بايعه على ذلك أبو سنان عبد الله بن وهب الأسدي ، فخرج الناس بعده يبايعون على بيعته (٣) .

(وبايعه سلمة بن الأكوع ثلاث مرات في أول الناس ، وأوسطهم) (٤) .

(١) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ٤/١٩٢ .

(٢) د. مهدي رزق الله ، السيرة النبوية ، ص ٤٨٦ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ٤٨٧ .

(٤) المرجع نفسه ، ص ٤٨٦ - ٤٨٨ .

(وقال النبي ﷺ بيده اليمنى ((هذه يد عثمان)) ف ضرب على يده)^(١) ، وكان عدد الصحابة الذين أخذ منهم الرسول ﷺ المبايعة تحت الشجرة ألف وأربعمائة صحابي^(٢) .

وقد تحدث القرآن عن أهل بيعة الرضوان ، وورد فضلهم في نصوص كثيرة من الآيات القرآنية الكريمة ، قال تعالى : ﴿ إِنِّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴾^(٣) .

وهذه الآية فيها ثناء ومدح عظيم لأهل بيعة الرضوان ، فقد جعل الله مبايعتهم لرسوله ﷺ مبايعة له ، وفي هذا غاية التشريف والتكريم لهم ﷺ .

ونحن نمدح النظر في هذا الجيل الفريد مقارنة مع أهل بدر نلاحظ ارتفاع عدد المهاجرين إلى النصف من الجيش . وهذا الارتفاع الهائل في عدد المهاجرين من ثلاثة وثمانين في بدر إلى ثمان مائة ، كان معظمه من القبائل العربية المجاورة وهي قبائل صغيرة ، إذا قيست بالقبائل الكبرى . لكن

(١) البخاري ، الصحيح ، كتاب (المناقب) ، باب (مناقب عثمان بن عفان أبو عمرو القرشي) ، رقم الحديث (٣٤٢٢) ، ٢٠٤/٤ .

(٢) د . حسين الشيخ ، عقيدة أهل السنة في الصحابة ، ٢٠٥/١ .

(٣) سورة الفتح ، آية / ١٠ .

شبابها كانوا يغدون إلى المدينة ، ينضوون تحت لواء رسول الله ﷺ ، ويتلقون التربية اليومية في المسجد ، والتربية العلمية في المعارك والغزوات . فيتدربون على الجندية الخالصة ، ويفقهون دينهم مباشرة من رسول رب العالمين (عليه الصلاة والسلام) ، وينشئون في ظلال القدوة العليا لهم من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، ويتنافسون في الطاعة والامتثال لأمر الله ورسوله . فنالت قبائلهم بذلك شرفاً ربانياً على القبائل الكبرى التي تخاذلت في الانضمام للإسلام ، فقبيلة أسلم وغفار كانت على رأس هذه القبائل . ويعود الفضل بعد الله في ذلك للرعييل الأول منهم ، واللبنات الأول التي أنظمت إلى الدعوة إلى أبي ذر الغفاري رضي الله عنه الذي كان من التابعين في إسلامه بمكة ، ومضى داعياً في قومه حتى جاءه سبعون بيتاً من غفار يؤم بهم المدينة بعد أحد . وإلى بريدة بن الحصيبي الأسلمي ، الذي تلقى رسول الله ﷺ قبل دخوله المدينة ، فأسلم ومعه سبعون من قومه كذلك ^(١) .

وإننا نمنع أيضاً التربية العالية لدى عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وذلك من خلال مجيئه إلى قريش ، فطلبت منه أن يطوف بالبيت ؛ لأن مكانته كانت كبيرة بينهم ، ولكن عثمان رضي الله عنه رفض ذلك ، ولأنه لم يدخل مكة لغرض شخصي ، وإنما كان مبعوثاً من قبل النبي ﷺ لتبليغ رسالة ، وبيان حقيقة ، أو سبب المجيء إلى مكة .

(١) الغضبان ، منير ، التربية القيادية ، ٢١٤/٤ .

ونلاحظ أيضا أن سيدنا عثمان رضي الله عنه كيف استغل الوقت ، وبدأ يرفع معنويات المسلمين المستضعفين في مكة ، وأوصاهم بالصبر وعدم التسرع في اتخاذ أي قرار يمكن أن يؤدي بحياتهم . وهذا كله إن دل على شيء ، فإنه يدل على الطاعة والاحترام لأمر القائد ، وهذا نوع من عوامل الانتصار .

لقد كانت بيعة الرضوان بمثابة اختبار للمسلمين الذين حضروا إلى أداء العمرة بعد تلك الشدة والظروف الصعبة التي مر بها المسلمون ، فإنهم يصبرون على كل ما يروونه من أذى المشركين ، وذلك من أجل الدخول إلى مكة موطنهم الأصلي .

وأما القبائل الأخرى من مزينة ، وجهينة ، وأشجع ، وخزاعة ، فقد بدأ شبابها يفدون إلى المدينة ، لكن بأعداد ضئيلة ، وبقي كيان القبيلة على الشرك ، وبقي أعرابي بعيدا عن محض التربية العظيم داخل المدينة ، فلم يتح له هذا الفضل ، والاعتراف من رحيق النبوة ، ولهذا كانت الآيات التي نزلت في المخلفين من الأعراب كالصواعق على رؤوسهم ، لتخلفهم عن الانضمام إلى الجيش الإسلامي الماضي إلى الحديبية ^(١) .

(١) الغضبان ، منير ، التربية القيادية ، ٢١٦/٤ .

صلح الحديبية

لما بلغ قريشاً أمر بيعة الرضوان ، وأدرك زعمائها تصميم الرسول ﷺ على القتال ، أوفدوا سهيل بن عمرو في نفر من رجالهم لمفاوضة النبي ﷺ ، ولما رأى رسول الله ﷺ سهيلاً قال : ﴿ لقد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل ﴾^(١).

كان سهيل بن عمرو أحد زعماء قريش البارزين الذين كانوا يعرفون بالحنكة السياسية والدهاء ، فهو خطيب ماهر ، ذو عقل راجح ، ورزانة وأصالة في الرأي .

شرع الفريقان المتفاوضان في بحث بنود الصلح ، وذلك بعد رجوع عثمان بن عفان رضي الله عنه ، واستعرض الفريقان النقاط التي يجب أن تتضمنها معاهدة الصلح ، واستعرضا في مباحثهما مختلف القضايا التي كانت تشكل مثار الخلاف بينهما . هذا ، وقد اتفق الفريقان من حيث المبدأ على بعض النقاط ، واختلفا على البعض الآخر ، وقد طال البحث والجدل ، والأخذ والرد حول هذه البنود . وبعد المراجعات والمفاوضات تقاربت وجهات النظر بين الفريقين . وعند الشروع في وضع الصيغة النهائية للمعاهدة وكتابتها لتكون نافذة المفعول ، حدث خلاف بين الوفدين على بعض النقاط كاد أن يعثر سير هذه الاتفاقية .

(١) البخاري ، كتاب الشروط ، باب الشروط في الجهاد ، ٣/١٣٦ - ١٤٠ .

فعندما شرع النبي ﷺ في إملاء صيغة المعاهدة المتفق عليها ، أمر الكاتب وهو علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، بأن يبدأ المعاهدة بكلمة (بسم الله الرحمن الرحيم) . وهنا اعترض رئيس الوفد القرشي سهيل بن عمرو قائلاً : لا اعرف الرحمن ، اكتب (باسمك اللهم) ، فضج الصحابة رضي الله عنهم على هذا الاعتراض ، قائلين : وهو الرحمن ، ولا نكتب إلا الرحمن ، ولكن النبي ﷺ تماشياً مع سياسة الحكمة والمرونة والحلم ، قال للكاتب ، (اكتب باسمك اللهم)^(١) .

واستمر في إملاء صيغة المعاهدة هذه ، فأمر الكاتب أن يكتب (هذا ما اصطلح عليه رسول الله) ، وقبل أن يكمل الجملة اعترض رئيس الوفد القرشي على كلمة رسول الله قائلاً : لو أعلم انك رسول الله ما خالفتك ، ولا تبعتك ، أفتربغ عن أسمك واسم أبيك محمد بن عبد الله ، اكتب اسمك واسم أبيك^(٢) . وهنا اعترض المسلمون على ذلك ، ولكن رسول الله بحكمته وتسامحه ، وبعد نظره ، حسم الخلاف ، وأمر الكاتب بأن يشطب كلمة رسول الله من الوثيقة ويكتب محمد بن عبد الله ، فأبى علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن يمحو هذا اللفظ ، فمناهه ﷺ بيده ، ثم تمت كتابة الصحيفة ، والتزم الصحابة الصمت والهدوء^(٣) .

(١) الواقدي ، المغازي ، ٦١٠/٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ١٦٠ /٢ .

(٣) المبار كفوري ، الرحيق المختوم ، ص ٢٩٩ .

إن النبي ﷺ وافق المشركين على ترك كتابة (بسم الله الرحمن الرحيم) ، وكتابة (باسمك اللهم) بدلاً عنها . وكذا وافقهم في كتابة (محمد بن عبد الله) ، وترك كتابة (رسول الله) ﷺ . وكذا وافقهم في رد من جاء منهم إلى المسلمين دون من ذهب منهم إليهم ، وإنما وافقهم في هذه الأمور للمصلحة المهمة الحاصلة بالصلح ، مع أنه لا مفرّة في هذه الأمور . أما البسمة ، وباسمك اللهم ، فمعناها واحد . وكذا قوله : (محمد بن عبد الله) هو أيضا رسول الله ، وليس في ترك وصف الله ﷺ في هذا الموضع بالرحمن الرحيم ما ينفي ذلك ، ولا في ترك وصف النبي ﷺ بالرسالة ما ينفيها ، ولا مفسدة فيما طلبوه ، وإنما كانت المفسدة تكون لو طلبوا أن يكتب ما لا يحل من تعظيم آلهتهم ونحو ذلك . وأما شرط رد من جاء منهم وعدم رد من ذهب إليهم ، فقد بين النبي ﷺ تعليل ذلك والحكمة فيه في هذا الحديث ، بقوله : ﴿ من ذهب منا إليهم فأبعده الله ، ومن جاءنا منهم سيجعل الله له مخرجاً ﴾ (١) .

(١) البخاري ، كتاب (الجهاد) ، باب (خبر الحديبية) ، ٤٨/٧ - ٤٩ ، ومسلم

، كتاب (الجهاد) ، باب (صلح الحديبية) ، ص ١٨٥٦ - ١٨٥٨

فمعلوم أن المسلم ما دام مسلماً لا يفر عن الله ورسوله ، وعن مدينة الإسلام ، ولا يفر إلا إذا ارتد عن الإسلام ظاهراً أو باطناً ، فإذا ارتد فلا حاجة للمسلمين ، وانفصاله عن المجتمع المسلم خير من بقاءه .

وتم عقد هذه الاتفاقية أو المعاهدة ، وكانت صياغتها من عشرة بنود جاءت على الشكل التالي : ((باسمك اللهم : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو ، واصطالحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ، ويكف بعضهم عن بعض على أنه من قدم مكة من أصحاب محمد حاجاً ، أو معتمراً ، أو يبتغي من فضل الله فهو آمن على دمه وماله ، ومن قدم المدينة من قريش مجتازاً إلى مصر ، أو إلى الشام يبتغي من فضل الله فهو آمن دمه وماله . على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه ، وأن بيننا عيبة مكفوفة ، وأنه لا أسلال ولا أغلال . وأنه من أحب أن يدخل عقد محمد وعهده دخله . ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه . فتواثبت خزاعة ، فقالوا : نحن في عقد محمد وعهده ، وتواثبت بنو بكر ، فقالوا : نحن في عقد قريش وعهدهم ، وأن ترجع عنا عامك هذا ، فلا تدخل علينا مكة ، وأنه إذا كان عام قابل ، خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثاً ، معك سلاح الراكب والسيوف في القرب ولا تدخلها غيرها . أشهد على الصلح رجال من المسلمين ، ورجال من المشركين . أبو بكر الصديق ،

وعمر بن الخطاب ، عبد الرحمن بن عوف ، وعبد الله بن سهيل بن عمرو ، وسعد بن أبي وقاص ، ومحمد بن مسلمة ، وعلي بن أبي طالب كاتب المعاهدة ﷺ^(١) . ومن المشركين : مكرز بن حفص ، وسهيل بن عمرو^(٢) .

تعد هذه المعاهدة أساساً للمعاهدات الإسلامية ، ونموذجاً فريداً للمعاهدة الدولية ، بما سبقها من مفاوضات وما حوته من شروط ، وما تمثل بها من خلق النبي ﷺ في النزول عند الطرف الآخر ، وفي كيفية الصياغة والالتزام . هذه المعاهدة سبقها مفاوضات من قبل المشركين والمسلمين ، وفشل بعض الممثلين في الوصول إلى اتفاق ، ودارت مشاورات شتى من الجانبين قبل الوصول إليه ، حتى توصل الفريقان إلى اتفاق عن طريق ممثل المشركين (سهيل بن عمرو) ، ورسول الله ﷺ على ما من المسلمين .

عقدت هذه المعاهدة في الوقت الذي كان فيه المسلمون بمركز القوة لا الضعف . وكان باستطاعتهم أن لا يقبلوا شروطها التي اغتاز منها كثير من الصحابة ﷺ ، ولكن ما كان لهم أن يخرجوا عن طوع رسول الله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى ، وقد تمادى رسول قريش على رسول الله ﷺ في مفاوضته . وكان فرداً بين جيش المسلمين ، فلم ينله أذى ولم يتعد عليه المسلمون

(١) البخاري ، كتاب (الجهاد) ، باب (خبر الحديبية) ، ٤٨/٧ - ٥٠ .

(٢) د. محمد الديك ، المعاهدات في الشريعة الإسلامية ، ص ٢٧٠ - ٢٧١ ، زيدان ،

د. عبد الكريم ، المستفاد من القصص القرآني ، ٣٤٢/٢ .

بالقتل (لأن السفراء لا تقتل) ، ولكن رسول الله ﷺ يرضيه ويسعه بالحلم واللين ، حتى يصل إلى الغاية التي ينشدها الإسلام ، وهي حقن الدماء ، وإحلال السلام ، ورجاء أن يعقل القوم الحق ، وأن يرجعوا المواقف ، ويسمعوا كلام الله ﷻ^(١) .

وتدخل الدعوة الإسلامية طوراً جديداً بصور أخرى في الانتشار والاتصال بالناس ، عندما نتأمل نصوص المعاهدة التي تمت في الحديبية ، فإننا نأخذ منها الآتي :-

١ - إن ديباجة المعاهدات الإسلامية كانت تبدأ باسم الله ، أو باسمك اللهم ، والقانون الدولي في صياغة المعاهدات . يقول : (تبدأ كتابة المعاهدات بديباجة يتفق عليها طرفا التعاقد) .

والذي يجب أن نلاحظه أن المعاهدات في الإسلام تستند إلى الله ﷻ الذي تبدأ باسمه سبحانه ، حيث هو الرقيب والحسيب على ما في النوايا والقلوب . واسم الله معظم في كل قلب يؤمن به ، حتى أولئك الذين فسدت عقائدهم ، فإنهم لا ينكرون الله ، ولكنهم أفسدوا تصورهم لذات الله ، ولذلك كانت البداية (باسمك اللهم)^(٢) .

(١) د. محمد الديك ، المعاهدات في الشريعة الإسلامية ، ص ٢٦٨ - ٢٦٩ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٢٧٢ .

٢- ذكر في المعاهدة طرفا التعاقد بعد (الديباجة) كما يسميها القانون الدولي ، وهذا ما عليه القانون الدولي العام من أنه يذكر بعد الديباجة أسماء الممثلين ، أو الدول الأطراف في عقد المعاهدة .

٣- الدخول في صلح المعاهدة وشروطها ، حيث ذكر رسول الله ﷺ في هذه المعاهدة الشروط المتفق عليها بين الطرفين ، وهذا ما عليه القانون الدولي العام .

٤- في معاهدة صلح الحديبية جواز ابتداء الامام (رئيس الدولة الإسلامية) طلب صلح العدو ، إذا رأى المصلحة للمسلمين فيه ، ولا يتوقف ذلك على أن يكون ابتداء الطلب منهم ^(١) .

٥ - إن صلح الحديبية سماه الله فتحاً ، لأن الفتح في اللغة هو فتح المغلق ، والصلح الذي حصل مع المشركين بالحديبية كان مسدوداً مغلقاً ففتحه الله . والصلح كذلك يفتح القلوب المغلقة نحو الطرف الآخر . لقد كانت الصورة الظاهرة في شروط الحديبية فيها ضيم للمسلمين ، وهي في باطنها عز وفتح ونصر ، حيث كان رسول الله ﷺ ينظر إلى ما وراء المعاهدة من الفتح العظيم من وراء ستر رقيق ، وكان يعطي المشركين كل ما سألوه من الشروط التي لم

(١) ابن قيم الجوزية ، زاد المعاد ، ٣/٣٠٦ .

يحتملها أكثر أصحابه ورؤوسهم ، وهو ﷺ يعلم ما في ضمن هذا المكروه من محبوب^(١) .

٦- إن المعاهدة قد تكون مفتوحة لمن يحب أن يدخل فيها من الأطراف أو الدول الأخرى . وهذا ما عليه القانون الدولي ، حيث أجاز أن تكون المعاهدة مفتوحة لمن يحب الدخول فيها من الأطراف الأخرى ، فقد دخلت خزاعة وكنانة في الصلح ، الذي أنهى حالة الحرب القائمة بين هاتين القبيلتين ، والتي امتدت سنوات عديدة^(٢) .

٧- إن المعاهدة تعد نافذة المفعول بمجرد الاتفاق عليها وعلى شروطها ، حتى وإن لم تكتب ولم يوقع عليها الطرفان ؛ وذلك لما حدث لأبي جندل بن سهيل بن عمرو الذي رده الرسول ﷺ بموجب قبوله ﷺ بالبند الخامس من المعاهدة ، والذي يقول : (على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم) فمنذ أعلن رسول الله ﷺ التزامه بهذه الشروط أجاره ، ولم تكن المعاهدة قد كتبت بعد ، ولم يوقع عليها الطرفان .

وفي هذه المعاهدة نأخذ أبلغ درس في صلح الحديبية ، وهو درس الوفاء بالعهد ، والتقيد بما يفرضه شرف الكلمة من الوفاء بالالتزامات التي يقطعها المسلم على نفسه . وقد ضرب رسول الله ﷺ بنفسه أعلى مثل في التاريخ

(١) د. محمد الديك ، المعاهدات في الشريعة ، ص ٢٧٢ .

(٢) باشميل ، صلح الحديبية ، ص ٢٨٠ .

القديم والحديث لاحترام كلمة لم تكتب ، واحترام كلمة تكتب كذلك ، وفي الجد في عهوده وحبه للصراحة والواقعية ، وبغضه التحايل و الالتواء والكيد . وذلك في ما كان يفاوض (سهيل بن عمرو) في الحديبية . وخاطب أبو جندل المسلمين : أورد إلى المشركين يفتنونني في ديني ؟ فلم يغنه عنه ذلك شيئاً ، ورده رسول الله ﷺ ، وقال له : (إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً ، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهداً ، وإنا لا نغدر بهم) . غير أن النبي ﷺ إزاء هذه المأساة التي حالت بنود معاهدة الصلح بينه وبين أن يجد مخرجاً منها لأبي جندل المسلم ، إلا أن يطمئنه ويبشره بالفرج القريب له ، ولن على شاكلته من المسلمين المستضعفين في مكة ، وقال له ويواسيه : (يا أبا جندل اصبر واحتسب ، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً^(١) .

وقد صبر أبو جندل واحتسب لمصابه في سبيل دينه وعقيدته وتحقق فيه قوله ﷺ : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ... ﴾^(٢) . (فلم تمر أقل من سنة حتى تمكن مع أخوته المسلمين المستضعفين بمكة من الإفلات من سجون مكة ، وأصبحوا قوة صار كفار مكة

(١) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ٣/٣٤٧ .

(٢) سورة الطلاق ، آية / ٢ - ٣ .

يخشونها ، بعد أن انضموا إلى أبي بصير ، وقطعوا الطريق على قريش وقوافلها الآتية من الشام ^(١) .

٨ - إن المعاهدة لا بد لها من توقيع الأطراف والأشهاد عليها ، وتوقيع رسول الله ﷺ ، وإشهاد أصحابه ﷺ إنما هو بمثابة التوقيع على المعاهدة والتصديق عليها ، كما هو في القانون الدولي العام .

٩ - إن المعاهدة تكتب من نسختين ، ويأخذ كل طرف نسخة طبق الأصل من المعاهدة حيث أنه بعد أن تمت إجراءات الصلح النهائية في الحديبية ، أخذ كل من الفريقين نسخة من وثيقة الصلح التاريخية ، وانصرف الوفد القريشي راجعاً إلى مكة ^(٢) .

- المعارضة النزيهة :

بعد الاتفاق على معاهدة الصلح ، وقبل تسجيل وثائقها ظهرت بين المسلمين معارضة شديدة وقوية لهذه الاتفاقية ، وخاصة في البندين اللذين يلتزم النبي ﷺ بموجبها برد من جاءه من المسلمين لاجئاً ، ولا تلتزم قريش برد من جاءها من المسلمين مرتداً . والبند الذي يقضي بأن يعود المسلمون من

(١) باشميل ، صلح الحديبية ، ص ٣٢٢ - ٣٢٥ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٩٩٩ ، ٢٠٠ .

الحديبية إلى المدينة دون أن يدخلوا مكة ذلك العام ، وقد كان أشد الناس معارضة لهذه الاتفاقية وانتقاداً لها عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقد ذكر المؤرخون أن عمر رضي الله عنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم معلناً معارضته لهذه الاتفاقية ، وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أو لست برسول الله ؟ قال : ((بلى)) ، قال : أو لسنا بالمسلمين ؟ قال : ((بلى)) قال : أو ليسوا بالمشركين ؟ قال : ((بلى)) ، قال : (فعلام نعطي الدنية في ديننا ؟ قال : ((أنا رسول الله ولست أعصيه)) ^(١) . وفي رواية : ((أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعني)) ، قلت : أو ليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنتطوف به ؟ قال : (بلى) فأخبرتكم أنا نأتيه العام ؟ قلت : لا ، قال : ((فإنك آتية ومطوف به)) ^(٢) .

قال عمر رضي الله عنه : فأتيت أبا بكر فقلت له : يا أبا بكر : أليس برسول الله ؟ صلى الله عليه وسلم ، قال : بلى ، قال : أو لسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى ، قال : أو ليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى ، قال : فعلام نعطي الدنية في ديننا ؟ فقال أبو بكر رضي الله عنه ناصحاً الفاروق رضي الله عنه بأن يترك الاحتجاج والمعارضة ألزم غرضه

(١) الشامي ، من معين السيرة ، ص ٣٣٣ .

(٢) الطبري ، التاريخ ، ٦٤٣/٢ .

فأبى ، أشهد أنه رسول الله ﷺ ، وأن الحق ما أمر به ، ولن يخالف أمر الله ، ولن يضيعه الله^(١) .

وبعد حادثة أبي جندل المؤلمة والمؤثرة عاد الصحابة ﷺ إلى تجديد المعارضة للصلح ، وذهبت مجموعة منهم إلى رسول الله ﷺ - بينهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه - لمراجعته ، وإعلان معارضتهم مجدداً للصلح ، إلا أن النبي ﷺ بما أعطاه الله من صبر وحكمة وحلم وقوة حجة استطاع أن يقنع المعارضين بوجاهة الصلح ، وأنه في صالح المسلمين وأنه نصر لهم ، وأن الله سيجعل للمستضعفين من أمثال أبي جندل فرجاً ومخرجاً^(٢) .

وهذا يتبين أن الرسول ﷺ وضع قاعدة احترام المعارضة النزيهة حيث قدر ذلك بقوله وفعله . وهو - والله أعلم - إنما أراد بهذا الفعل إرشاد القادة من بعده إلى احترام المعارضة النزيهة التي تصدر من أتباعهم ، وذلك بتشجيع الاتباع على إبداء الآراء السليمة التي تخدم المصلحة العامة^(٣) .

وهذا الهدي النبوي الكريم بين أن حرية الرأي مكفولة في المجتمع الإسلامي ، وأن للفرد في المجتمع المسلم الحرية في التعبير عن رأيه ، ولو كان هذا الرأي نقداً لموقف حاكم من الحكام أو خليفة من الخلفاء . فمن حق الفرد

(١) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ٣/٣٤٦ .

(٢) باشاميل ، صلح الحديبية ، ص ٢٧٠ .

(٣) الصلابي ، السيرة النبوية ، ص ٦٧٩ .

المسلم أن يبين وجهة نظره في جو من الأمن والأمان دون إرهاب أو تسلط
يخفق حرية الكلمة والفكر^(١) .

وبعد تفرغ الرسول ﷺ من قضية الحديبية ، أمر الرسول ﷺ أصحابه
بأن ينحروا ، ثم يحلقوا ، وذلك بقوله ﷺ : ﴿ قوموا فانحروا ثم حلقوا ﴾^(٢)
حتى قال ذلك ثلاث مرات ، فلما لم يقيم منهم أحد ، قام النبي ﷺ ، ولم
يكلم أحد من أصحابه حتى نحر بدنه وحلق ، كما أشارت عليه زوجته أم
سلمة (رضي الله عنها) ، فلما رأوا ذلك وبعد أن يأسوا من توقع نسخ الحكم
، قاموا فنحروا ، وجعل بعضهم يحلق بعض^(٣) .

وبعد ذلك أمر الرسول ﷺ بالعودة إلى المدينة حتى إذا كان بين مكة
والمدينة نزلت سورة الفتح . قال تعالى : ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ
الْأَعْرَابِ شَغَلْنَا أَمْوَالَنَا وَأَهْلُونَا . . . ﴾^(٤) .

وقد عبر رسول الله ﷺ عن عظيم فرحته بنزولها ، وقال : ﴿ أنزلت
عليّ الليلة سورة لهي أحب إلي مما طلعت عليه الشمس^(١) . ثم قرأ : ﴿ إنا

(١) أبو فارس ، غزوة الحديبية ، ص ١٣٤ ، وما بعدها .

(٢) البخاري ، الصحيح ، كتاب (الجهاد) ١٨٢/٣ .

(٣) أحمد ، د . لبيد إبراهيم ، عصر النبوة ، ص ١٨٤ .

(٤) سورة الفتح ، الآية / ١١ .

فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿٢﴾ . وقد أسرع الناس إلى رسول الله ﷺ وهو واقف على راحلته بكراع الغميم ، فقرأ عليهم : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ ، فقال رجل : يا رسول الله ، أفتح هو ؟ قال : نعم والذي نفس محمد بيده إنه لفتح ﴿٣﴾ .

فانقلبت كآبة المسلمين وحرزهم إلى فرح غامر ، وأدركوا أنهم لا يمكن أن يحيطوا بالأسباب والنتائج ، وأن التسليم لأمر الله ورسوله فيه كل الخير لهم ولدعوة الإسلام ﴿٤﴾ .

إننا بالتأمل في أسباب النزول نجد أن سورة الفتح نزلت بعد انتهاء النبي ﷺ من الصلح وهو عائد إلى المدينة النبوية . وبعد أن خاض النبي ﷺ والمؤمنون تلك التجارب العظيمة من الأمل في العمرة إلى مواجهة المشركين إلى بيعة الرضوان إلى الصلح ، الذي لم يكن بعض الصحابة ﷺ راضين عنه ، ودارت في أنفسهم أشياء كثيرة حول هذه الأحداث الجسام ﴿٥﴾ .

(١) البوطي ، فقه السيرة ، ص ٢٢٥ .

(٢) سورة الفتح الآية ١/ .

(٣) البخاري ، كتاب المغازي ، باب غزوة الحديبية ، ٨٠/٥ .

(٤) العمري ، السيرة النبوية ، ٤٤٩/٢ .

(٥) المرجع نفسه ، ٤٤٩/٢-٤٥٠ .

المطلب الثاني

﴿ نتائج المدينة ﴾

لقد أيقن الصحابة الكرام أن الدعوة قد دخلت في طور جديد وفتح أكيد ، وآفاق أوسع ، وامتداد أرحب . وأن طبيعة هذا الدين ينمو وينتشر في أجواء السلم والأمن ، أكثر منه وقت الحرب . ولمسوا مع الأيام نتائج صلح المدينة التي كان من أهمها :

١- اعترفت قريش في هذه المعركة بكيان الدولة المسلمة ، فالمعاهدة دائماً لا تكون إلا بين ندين . وكان لهذا الاعتراف أثره في نفوس القبائل المتأثرة بموقف قريش الجحودي ، حيث كانوا يرون أنها الإمام والقُدوة^(١) .

٢- دخلت المهابة في قلوب المشركين والمنافقين ، وتيقن الكثير منهم بغلبة الإسلام . وقد تجلت بعض مظاهر ذلك في مبادرة كثير من صناديد قريش إلى الإسلام ، مثل ذلك : خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص . كما تجلت في مسارعة الأعراب المجاورين للمدينة إلى الاعتذار عن تخلفهم .

٣- أعطت الهدنة فرصة لنشر الإسلام ويعرف الناس به ، مما أدى إلى دخول كثير من القبائل فيه . يقول الزهري : فما فتح في الإسلام فتح قبله

(١) د . محمد رواس قلعه جي : قراءة سياسية للسيرة النبوية ، دار النفائس ، ط ١ ، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م ، ص ٢٢١ - ٢٢٢ ، د . أحمد محمد ، الجانب السياسي في حياة الرسول ﷺ ، دار العلم ، الكويت ، ط ١ ، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م ، ص ١٢٠ .

كان أعظم منه ، إنما كان القتال حيث التقى الناس ، فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب وأمن الناس بعضهم بعضاً ، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة ، فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه ، ولقد دخل في تينك السنيتين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر^(١) .

وعقب عليه ابن هشام بقوله : والدليل على قول الزهري : إن رسول الله ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة ، في قول جابر بن عبد الله ، ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف^(٢) .

٤- أمن المسلمون جانب قريش فحولوا ثقلهم على اليهود ، ومن كان يناولهم من القبائل الأخرى ، فكانت غزوة خيبر بعد صلح الحديبية .

٥- مفاوضات الصلح جعلت حلفاء قريش يفقهون موقف المسلمين ويميلون إليه ، فهذا الحليس بن علقمة عندما رأى المسلمين ، رجع إلى أصحابه ، وقال : لقد رأيت البدن قد قلدت وأشعرت ، فما أرى أن يصدوا عن البيت .

(١) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ٣/٣٥١ .

(٢) المصدر نفسه ٣/٣١٢ - ٣٥٣ ، الغضبان ، المنهج الحركي السيرة النبوية ، ص

٦- مكن صلح الحديبية النبي ﷺ من تجهيز غزوة مؤتة ، فكانت خطوة جديدة لنقل الدعوة الإسلامية بأسلوب آخر خارج شبه الجزيرة العربية .

٧- ساعد صلح الحديبية النبي ﷺ على إرسال رسائل إلى ملوك الفرس والروم والقبط يدعوهم إلى الإسلام .

٨- كان صلح الحديبية سبباً لفتح مكة ، يقول ابن القيم : كانت الهدنة مقدمة بين يدي الفتح الأعظم ، الذي أعز الله به رسوله وجنده ، ودخل الناس به في دين الله أفواجاً . فكانت هذه الهدنة باباً له ومفتاحاً ومؤذناً بين يديه . وهذه عادة الله في الأمور العظام التي يقضيها قدراً وشرعاً ، أن يوطئ بين يديها بمقدمات ، وتوطئات تؤذن لها وتدل عليها ^(١) .

٩- كان شرط إعادة المسلمين الجدد إلى مكة سبباً في إحداثهم القلاقل والمتاعب لقوافل قريش بين مكة والمدينة. ولم يكن محمد ﷺ مسؤولاً عنه

(١) ابن القيم ، أبو عبد الله ، زاد المعاد في هدي خير العباد ، حققه : شعيب الأرنؤوط ، وعبد القادر مؤسسة الرسالة ، ط ١ ، ١٣٩٩هـ ، ٣/٣٠٩ ، وابن هشام ، السيرة النبوية ، ٣/٣٥٢ ، ومحمد زكريا النداف ، الأحلاف السياسية للدولة الإسلامية في القرآن الكريم والسنة النبوية ، دار القلم ، دمشق ، ط ١ ، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م ، ص ٥١٦ - ٥١٩ .

، لأنه ردهم إلى ذويهم ، حتى جاءته قريش ، ترجوا قبولهم ، متنازلة عن ذلك الشرط في صلح الحديبية ^(١) .

١٠- إن إتباع الرسول ﷺ سياسة تقوم على مبدأ التفاهم والاتفاق مع مختلف القبائل العربية ، لضمان حرية الدعوة الإسلامية من ناحية ، وضمان حسن المعاملة والجوار من ناحية أخرى . كما وتنطوي هذه السياسة على عناصر كثيرة لإستراتيجية الاقتراب غير المباشر ، ما أدى إلى الإخلال بتوازن الخصم وإضعاف قوته . وهذا ما حققه الرسول ﷺ بعد توقيع صلح الحديبية ، حيث أن هذه السياسة حرمت قريش من حرية العمل بتضييق المساحة التي تستطيع التحرك فيها للعمل ضد المسلمين ^(٢) .

١١- كما أن هذه المعاهدات حرمت قريش من القواعد الخارجية التي تسمح لها بالهجوم غير المباشر على المسلمين ، وجردها في الوقت نفسه من إمكانية التعامل مع قوى كان يمكن أن تتحالف معها ، وتشد أزرها في صراعها مع المسلمين ^(٣) .

١٢- تحريم المسلمات على المشركين ، تخصيصاً لعموم ما وقع به الصلح عامل الحديبية . علماً أنه لا يأتيك منا أحد ، وإن كان على دينك ألا

(١) أحمد ، د. لبيد إبراهيم ، عصر النبوة ، ص ١٨٥ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ١٨٥ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ١٨٦ .

ردده علينا ، فنزل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ
 الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَاثْمَحِنُوهُنَّ ۗ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ۗ فَإِنْ
 عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَأَهُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا
 هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۗ ﴾ (١)

فماذا أغنى عن قريش تشدها في بعض الشكليات في المعاهدة في حين
 فسحت المجال للمسلمين أن يتفرغوا لدعوتهم ولباقي أعدائهم . وهذه هي
 عبقرية عقد المعاهدات ، حيث شعر العدو أنه قد انتصر بإملائه شروطه في
 التعاقد ، وكأنه سيد الموقف ، على أن النتائج القريبة والبعيدة لهذا التعاقد
 تنذر بأفول نجمه وزوال أمره (٢) .

(١) سورة الأنبياء ، آية / ١٠٧ .

(٢) د. أحمد محمد ، الجانب السياسي في حياة الرسول ﷺ ، ص ١٢٠ .

المطلب الثالث

﴿المكانبة الى غسان ، وبني حنيفة﴾

١. الحارث بن أبي شمر الغساني .

من محمد رسول الله الى الحارث بن أبي الشمر .

سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله وصدق . فإني أدعوك الى أن تقوم
بالله وحده لا شريك له ، يبقى لك ملكك^(١) .

٢. هوزة بن أبي علي الحنفي .

من محمد رسول الله الى هوزة بن علي .

سلام على من اتبع الهدى ، واعلم أن ديني سيظهر الى منتهى الخف
والحافر ، فأسلم تسلم ، وأجعل لك ما تحت يديك^(٢) .

فرد رداً دون رد ، وكتب الى النبي ﷺ : ما أحسن ما تدعو اليه
وأجمله ، وأنا شاعر قومي وخطيبهم ، والعرب تهاب مكاني ، فاجعل لي
بعض الأمر أتبعك .

(١) ابن سعد ، الطبقات ، ٣٣٨/١ ، حميد الله ، برقم (٣٧) .

(٢) ابن سعد ، الطبقات ، ٣٨٦/١ ، حميد الله ، برقم (٦٨) .

دراسة الوثيقتين :

ذكرت الروايات أن النبي ﷺ أرسل خطاباً الى الحاكم الغساني الحارث بن أبي شمر ، وخطاباً آخر الى هوزة بن علي الحنفي شيخ اليمامة مع الرسائل التي أرسلها الى الحكام من غير العرب خارج الجزيرة ، وكانت لهذين الحاكمين بعض العلاقات مع الدول الكبرى على الحدود العربية ، فكان الحارث حاكم دويلة غسان التابعة لبيزنطة ، وهو يحكم باسم إمبراطوريتها ، بينما كان هوزة مع استقلاله حليفاً للملك الفارسي .

فالرسالة تدعو الحارث للإيمان بالله الواحد الذي لا إله إلا هو ، وتعهده بمملكته مقابل هذا الايمان ، ولا نجد فيها ذكراً للكلمات مثل : (الاسلام) و (أسلم) .

ومن الواضح أن الغسانيين من العرب ، ولهم مكانتهم السامية في نفوس القبائل العربية الأخرى ، واتصالهم بهم يجعلهم مكان اهتمام من الرسول ﷺ وبقية العرب . وعندما نتابع تأثير الغسانيين في بذر بذور الشقاق في صفوف الدعوة الاسلامية نجد ذلك جلياً يوم أن تسلم كعب بن مالك أحد المسلمين الثلاث الذين تخلفوا عن غزوة تبوك في السنة التاسعة للهجرة رسالة من ملك غسان نصها^(١) :

(١) د. عون الشريف ، نشأة الدولة الاسلامية ، ص ١١٤ .

((وأما بعد : فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة ، فالحق بنا نواسك))^(١).

ولا يُستغرب إذا قلنا ما قاله ابن سعد في (طبقاته) حيث ذكر : وقد جاءه ثلاثة فقط من غسان في رمضان من السنة العاشرة للهجرة ، وقبلوا الاسلام بينما ظل الباقيون على عقيدتهم . وفي زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لم يبق في ديار غسان أكثر من مسلم واحد^(٢).

أما الكتاب الموجه الى شيخ اليمامة ، فيذكر بقوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وبمستقبل دينه ، وأنه (سيظهر الى منتهى الخف والحافر) ، وردَّ هوزة الذي سبق ذكره يذكرنا بخطاب مسيلمة الكذاب الذي أرسله الى النبي صلى الله عليه وسلم في أواخر السنة العاشرة من الهجرة ، والذي يقول : ((سلام عليك ، أما بعد : فإنني قد أشركت في الأمر معك ، وإن لنا نصف الأرض ، ولقريش نصف الأرض ، ولكن قريشاً قوم يعتدون))^(٣).

فأجابه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : ﴿ السلام على من اتبع الهدى . أما بعد : فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين ﴾^(٤).

(١) ابن هشام ، السيرة ، ٣/٢ - ٤/٥٣٥ .

(٢) ابن سعد ، الطبقات ، ٧١/٢ .

(٣) ابن هشام ، السيرة ، ٣/٢ - ٤/٥٧٦ .

(٤) المصدر نفسه ، ٣-٤/٥٧٧ .

قبل أن نتطرق إلى موضوع المكاتبة إلى الملوك خارج شبه الجزيرة العربية لا بد من الوقوف على مسألة مهمة ، هي من مكملات الدعوة ، التي يجب أن يتحلى أو يتصف بها الداعي ، أو الذي يحمل الرسالة الإسلامية ، وهو ما يسمى في عصرنا الرجل الدبلوماسي ، فإنه يخضع لعدة شروط ومواصفات خاصة به ، وهي كآلاتي :-

١- الإسلام والدعوة إليه : قال تعالى : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾^(١).

وبما أن دعوة الرسول ﷺ هي في أصلها للناس كافة ، قال تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾^(٢).

فلذا تكون الدعوة واجبة على كل مسلم ومسلمة . وهذا الوجوب يتحدد بقدر حال الداعي وقدرته ، وقدره العالم تختلف عن قدرة الجاهل ، كما أن قدرة السلطان تختلف عن كليهما . قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ إِن مَكَّاهُمْ

(١) سورة يوسف / الآية ١٠٨ .

(٢) سورة الأعراف / الآية ١٥٨ .

فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿١﴾ .

قال القرطبي : المراد من أهل التمكين : الولاة ، ومنهم من أدخل فيهم العلماء (٢) .

وإذا كان المسلمون كلهم دعاة إلى الله تعالى ، فرسل النبي ﷺ إلى الملوك في زمانه هم صفوة الدعاة (٣) .

٢ - الفصاحة والوضوح : الفصاحة ، وجزالة اللفظ ، والدقة في توصيل المعاني إلى السامعين شرط أساس في الرجل الذي يتصدى للمهمة الدبلوماسية .

وقد طلب موسى ﷺ تدعيمه بموقف الفصاحة من هارون أخيه :

﴿ وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي . هَارُونُ أَخِي . اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴾ (٤) .

(١) سورة الحج / الآية ٤٠ .

(٢) القرطبي ، تفسير القرطبي ، ٧٣/٢ .

(٣) محمود شيت ، السفارات النبوية ، ص ٣٢٤ .

(٤) سورة طه ، الآيات (٢٩ - ٣٠ - ٣١) .

وقد اختار الرسول ﷺ كل سفرائه ومبعوثيه من العرب الذين تربوا في شبه الجزيرة العربية ، ومع البدو أحياناً . فقد كانوا أصحاب نقاوة لم تتكدر باختلاط الأعاجم بعد ^(١) .

٣- العلم : لا نريد هنا أن نبين منزلة العلم ؛ لأن الكلام على هذه المسألة طويل ، ولكننا مؤكداً هنا أن العلم بالشيء هو وسيلة نقل الفكرة والمبدأ . لذا عندما ننظر إلى جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه وهو يحاور النجاشي ، ثم يقرأ عليه سورة مريم (كهيعص) من دقة الاختيار النبوي ، ونصاعة خطاب العالم ، ودقة اختياره للألفاظ والعبارات ^(٢) .

٤- حسن الخلق : أخلاق السفير النبوي ، هي أخلاق الإسلام التي بينها الله ﷻ في القرآن الكريم ، وفصلها رسول الله ﷺ في سننه . وأهمها في السفير الصدق والتواضع ^(٣) .

٥- الصبر : قال تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ﴾ ^(٤) .

(١) محمود شيت ، السفارات النبوية ، ص ٢٦٧ - ٢٧٢ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٢٦٨ .

(٣) الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ٧٨/٢ - ٨٠ .

(٤) سورة الأحقاف ، الآية / ٣٥ .

والحقيقة أن الصبر هو عدة الداعية وزاده المستمر ، ولو تصفحت سيرة الرسول ﷺ ، وسيرة صحابته الإجلاء لوجدتها حافلة بالصبر على الدعوة ، وموقف الطائف شاهد على ذلك ^(١) .

٦- الشجاعة : الشجاعة ضرورية للإنسان في السلام ، كما أنها ضرورية في الجهاد . وقد تحدث التاريخ الإسلامي عن شجاعة السفراء ، والذين أرسلهم الرسول ﷺ إلى الملوك ، وأنهم كانوا لا يخافون لومة لائم .

٧- الحكمة : هي أهم صفة في الإنسان ، لأن تعليمها هي غاية بعث الرسول ﷺ ، وقد وردت كلمة (حكم) ومشتقاتها في مائتين وعشر آيات في القرآن الكريم ^(٢) ، وقد كان عمر بن العاص رضي الله عنه حكيماً في أقواله وأفعاله . قيل لعمر : (ما العقل ؟ قال : الإصابة بالظن ، ومعرفة ما يكون بما قد كان) . وقال أيضا : (وليس العاقل الذي يعرف الخير من الشر ، إنما العاقل الذي يعرف خير الشرين) ^(٣) .

٨- سعة الحيلة : يجب أن يكون السفير مدركاً لأبعاد المناورة السياسية ، متأنياً كتوماً . وسعة الحيلة التي تركز أولاً وقبل كل شيء على الذكاء ، الذي

(١) محمود شيت ، السفارات النبوية ، ص ٢٧٢ .

(٢) البنداق ، هداية الرحمن لألفاظ وآيات القرآن ، ص ١١٥ .

(٣) الأندلسي ، أحمد بن محمد بن عبد ربه ، العقد الفريد ، دار إحياء التراث

العربي - بيروت - لبنان ، الطبعة الثالثة ، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م ، ٢/٢٤١ .

يعد من أهم سمات السفير . ويصف العرب الرجل الفطن بالحوول القلب ، بمعنى القادر على تقليب الأمور على أوجهها المختلفة . واحتيال الحيل لإصابة الهدف ، وإدراك النيات الخفية التي بينها المرسل إليه . ويمكن أن نعبر عن سعة الحيلة ، بأهم مقوماتها ، وهي الذكاء والدهاء ، وتوقع الأحداث والحساب لكل ما يمكن أن يحدث ، أو يتوقع حدوثه (١) .

٩- المظهر : تميز سفراء النبي ﷺ بالمظهر الحسن مع نقاء المخبر . وقد حرص النبي ﷺ على اختيار سفرائه من بين أصحابه الذين تتوافر فيهم صفات شكلية جميلة إلى جانب سماتهم العقلية والنفسية سالفة الذكر (٢) .

إن من سمات السفير ، أن يكون حسن الرواء والمنظر ، وسيما قسيماً ، ويستحب في السفير ، تمام القد وعبالة الجسم ، حتى لا يكون قميئاً ، وإن كان المرء بأصغريه ، ومخبوءاً تحت لسانه ، ولكن الصورة تسبق اللسان والجثمان يستر الجنان (٣) .

قال النبي ﷺ لجعفر بن أبي طالب ﷺ: ﴿أشبهت خلقي وخلقي﴾

(٤)

(١) محمود شيت ، السفارات النبوية ، ص ٤٧١ .

(٢) حسن فتح الباب ، مقومات السفراء في الإسلام ، ص ٦٠ .

(٣) الفراء ، رسل الملوك ، ص ٣ .

(٤) البخاري ، الصحيح ، كتاب (المناقب) ، باب (مناقب جعفر بن أبي طالب

القرشي) ٣٠٣/٥ - ٣٠٤ .

هذه مجمل الخصال التي ينبغي للسفير المسلم التحلي بها ، وينبغي لمن يختار للعمل الدبلوماسي أن يرشح على أساسها .
لما ذكرنا صفات وشروط الرسل والسفراء ، والتي تجب أن يحملها ويتحلى بها كل من يعمل في مجال الدعوة إلى الله ﷻ .

بقي لنا أن نتكلم عن أهم الظروف التي ساعدت على نشر الدعوة في أرجاء المناطق المهمة التي تحيط ، أو القريبة من شبه الجزيرة العربية . لقد كانت الفترة من هدنة الحديبية (٦ هـ) ، وغزوة تبوك (٩ هـ) ، فترة شديدة الخطر عظيمة الأثر في تكوين الدولة الإسلامية ، فقد شهدت اطراد تقدم النبي ﷺ الحثيث نحو تحقيق ضرب من ضروب الوحدة في شبه الجزيرة تحت لوائه . وعلى الرغم من أن السير نحو تحقيق هذه الغاية المرجوة كان قد غلب عليه إلى حد كبير النشاط التنظيمي والحربي إلا أنه كان يتخلله نشاط لا يقل عنه أهمية في مجال العمل السياسي الدبلوماسي ^(١) .

و لا شك أن مكاتبة الملوك خارج شبه جزيرة العرب تعبيراً عملياً عن عالمية الرسالة الإسلامية . تلك العالمية التي أوضحتها آيات نزلت في العهد المكي مثل قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ ^(٢) .

(١) د. عون الشريف ، نشأة الدولة الإسلامية ، ص ٧٣-٧٤ .

(٢) سورة الأنبياء ، الآية / ١٠٧ .

مما يوضح خطأ النظرة القائلة بالتدرج في نطاق الدعوة الإقليمية إلى العالمية تبعاً لاتساع النفوذ السياسي للرسول ﷺ ، فإن صفة العالمية تقررت والمسلمون مستضعفون بمكة يخافون أن يتخطفهم الناس^(١) .

هذا صحيح من حيث تقرير المبدأ ، ولكن تنفيذ مبدأ العالمية لم يكن إلا بعد إرسال الرسل إلى الملوك خارج شبه الجزيرة العربية .

إن نظام السفارات حاجة للمجتمعات منذ أقدم العصور . فقد عرف العرب نظام السفارة بينهم وبين غيرهم من القبائل والأمم والشعوب والدول المجاورة . ساعد على ذلك الموقع السوقي لشبه الجزيرة العربية الناتج عن متاخمتها للحضارات القديمة ، وهي : الآشورية في العراق ، والفينيقية في الشام ، والفارسية في بلاد الفرس ، والحضارات الفرعونية في مصر . فضلاً عن العلاقات التجارية بين العرب والبلدان المجاورة^(٢) .

إننا عندما ندرس السفارات النبوية وطريقته ﷺ في اختيار السفراء ، والوقت المناسب لها لنقف إجلالاً وتوقيراً لهذه السياسية الشرعية الحكيمة . فقد كانت الصفة العظمى لهذا النبي ﷺ أنه صاحب مهمات متعددة ، فلم تشغله المهمات الداخلية في البناء الداخلي للدولة الإسلامية ، وصياغة

(١) د. عون الشريف ، نشأة الدولة الإسلامية ، ص ٧٤-٧٥ .

(٢) محمود شيت ، السفارات النبوية ، ص ٧ .

مؤسساتها الاقتصادية ، والدستورية ، والسياسية ، والإدارية ، والعلمية . لم يشغله كل ذلك عن الحركة في كل اتجاه نحو العالم أجمع .

لقد اختار الرسول ﷺ ستة من أصحابه رضي الله عنهم ، وأوكل لكل واحد منهم مهمة تسليم الرسالة النبوية للحاكم المقود ، وهؤلاء الصحابة هم :-

- ١- دحية بن خليفة الكلبي ، وقد أرسله إلى قيصر عن طريق حاكم بصرى
- ٢- عبد الله بن حذامة السهمي إلى كسرى .
- ٣- عمرو بن أمية الضمري إلى نجاشي الحبشة .
- ٤- حاطب بن أبي بلتعة اللخمي إلى المقوقس حاكم الإسكندرية .
- ٥- شجاع بن وهب الأسدي إلى الحارث بن شمر الغساني .
- ٦- سليط بن عمرو العامري إلى هوزة بن علي الحنفي شيخ اليمامة ^(١) .

إن دراسة هذه الوثائق تتميز بأهمية قصوى ، إذ هي تعبير عن تحديد واضح للعلاقة بين الدولة الإسلامية وبين القبائل والديانات الأخرى . ولكننا عندما درسنا رسائل النبي ﷺ واجهتنا عقبة في طريق بحثنا ألا وهي الحكم على السند من حيث الصحة أو الضعف في هذه الوثائق .

وهنا نذكر قول الدكتور أكرم العمري في هذه المسألة بقوله : وأما نصوص الكتب التي وجهت إلى المقوقس حاكم مصر وهي كتابان ، وكذلك ردود

(١) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ٦٤٤/٢ .

المقوقس وهي كتابان أيضا ، فلم تثبت من طرق صحيحة . وكذلك لم تثبت نصوص الكتب إلى الحارث بن أبي شمر الغساني حاكم دمشق ، وهوذة بن علي الحنفي حاكم اليمامة. وذلك من الناحية الحديثة ، ولا يعني ذلك نفي إرسال الكتب إلى هؤلاء الملوك والحاكم ، كما أنه لا يعني الطعن التاريخي بالنصوص إذ يمكن أن تكون صحيحة من حيث الشكل والمضمون ، ولكنها لا ترقى إلى مستوى الاحتجاج بها في السياسة الشرعية^(١).

إن محتويات هذه الكتب لا تزيد عما في القرآن الكريم من أحكام وبلاغ عام . وقد خاطب كل ملك ورئيس بما يليق بمقامه ، فقد خاطب هرقل بالآية الكريمة : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ ﴾^(٢).

فهي دستور للتقارب المرحلي مع أهل الكتاب في ظلال حماية الدعوة وحرية تبليغها . كما خاطب النجاشي بالكلام عن عيسى عليه السلام وأمه ، وهو مناسب للمقام وذلك هو البلاغة . وكذلك الحال مع المقوقس ، وكسرى ، والآخرين^(٣).

لقد كان لأسلوب إرسال الرسائل إلى الملوك والأمراء أثر بارز في دخول بعضهم الإسلام ، وإظهار الود من البعض الآخر . كما كشفت هذه الرسائل

(١) العمري، السيرة النبوية ، ٤٥٨/٢ ، محمود شيت ، السفارات النبوية ، ص ١٥

(٢) سورة آل عمران ، من الآية /٦٤ .

(٣) الفهداوي ، الفقه السياسي ، ص ١٦٠ .

مواقف بعض الملوك والأمراء من الدعوة الإسلامية ، ودولتها في المدينة ، وبذلك حققت هذه الرسائل نتائج كثيرة ، واستطاعت الدولة الإسلامية من خلال ردود الفعل المختلفة تجاه الرسائل أن تنتهج نهجاً سياسياً وعسكرياً واضحاً ومتميزاً^(١).

وذلك ما سنراه من خلال عرضنا لبعض هذه الرسائل التي بعثت من قبل النبي ﷺ إلى الملوك والأمراء .

(١) د. سعيد المهجر ، العلاقات الخارجية للدولة الإسلامية ، ص ١١٢ ، والصلابي ، السيرة النبوية ، ص ٧١٤ - ٧١٥ .

المطلب الأول

﴿ شرح الوثيقة ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدى . أما بعد فإني أدعوكم بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فعليك إثم الأريسيين ^(١) .

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ ^(٢)

(١) الأريسيون ، وردت كلمة (الأريسيين) أو (اليرسيين) على اختلاف الروايات في الكتاب الذي وجهه النبي محمد ﷺ إلى هرقل وحده . ولم ترد في كتاب من الكتب التي أرسلت إلى غيره . واختلف علماء الحديث واللغة في مدلول الكلمة ، فالقول المشهور : أن الاريسيين ، جمع (أريسي) وهم الخول ، والخدم (والاكارون) . وللمزيد من المعلومات ينظر : الندوي ، أبو الحسن ، السيرة النبوية ، دار الشرق ، جدة ، طبعة أخرى توزيع دار التوزيع والنشر الإسلامية ، القاهرة ، ط ٧ ، ١٤٠٨ هـ ، ١٩٨٧ م ، ص ٣٠٤ - ٣٠٧ ، والصلابي ، السيرة النبوية ، ص ٧١٨ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية / ٦٤ .

حكم هرقل قيصر^(١) الدولة البيزنطية الشرقية (بلاد الروم) من سنة (١٦٠ - ٦٤٠ ق . هـ) من السنة الثانية قبل الهجرة إلى سنة إحدى وعشرين هجرية . ويعد هرقل من أعظم الأباطرة في التاريخ البيزنطي ، فهو على حد قول أحد المؤرخين الذي أنشأ بيزنطة العصور الوسطى ، والذي اتخذ (رومه) عاصمة الرومان مثلاً في الحكم ، واتخذ اللغة والثقافة اليونانية ، واتخذ المسيحية ديناً ومذهباً^(٢) .

وهذا هو الدور التجديدي الناشط داخل الامبراطورية الذي قام به هرقل ، فازدهرت دولته اقتصادياً وسياسياً وعسكرياً ، كما في الصراع الطويل مع الفرس بما يمثل انتهاء المرحلة الرومانية من التاريخ ، وبدأ ما يصح اعتباره التاريخ البيزنطي . وقد بعث النبي ﷺ رسالته النبوية إلى هرقل يحملها رسوله إليه . وكان هرقل في يومها في أوج مجده وقوته ومعنوياته ، فأرسل له النبي ﷺ يدعوه للإسلام^(٣) .

(١) قيصر : لقب كل ملك من ملوك الروم ، والنجاشي لقب ملوك الحبشة ، وكسرى

لقب ملوك الفرس . ينظر : ابن حجر ، فتح الباري ، ٧/١ .

(٢) محمود شيت ، السفارات النبوية ، ص ٦٠ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ٦٤ .

بعث النبي ﷺ بالكتاب يحمله دحية بن خليفة الكلبي ، فأمن هرقل
وامتنع عليه بطارقتة ، فأخبر دحية رسول الله ﷺ بذلك ، فقال ﷺ :
﴿ ثبت الله ملكه ﴾^(١) .

وكانت الكنية تعضد هرقل في حربه لعباد النار من الفرس بتلك الحرب
، التي توغل فيها إلى قلب فارس ، وأحرز نصراً مؤزراً على الفرس .
وكانت تلك الحملات في نظره عملاً دينياً ، وسورة الروم فيها آية
انتصار الفرس على الروم في أدنى الأرض ، قال تعالى : ﴿ الم . غَلَبَتِ الرُّومُ .
فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ
الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدِ وَيَوْمَئِذٍ يَفِرْحُ الْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصِرُ مَنْ يُشَاءُ وَهُوَ
الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾^(٢) .

وهي أرض العرب هي آية مكية ، وبلغ خبر انتصار الفرس على الروم
مكة ، فشق ذلك على النبي ﷺ ؛ لأن الفرس عباد للنار ولا كتاب لهم ،
والروم أهل كتاب ، وفرح مشركوا مكة ، وشمتموا : وقالوا : (أنتم والنصارى
أهل كتاب ، ونحن وفارس أميون ، وقد ظهر إخواننا على إخوانكم ،

(١) (رواه أبو عبيد من مرسل عمير بن اسحاق) . ابن حجر ، فتح الباري باب
(بدء الوحي) ، ٧/١ .

(٢) سورة الروم ، من الآية ١-٥ .

ولنظهرن نحن عليكم) ، فنزلت هذه الآيات تبشر المسلمين بانتصار الروم على الفرس بعد بضع سنين ، فحدث ما قرره القرآن الكريم ، ففرح المسلمون بهذا النصر ، وحزن المشركون^(١).

(١) الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، ١٧/٢٠ .

المطلب الثاني

﴿ رد الفعل الذي أحدثه الكتاب في هرقل ﴾

تحفل المصادر بروايات مختلفة عن كيفية استقبال هرقل لدحية . فتزعم رواية منها : أن هرقل بمجرد أن قرأ الكتاب ، استدعى أعوانه ودعاهم إلى إتباع ما بشر به كتابهم المقدس من قبل من أمر محمد ﷺ الوارد في الإنجيل . وكان رد الفعل من جانبهم مباشراً ومخالفاً لما أراد ، فما كان منه إلا أن رجع عن قولته الأولى ، وخاطبهم بقوله : إنه إنما قال ما قال ليتأكد من مدى اقتناعهم بدينهم ، وقد تبين له ذلك بما لا يدع للشك مجالاً^(١) .

وتذكر رواية أخرى عن ابن إسحق : إن هرقل قال لدحية حين بلغه الكتاب : (ويحك ! والله إنني لأعلم أن صاحبك نبي مرسل ، وأنه الذي كنا ننتظره ونجده في كتابنا ، ولكنني أخاف الروم على نفسي ، ولولا ذلك لأتبعته ، فانهب إلى ضغاطر الأسقف فاذا ذكر له صاحبكم ، فهو والله أعظم في الروم مني وأجور قولاً عندهم مني ، فانظر ما يقول لك . قال : فجاءه دحية فأخبره بما جاء به من رسول الله ﷺ إلى هرقل ، وبما يدعوه إليه ، فقال ضغاطر : صاحبك والله نبي مرسل نعرفه بصفته ، ونجده في كتابنا باسمه . ثم دخل فألقى ثياباً كانت عليه سوداء ولبس ثياباً بيضاء ، ثم أخذ عصاه ، فخرج على الروم وهم في الكنيسة ، فقال : يامعشر الروم ، إنه قد جاءنا

(١) أبو عبيد ، الأموال ، ص ٢٥٥ - ٢٥٦ .

كتاب من أحمد يدعونا فيه إلى الله ﷻ ، وإني أشهد أن لا اله إلا الله وأن أحمد عبده ورسوله . قال : فوثبوا عليه وثبة رجل واحد ، فضربوه حتى قتلوه . فلما رجع دحية إلى هرقل ، فأخبره ، قال : قد قلت لك إنا نخافهم على أنفسنا ، فضغاطر والله كان أعظم عندهم ، وأجوز قولاً مني ^(١) .

وتذهب رواية ثالثة يرويها ابن شهاب الزهري عن عبد الله بن مسعود الذي ينقلها عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه إلى تسجيل تفاصيل دقيقة عما حدث في الاجتماع ، تزعم هذه الرواية : إنه تم بين أبي سفيان بن حرب وهرقل ، ويسبق اللقاء رؤيا رآها هرقل في المنام وهو في طريقه إلى بيت المقدس للصلاة شكراً لتغلبه على الفرس ، وانتزاع الصليب الأعظم منهم . وكانت حمص منزله ، فخرج منها يمشي على قدميه ، وأصبح ذات ليلة ، فقال لأصحابه : أريت في هذه الليلة أن ملك الختان ظاهر ، فقالوا له : ما نعلم أمة تختن إلا يهود ، وهم في سلطانك . وبينما هم يتجادلون في ذلك إذ أتاه رسول صاحب بصرى برجل من العرب يقوده - وكانت الملوك تهادى الأخبار بينها - ، فقال : أيها الملك ، إن هذا الرجل من العرب من أهل الشاة والإبل يحدث عن أمر حدث ببلاد عجب ، فسله عنه . وأجاب الرجل على أسئلة هرقل عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فأمر به فجردوه ، فإذا هو مختون ، فقال هرقل : هذا والله الذي أريت لا ما تقولون أعطوه ثوبه . انطلق عنا ، ثم دعا

(١) أبو عبيد ، الأموال ، ص ٢٥١ .

صاحب شرطته ، فقال له : قلب لي الشام ظهراً وبطناً حتى تأتني برجل من قوم هذا الرجل ، يعني النبي ﷺ . قال أبو سفيان : فوالله إنا لبغزة إذ هجم علينا صاحب شرطته ، فقال : أنتم من قوم هذا الرجل الذي بالحجاز ، قلنا : نعم ، قال : انطلقوا بنا إلى الملك ، فانطلقنا معه ، فلما انتهينا إليه قال : أنتم من رهط هذا الرجل ؟ قلنا : نعم ، قال : فأيكم أمس به رحماً ، قلت : أنا . قال أبو سفيان : وأيم الله ما رأيت من رجل أرى أنه كان أنكر من ذلك الأغلف ، يعني هرقل ، فقال : ادن ، فأقعدني بين يديه ، وأقعد أصحابي خلفي ، ثم قال : إني سأسأله فإن كذب فردوا عليه ، فوالله لو كذبت ماردوا علي ، ولكنني كنت أمراً سيدياً أتكرم عن الكذب ، وعرفت أن أيسر ما في ذلك إنا كذبتة أن يحفظوا ذلك علي ، ثم يحدثوا به نبي ، فلم أكذبه . فقال : أخبرني عن هذا الرجل الذي خرج بين أظهركم . قال : فجعلت أزهد له شأنه وأصغر له أمره . فجعل لا يلتفت إلى ذلك ، ثم كرر علي الحديث قال : سألتك كيف نسبه فيكم فزعمت أنه من أوسطكم نسباً ، وكذلك يأخذ الله النبي ﷺ إذ أخذه لا يأخذه إلا من أوسط قومه نسباً . وسألتك هل كان أحد من أهل بيته يقول بقوله فهو يشبهه به ، فزعمت أن لا . وسألتك عن أتباعه فزعمت أنهم الضعفاء والمساكين والأحداث والنساء ، وكذلك أتباع الأنبياء في كل زمان . وسألتك عن من يتبعه ، أيحبه ويلزمه أم يقيه ويفارقه ، فزعمت أن لا يتبعه أحد فيفارقه ، وكذلك حلاوة الإيمان لا تدخل قلباً فتخرج منه ، وسألتك هل يغدر ؟ فزعمت أن لا ، فلئن كنت صدقتني عنه

ليغلبن على ما تحت قدمي هاتين ، ولوددت أني عنده فأغسل قدميه ، انطلق لشأنك ، قال : فقامت من عنده ، وأنا أضرب إحدى يدي بالأخرى ، وأقول أي عباد الله لقد أمر أبي كبشة ، أصبح ملوك بني الأصفر يهابونه في سلطانهم بالشام . قال : وقدم عليه كتاب رسول الله ﷺ مع دحية بن خليفة الكلبي^(١) .

ولا تكتفي هذه الروايات بركوع هرقل تحت قدمي النبي العربي ﷺ بعد عقد الحديدية ، ولكنها تذهب أبعد من ذلك ، فتذكر أنه لما أراد الخروج من أرض الشام إلى القسطنطينية لما بلغه من أمر رسول الله ﷺ جمع الروم ، فقال : يامعشر الروم ، إني عارض عليكم أموراً فانظروا فيما قد أردتها . قالوا : ما هي ؟ قال : تعلمون أن هذا الرجل لنبي مرسل ، إنا نجد في كتابنا نعرفه بصفته التي وصف لنا ، فهلم فلنتبعه فتسلم لنا دنيانا وآخرتنا . فقالوا : نحن نكون تحت يدي العرب ، ونحن أعظم الناس ملكاً ، وأكثرهم رجلاً ، وأفضلهم بلداً . قال : فهلم فأعطيه الجزية في كل سنة ، اكسروا عني شوكته ، وأستريح من حربه بمال أعطيه إياه . قالوا : نحن نعطي العرب الذل والصغار بخرج يأخذونه منا ، ونحن أكثر الناس عدداً ، لا والله لا نفعل هذا أبداً . قال : هلم فالأصالحه على أن أعطيه أرض سورية ، ويدعني وأرض الشام . قال : وكانت أرض سورية ، وأرض فلسطين ، والأردن ، ودمشق ،

(١) الطبري ، تاريخ ، ٢٩٢/٢ - ٢٩٣ .

وحمص . فلما أبوا عليه قال : أما والله لترون أنكم قد ظفرتم إذا امتنعتم منه في مدينتكم . ثم جلس على بغل له ، فانطلق حتى إذا أشرف على الدرب استقبل أرض الشام ، ثم قال : السلام عليكم أرض سورية الوداع ، ثم ركض حتى دخل القسطنطينية ^(١) .

والحقيقة الهامة الثانية التي تبرزها هذه الروايات ، هي نمو هذه القصص في فترة مبكرة . فسلاسل الرواة التي يوردها الكتاب الأوائل ، كأبي عبيد ، وابن سعد ، والطبري ، لا تدع مجالاً للشك في أن بعض هذه الروايات نشأت في المرحلة الأولى من حياة الإسلام ، فورود أسماء بعض الثقات الأوائل في هذه الأسانيد ، كابن شهاب الزهري (٥١ - ١٢٤ هـ) ، ومحمد بن اسحق (٨٥ - ١٥١ هـ) ، بدعم هذا الذي نذهب إليه . وفي واقع الأمر كانت بداية هذه الروايات أقدم من هذين العالمين . فقد كتب محمد بن اسحق عن يزيد بن حبيب المصري : ((أنه وجد كتاباً فيه ذكرى من بعث رسول الله ﷺ إلى البلدان ، وملوك العرب والعجم ، وما قال لأصحابه حين بعثهم ، قال : فبعث به إلى محمد بن شهاب الزهري ، فعرفه ^(٢) .

ولا يبعد الإنسان عن الحقيقة إن زعم أن معظم مثل هذه الروايات الشائعة ، التي تروج في الأوساط الشعبية ، تستند في إطارها العام على أصل

(١) الطبري ، تاريخ ، ٢٨٩/٢ - ٢٩١ .

(٢) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ٦٠٧/٢ .

من الحقيقة ، يختلف حجمه باختلاف الظروف والملابسات . وعنصر الزمان والمكان نوا أهمية ثانوية . ولا تشكل المفارقات - مهما عظمت في أعيننا - صعوبات كبيرة في أعين الجماهير التي تخاطبها هذه الروايات ، لأن لديها قدراً كبيراً من الاستعداد والتهيؤ لتصديقها لظروف تاريخية واجتماعية وعقلية متعددة . فإن هذه الروايات لم تخرج كالنبت الشيطاني من لا شيء ، بل جاءت لتلبي حاجة حقيقية في نفوس الناس . وأي ذرات من الحقيقة قد تشتمل عليها لا تقوم إلا مقام العتبات التي ينتقل بواسطتها الهيكل الأسطوري الكبير إلى العقول المتلقية إذ أنه يغذي حاجة ملحة في تلافيفها .

وعناصر الحقيقة في هذه القضية التي نحن بصددتها ليست بعسيرة التبيين ، ففي المقام الأول هناك حقيقة قامت عليها الشواهد ، وهي أن هرقل قد قام فعلاً بالحج إلى بيت المقدس (بغرض إعادة الصليب إلى مقره إذ كان من قبل في كنيسة القديسة صوفيا) (١) .

ويكاد توقيت هذه الزيارة يطابق التواريخ التي أوردتها المصادر العربية في مجال حديثها عن كتاب الرسول ﷺ إليه (٢) .

وفي المقام الثاني كانت علاقات محمد ﷺ مع البيزنطيين على الحدود حقيقة سياسية واقعة ، خاصة في أخريات حياته . وقد أحدثت مسيرته

(١) الطبري ، تاريخ ، ٢/٢٩٤ .

(٢) المصدر نفسه ، ٢/٢٩٣ .

المضمرة من تبوك في العام التاسع من الهجرة ، ردود فعل مثيرة على الجبهة البيزنطية . ومثل هذه التحركات الخطيرة ، وما ينجم عنها من نتائج بعيدة المدى ذات أثر بالغ على الجانبين ، لابد أن تتخللها البعث الدبلوماسية والمكاتبات .

وإذا وضعنا هذه العناصر نصب أعيننا أمكننا رصد المواد المتضاربة بحيث نقيم عن طريقها صورة للوضع التاريخي لتلك الفترة التي نحن بصدها أقرب إلى الواقع نسبياً .

ولابد من المبادرة بالاعتراف بأن النظرية التي تذهب إلى أن الكتاب الذي كتبه الرسول ﷺ لهرقل - ولغيره من الملوك - أرسل بعد هدنة الحديبية بقليل ، مما يصعب قبوله أو الدفاع عنه . والاعتراض العملي على اتخاذ مثل هذه الخطوة هو ضعف موقف الرسول ﷺ النسبي في هذه الفترة . فقد كان هم النبي ﷺ الأول كما رأينا وحتى فتح مكة في السنة الثامنة من الهجرة ، تدعيم قوته السياسية عن طريق دعوة مختلف قبائل العرب وإغرائها للانحياز ضد أعدائه من أهل قريش ، وقد دفعته الضرورة السياسية للدخول في ارتباطات سياسية ، ومعاهدات دفاعية مع العرب الوثنيين ، والذين لم يقبلوا الإسلام في هذه الفترة ، إذ كانوا على استعداد لتقديم العون والمساعدة له لتنفيذ هدفه البعيد المدى . ولا يعنى هذا التقليل من أمر إلحاح الرسول ﷺ على ضرورة الانتماء الديني على أساس أنه المسلك الوحيد المقبول

، ولكنه يوضح منهج الرسول ﷺ الواقعي في معالجة الأمور ، ويبرز مرونته السياسية . فقد كان على ثقة تامة من أن قريشاً مادامت تحافظ على قوتها المحصنة في مكة ومادامت تتمتع بما لها من نفوذ وتأثير على بعض قبائل العرب . فإن رسالته الدينية ستقف دائماً دون مرحلة التحقيق الفعلي^(١) .

وكان - إلى جانب صراعه السياسي معهم - يواصل نشاطه الدعوي بين قبائل العرب ، إذ أن قبول الإسلام يعني الإخلاص الذي لا يكل ولا يضعف لما كان ينادى به محمد ﷺ ، ولكن حتى هذا الاعتبار لم يعمه عن حقيقة الأخطار المترتبة على قصر معسكره على المسلمين فقط ، إذ أنه سيفقد بذلك حلفاء كثيرين لهم أسبابهم ودوافعهم الخاصة التي تدعوهم للانضمام إلى جانبه ضد قريش^(٢) .

لقد أبدى محمد ﷺ قبيل فتح مكة اهتمامه بشؤون الشام حين بعث حملة بقيادة زيد بن حارثة إلى مؤتة ، وتعمق ذلك الاهتمام بعد فتح مكة . وبرغم الإشاعات التي راجت عن غزو بيزنطي مرتقب عليه ، فإنه رأى في تعبئة قواته وحشدها على الجبهة الشامية عملاً ذا أهمية سياسية قصوى بالنسبة لشبه جزيرة العرب . إذ أن من شأن هذا العرض العسكري على حدود الروم أن يحدث أثراً بعيد المدى في عقول العرب وقلوبهم ، مما يجعل بإذعان

(١) ابن سعد ، الطبقات ، ٤٣/١ .

(٢) المصدر نفسه ، ٤٤/١ .

من تأبى منهم وأبدى تمنعا . ولذلك نفذ ماراه من الزحف إلى الشمال ، وأملى إرادته على الدويلات الصغيرة التي كانت تقع في طريقه . ومن المحتمل جداً أن يكون قد أرسل خلال هذه الحملة رسالة أو كتاباً إلى حاكم الشام البيزنطي يدعوه فيها إلى الإسلام . كما فعل مع الحكام المسيحيين الآخرين من أمثال : يوحنا بن رؤة ، وأكيدر بن عبد بن الملك . وقد سلفت الإشارة إلى ما ذكرته المصادر بشأن هذا الموضوع ^(١) .

وفي الواقع أن الوثيقة رقم ١٢ ، تتسق مع هذه المناسبة أكثر من أي رواية أخرى . ففي هذه الوثيقة ذكر للجزية ، وقد فرضت الجزية ، ونفذت على المسيحيين وأهل الكتاب عامة ، والرسول ﷺ ما زال بتبوك . ومما يسند هذا الرأي أن رواية أبي عبيد لهذه الوثيقة ، كما وضحنا من قبل ، لا تذكر شخصية بعينها ، وإنما تذكر صاحب الروم فقط . وتستمر القصة لتذكر أن حامل الرسالة رجع ومعه بعض المال هدية من هرقل إلى النبي محمد ﷺ ^(٢) .

وليس من المستبعد أن يكون الحاكم الإقليمي ، والذي لم يكن في موقف يسمح له بالمقابلة بقاء عسكري مع المسلمين والرسول في جواره ، قد استقبل رسول محمد ﷺ بالترحاب ، وأهداه المال ليتفادى أي صراع مع حشود العرب المتحفزة على حدود بلاده . فمن الجائز أن يكون هرقل قد سمع ، وهو ما

(١) الطبري ، تاريخ ، ٢٩٠/٢ .

(٢) أبو عبيد ، الأموال ، ص ٢٥٨ ، ابن سعد ، الطبقات ، ٤٢/١ - ٤٤ .

يزال ببيت المقدس الإشاعات والأخبار عما كان يقوم به محمد ﷺ في شبه جزيرة العرب . والتجار العرب الذين يكثرون التردد على أسواق الشام خير وسيلة لنشر هذه الأنباء في بلاد الروم . وكان للقرشيين ألد أعداء محمد ﷺ مصلحة خاصة في ترويح الإشاعات عن محمد ﷺ ، وتضخيمها ليثيروا عليه سخط البيزنطيين ، ومن المحتمل أن يكون هرقل عند سماعه هذه الأنباء ، قد رغب في معرفة شيء أكثر عن الرجل ، فدعا أبا سفيان لهذا الغرض^(١) .

ومثل هذه الحادثة المنعزلة يمكن أن تربط في يسر بحادثة أخرى مماثلة لها مثل إرسال خطاب من محمد ﷺ إلى الحاكم الإقليمي البيزنطي في فترة متأخرة . والعنصر الهام في القضية هو أسم هرقل . وقد كان هرقل طبقاً للمعلومات المستقاة من التجار كأبي سفيان ، موجوداً في بيت المقدس أثناء هدنة الحديبية .

وعليه : ومن باب التعظيم لشخصية الرسول ﷺ ، فإن الرسالة المتواضعة التي أرسلت لحاكم الشام الإقليمي في أغلب الظن أثناء إقامة الرسول ﷺ بتبوك قد تتلقفها في فترة متأخرة عقول الرواة السريعة الانفعال بما يحيط بالأمة من مشاعر القداسة لعهد الإسلام الذهبي ، وتردها إلى فترة مبكرة ،

(١) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ٢/٢١٧ ، ابن سعد ، الطبقات ، ١/٢٤٤ .

بحيث يتم الربط بين ما يمكن أن يكون قد تم في هذه الفترة المتأخرة ، وبين ما قد حدث في الفترة المبكرة أثناء هدنة الحديبية ، ويرتبط كل ذلك باسم هرقل . وفي واقع الأمر إن هرقل الذي تصفه هذه المصادر يبدو باهت الشخصية ضعيفاً بالنسبة لمرؤوسيه في الشام .

المطلب الأول

﴿العلاقة بين شبه جزيرة العرب والحبشة﴾

العلاقات بين شبه جزيرة العرب والحبشة قديمة ووثيقة . فقد كانت أرضها سوقاً رائجة لقريش تتاجر فيها ، وتكسب في أمن وسلام^(١) .

وكان لتدخل الأحباش في المسائل الداخلية لشبه الجزيرة ، وخاصة في اليمن آثارها على حياة العرب السياسية والثقافية . ومن خلال هذا الاتصال الوثيق عرفهم العرب مستعمرين ، وعلموا الكثير من عاداتهم وطرقهم في التفكير ، خاصة في مجال الدين ، فهم يتذكرون أن الحبش حين أقدموا على غزو شبه الجزيرة ، كان يدفعهم إلى ذلك حرصهم على الدفاع عن المسيحية ضد المتجبرين من يهود اليمن، الذين ناصبوا المسيحيين العداة . وتبدي المصادر العربية معرفة دقيقة بأرض الحبشة، وتروى أقاصيص عن تجار عرب حازوا ثقة السكان هناك، وعقدوا معاهدات تجارية مع ملوكهم منذ أقدم العصور^(٢) .

وهذه الصلة الحميمة تفسر إلى حد ما سبب قرار المسلمين الأوائل الهجرة إلى الحبشة ، هرباً من تعذيب المكيين لهم ، وبحثاً عن ملجأ وحماية . وعلى الرغم من أن المصادر الأساسية تغفل الحديث عن الاستعدادات الأولية التي لا بد أن تكون قد سبقت الهجرة الفعلية ، فليس من الشطط أن نفترض أن

(١) الطبري ، تاريخ ، ١١٨/١ .

(٢) عبد الحميد عابدين ، بين الحبشة والعرب ، ص ١٦٣ .

محمداً ﷺ قد أخذ الحيطة لضمان سلامة أتباعه بإحراز الضمانات الكافية لهم مقدما حين أرسل المجموعة الأولى ، وهم أحد عشر رجلاً وأربع من النساء في السنة الخامسة من البعثة ، طليعة لاكتشاف احتمالات استقبالية الأحباش السلمي للمهاجرين .

وقد توجت المفاوضات بالنجاح ورجعوا بعد شهرين أو ثلاثة ، وهكذا أصبح الطريق ممهداً لهجرة عدد أكبر من المسلمين المضطهدين الذين استغلوا الفرصة ، واستقبلوا هذا الوضع المريح أحسن استقبال . وتذكر المصادر التاريخية أن النجاشي أرسل وفداً إلى النبي وهو ما يزال بمكة ، ولعل الغرض من ذلك أن ينقلوا إلى ملكهم صورة عن الوضع هناك ^(١).

وتبرر أن حادثة هجرة بعض المسلمين للحبشة المثبتة بالدلائل ، والحفاوة التي قوبلوا بها أفترض أن هذا الأمر قد توصل إليه جانبا القضية بعد سلسلة طويلة من المفاوضات ، وتبادل الرسل انتهت بهجرة من هاجر من المسلمين إلى الحبشة بإذن حاكم البلاد المسؤول ^(٢).

(١) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ٢/٢٥٩ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٣/٨٢ .

(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٣/٧٧ ، البوطي ، د. محمد سعيد رمضان ، فقه

السيرة ، دار الفكر ، ط ٥ ، ١٩٧٢م ، ص ١٢٠ - ١٢٦ .

المطلب الثاني

﴿ المكاتبة ونتائجها ﴾

((من محمد رسول الله إلى النجاشي ملك الحبشة (أسلم أنت) فإني أحمد إليك الله ، الذي لا إله إلا هو ، القدوس ، السلام ، المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة ، فحملت بعيسى ، فخلقه الله من روحه ، ونفخه كما خلق آدم بيده ونفخة وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، والموالاتة على طاعته ، وأن تتبعني ، وتؤمن بالذي جاءني ، فإني رسول الله بعثت إليك ابن عمي جعفرًا ونفراً معه من المسلمين ، فإذا جاءك فأقرهم ودع التجبر ، فإني أدعوك وجنودك إلى الله ، فقد بلغت ونصحت ، فاقبلوا نصحي ، والسلام على من اتبع الهدى))^(١).

تقتبس المؤلفات العربية بتوسع منذ أيام ابن جرير الطبري ، وقد وردت روايات عديدة وأبرز هذه الروايات ، كما يذكرها المؤلفون المعاصرون هي الرواية (١٥ أ) ، وعند محمد حميد الله يذكر لها رقماً آخر (٢١) ، والتي تمتاز الرواية باحتوائها على العبارة : (وبعثت إليك ابن عمي جعفرًا ونفراً من المسلمين . فإذا جاءك فأقرهم ، ودع التجبر) .

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٣ / ٨٣ ، وحميد الله ، مجموعة الوثائق السياسية

وورد مثل هذه العبارة في النص يعني أن الخطاب ، فقد أرسل مع جعفر ، أو قبل وصوله الحبشة بقليل ، وذلك في غضون السنة الخامسة من البعثة . ولكن المصادر لا تشير إلى مثل هذه المراسلة المبكرة ، ومعظمها تعد بعثة عمرو بن أمية الضمري في السنة السادسة ، أو السابعة للهجرة .

وقد اهتم المستشرق دنلوب بهذه الوثيقة ، وقد نشر صورتها الشمسية في مجلة الجمعية الملكية الإسبانية الانجليزية سنة ١٩٤٠م . واختلف الرواة في تحديد إرسال الرسالة إلى ملك الحبشة ، فمنهم من قال في الهجرة الأولى ، والبعض الآخر في الهجرة الثانية ، وفي كلا الهجرتين كان السفير الناجح هو جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه حيث تمت المحاوراة بينه وبين النجاشي أصحمة .

وفيهما أسلم وأخفى إسلامه ، وباعتبار جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه أميراً للوفد الإسلامي آنذاك ^(١) .

وكانت هذه المحاوراة في الهجرة الثانية على الأرجح ، وقد صورت أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، وهي من هاجر الهجرة الأولى إلى الحبشة الظروف التي أحاطت بهذه الهجرة قالت : لما ضاقت علينا ، وأوذى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفتنوا ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة في دينهم ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يستطيع دفع ذلك عنهم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في منعة من قومه وعمه ، لا يصل إليه شيء مما يكره ، مما ينال أصحابه ، فقال لهم رسول

(١) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ٣٣٥/٢ .

الله ﷺ : إن بأرض الحبشة ملكاً لا يظلم أحد عنده ، فألحقوا ببلادهم حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه فخرجنا إليها إرسالاً حتى اجتمعنا بها ، فنزلنا بخير دارٍ خير جارٍ آمنٍ على ديننا ، ولم نخشى منه ظلماً^(١) .

ثم بلغ المسلمين وهم بأرض الحبشة أن أهل مكة أسلموا ، فرجع ناس منهم عثمان بن مظعون إلى مكة ، فلم يجدوا ما أخبروا به صحيحاً ، فرجعوا ، وسار معهم جماعة إلى الحبشة ، وهي الهجرة الثانية ، وقد سرد ابن إسحاق أسماء أهل الهجرة الثانية ، وهم زيادة على ثمانين رجلاً ، وثمانية عشرة امرأة^(٢) .

وقد بلغت مجمل المخاطبات بين الرسول ﷺ ، وحكام الحبشة سبع مخاطبات خرجها محمد حميد الله بالأرقام (٢٠_٢١_٢٢_٢٣_٢٤_٢٥)^(٣) ، والكتاب رقم (٢٠) هو الرسالة في شأن مهاجرين الحبشة .

والراجح - والله أعلم - أن وفدي مهاجرين الحبشة لم يحملوا في كلا الهجرتين أية رسالة تحريرية ، بل كانت الرسالة شفوية عن طريق أمير الوفد

(١) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ٣٣٤/٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ٣٣٦/٢ .

(٣) محمد حميد الله ، الوثائق السياسية ، ص ١٧٠ .

الذي اختاره الرسول ﷺ بدقة متناهية . وقد برهن هذا الرجل على دقته في كل شيء ، وذلك لحواره الطويل مع النجاشي المروي في كتب السيرة^(١) . فلم يبعث رسول الله ﷺ كتاباً بهذا الشأن ؛ لأنه ما بعث بكتب إلا حين أصبح للمسلمين دولة وحكومة باستطاعتهم أن يخاطبوا التكتلات ، والأقاليم العالمية ، أما حينما كان المسلمون في مكة داخل نظام القبيلة ، فإن الوضع مختلف تماما .

أما الوثيقة الثالثة والعشرون فهي إجابة من النجاشي ، والتي تعد كرد من النجاشي على كتاب النبي محمد ﷺ ، ويخاطبه في هذه الرسالة ((برسول الله)) ويشكر فيها الله الذي هداه إلى الإسلام ، ويؤكد ما قاله النبي ﷺ في خطابه له عن عيسى الكليلي ، وأنه ليس هناك فارق بين رسالته ، ورسالة عيسى (عليه الصلاة والسلام) ، فقال : ((فورب السماء والأرض أن عيسى ما يزيد على ما ذكرت فروقا ، فأشهد أنك رسول الله صادقا))^(٢) .

(١) النسائي ، أبو عبد الرحمن احمد بن شعيب بن علي (ت ٣٠٣ هـ) ، السنن ،

الدار المصرية ، القاهرة (د.ت) ، ١١٩/٦ ، ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، ١٩٧/٨

(٢) النسائي ، السنن ، ٦ — ١٢٠ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٨٣/٣ .

إن الوثيقة السياسية هي موضوع بحثنا هذا وهي برقم (٢١) فغيرها من الحكم والعظات الشيء الكثير ، والتي يمكن للسياسي الناجح أن يتخذ الألفاظ والخطوات الصحيحة ، والمناسبة في سبيل إقحام المقابل بالعقل والأدلة ونشر دعوته ، ومن أجل كسب ثقة المخاطب ، ومساندته لصاحب الدعوة .

ويمكننا أن نستفيد مما ذكر آنفا هناك بعض الأمور الأساسية ، والسياسية ، وهي كالآتي : _

١- الدقة والحنكة النبوية في مخاطبة النجاشي ، حيث أبرز ما يتناسب مع معتقد النصارى مما جاء أصيلاً في كتاب الله حيث أبرز موقف عيسى ومريم (عليهم السلام) ، وكيفية خلق عيسى (عليه الصلاة والسلام) . وأن هذا الأمر من العناصر المشتركة مع الدين الإسلامي الذي يؤمن أتباعه بجميع الكتب والرسل ، وهو شرط إيمان . فهذا درس لنا في البحث عن أوجه الصلة والاتفاق مع المعسكرات المضادة ، وأن ليسوا سواء في العداوة والمحاربة^(١) .

(١) محمد حميد الله ، مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٨٠ .

٢- مما يبعث على العجب والإكبار موقف المهاجرين أولاً . ثم نص الوثيقة النبوية ببيان العقيدة في عيسى عليه السلام بكل صراحة ووضوح رغم مخالفتها للنصرانية السائدة في الحبشة . فلم يلجأ إلى مجاملة الأساقفة الحاضرين خوفاً من تسليمهم لقريش ، فأحسن الله عاقبتهم وآمنهم في دار هجرتهم ^(١) .

(١) محمد حميد الله ، مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٨٠ - ٨١ .

المطلب الأول

﴿ الوثائق إلى المقوقس ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

(من محمد عبد الله ورسوله ، إلى المقوقس عظيم القبط . سلام على من أتبع الهدى ^(١) .

أما بعد : فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم ، يؤتيك الله أجرك مرتين ، فإن توليت ، فعليك إثم القبط : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَا مُسْلِمُونَ ﴾ ^(٢) .

(١) ابن سيد الناس ، محمد بن محمد بن احمد الأندلسي (ت ٧٣٤ هـ) ، عيون الأثر فنون المغازي والشمال والسير ، دار الأفاق الجديدة ، بيروت ، ط ٢ ، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م ، ٢٦٦/٢ - ٢٦٧ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية / ٦٤ .

إن العلاقة مع المصريين ترتسم من خلال أربع رسائل اثنتان من الرسول ﷺ إلى المقوقس ، والاثنتان الأخريان تمثلان جوابي المقوقس للنبي ﷺ . وهذه الوثائق عند حميد الله بالأرقام (٤٩-٥٠-٥١-٥٢) على التوالي ^(١) .

الوثيقة (٤٩) ، وهي أصل البحث تمثل عرضاً لسياسة النبي ﷺ في الدعوة للدين الإسلامي وعرضه بصورة مبسطة ودعوة المقوقس إليه ، والوثيقة رقم (٥٠) تمثل جواب المقوقس العام بالرسالة ، وبعثه للجاريين ، والكسوة ، والبغلة هدايا للرسول ﷺ ، أما الوثيقة رقم (٥١) ، فهي رواية ثانية عن نص مكتوب إلى المقوقس .

والوثيقة رقم (٥٢) هي رواية ثانية عن جواب المقوقس كان حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه هو حامل الكتاب إلى المقوقس ، فمن هو المقوقس ؟

ليس في كل تاريخ مصر شخص جمع بين الشهرة والخفاء ، مثل الرجل الذي يطلق عليه في الاسم العربي : المقوقس . ولا خلاف بأن هذا الرجل فضلاً عن تسلمه الكتاب النبوي ، كأعظم الروم أثراً في الفتح الإسلامي لمصر ، وأنه كان العامل على تسليم مصر للفاتحين المسلمين ^(٢) .

(١) هذه الوثائق على التوالي وردت في ابن سعد ، الطبقات الكبرى ١٧/٢ ، الطبري ، تاريخ ، ٥٦٠/٣ .

(٢) محمود شيت ، السفارات النبوية ، ص ٩٠ .

المقوقس هو حاكم مصر من قبل هرقل ملك الروم ، وكان هرقل معنياً بتوحيد المذاهب المسيحية ، وجعلها مذهباً مسيحياً واحداً هو مذهب الدولة ، ويقصد هنا بملك الإسكندرية ، ملك مصر كلها ، لأن المقوقس جعل الإسكندرية عاصمة لمصر في أيامه ، فهو بطريق الإسكندرية ، وعامل هرقل على مصر ، فكان على السلطتين الدينية والدينيوية في مصر^(١).

(١) محمود شيت ، السفارات النبوية ، ص ٩١ ، وما بعدها .

المطلب الثاني

﴿ النتائج وردود الفعل ﴾

لقد اختلفت الروايات في تحديد موقف المقوقس من رسائل النبي ﷺ ، فيذكر بعض الرواة وأهل التاريخ بأن المقوقس حاله حال هرقل كان متخوفاً من سخط القبط عليه ، وذكره ابن طولون أن الخلاف حول إسلام المقوقس شبيه بما حدث في اسلام هرقل وقيصر^(١) .

ويرى الواقدي ، وابن سعد بأن المقوقس قبل الرسالة التي أرسلت إليه من قبل النبي ﷺ ويجعلا المقوقس يقول : ((فكشفنا يا محمد في علمنا عن خبرك . فوجدناك أقرب داع دعا إلى الله ، وأصدق من تكلم بالصدق)) . ويعترف بأن محمداً ﷺ خاتم الأنبياء وسيد المرسلين ، وإمام المتقين . وبعد أن يضيف عليه كل هذه الصفات ، ويعتذر إليه عن عدم مقدرته السير إليه . والنص يحتمل أيضاً أنه يعتذر عن قبول الإسلام ؛ لأنه ملكاً عظيماً^(٢) .

(١) ابن طولون : محمد بن علي بن طولون الدمشقي (ت ٩٥٣ هـ) ، اعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين ، تحقيق : محمود الأرناؤوط ، نشر مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م ، ص ٢١ .

(٢) ابن سعد ، الطبقات ، ١٧٢/١١ .

ونحن هنا يمكننا أن نجمع بين الروايتين ، ومن خلال النتائج يتبين لنا موقف المقوقس ملك مصر آنذاك ، وكما مبين في النتائج الآتية :-

١- لقد كان المقوقس مؤدباً غاية الأدب في رسالته الجوابية ، وفي معاملته للسفير النبوي ، إذ أحسن استقباله وضيافته وأكرم وفادته ، وأهدى إليه عند رحيله ، وأرسل معه من يوصله مأمنه . ويمكن أن يتبين الباحث أن المقوقس كسيده هرقل اقتنع بالرسالة والرسول ، ولكنه لم يسلم خوفاً من خذلان القبط له وانتفاضهم عليه ، خوفاً على ملكه وسلطانه ، وطالما حلف السلطان ، وحرقت السلطة الراغبين فيها عن طريق الحق والصواب في مختلف الأمم والشعوب والعصور^(١) .

٢- لا بد أن نرضى بالتدرج في معاملة الناس والخصوم أيضاً ؛ لأن بذرة الخير إذا بذرت قد لا تنمو إلا بعد وقت طويل . فإن حاطب بن أبي بلتعة قد أدى الأمانة على أتم وجه ، ولا غرو في ذلك فهو من السابقين ، وكان أثر هذه السفارة معنوياً لأول الأمر ، ولكن تأثيرها تنامى بالتدرج ، حتى أصبح بعد ثلاث عشرة سنة مادياً ومعنوياً ، وأصبحت مصر للإسلام والمسلمين ، ولم تبق للروم والمقوقس .

(١) محمود شيت ، السفارات النبوية ، ص ١٠٩ ، الفهداوي ، الفقه السياسي ،

ص ١٧٤ ، وما بعدها .

فبعد أن التحق النبي محمد ﷺ بالرفيق الأعلى ، وتولى أبو بكر الصديق رضي الله عنه الخلافة ، بعث حاطبا إلى المقوقس ، فالتقاه بناحية قرى (الشرقي) ، ولم يزالوا على ذلك حتى دخل عمرو بن العاص رضي الله عنه مصر سنة عشرين هجرية ، فقاتل المقوقس ، فانتقض ذلك الصلح المحدود الذي كان بين المقوقس وحاطب ، وفتح المسلمون مصر ، وخسرها الروم إلى الأبد^(١).

٣- الإسلام عندما يعرض من قبل دعائه فهو أولاً يخاطب رؤوس القوم ، ويبدأ بسلاطينهم ؛ لأن الشعوب ليس عليها سبيل ، بل لابد أن تكون وجهاً لوجه مع دين الله تبارك وتعالى . ثم بعد ذلك لا يتم إكراه أحد على اعتناق الإسلام ، لذلك يصدق هنا قول عثمان بن عفان رضي الله عنه إذ قال : ﴿ إن الله لينزع بالسلطان ما لا ينزع بالقرآن ﴾^(٢) .

لذا خاطبه الرسول محمد ﷺ بقوله : ((أسلم تسلم يؤتك الله أجره مرتين)) من دل على خير فله مثل أجر فاعله، فإن توليت فإنما عليك إثم القبط .

(١) ابن عبد البر ، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد القرطبي (ت ٤٦٣ هـ) ،

الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، القاهرة (د.ت) ، ٣١٤/١ .

(٢) البخاري ، الصحيح ، ٢١٥/٣ .

وهكذا الإقامة في الخير والشر ، هي بشرى وإضفاء : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً

يَهْدُونَا بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بَايَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ (١) .

وهي حسرة وبراءة : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا

وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴾ (٢) .

(١) سورة السجدة ، الآية / ٢٦ .

(٢) سورة البقرة ، الآية / ١٦٦ .

المطلب الأول

﴿ تاريخ المجتمع الفارسي ﴾

لقد تعرض المجتمع الفارسي الى اضطرابات كثيرة اجتماعية وعقائدية ،
من أهمها ظهور دعوتين خطيرتين :

الأولى : على يد ماني في القرن الثالث المسيحي ، إذ دعا الى حياة العزوبة ،
وحرم النكاح .

والثانية : على نقيض تلك الدعوة ، كانت على يد مزدك في القرن الخامس ،
الذي أعلن أن الناس ولدوا سواء لا فرق بينهم فينبغي أن يعيشوا سواء .

ولقد حظيت هذه الدعوة بإقبال كثير من الناس الذين استهوتهم
الشهوات والملذات ، ذلك أن مزدك أحل الفساد ، وأباح الأموال ، وجعل
الناس شركاء فيها كاشتراكهم في الماء والنار والكأ^(١) .

يقول الطبري : افترض السفلة ذلك واغتنموه ، وكاتفوا مزدك وأصحابه
، وشايعوهم ، فابتلي الناس بهم ، وقوي أمرهم ، حتى كانوا يدخلون على

(١) الشهرستاني : محمد أحمد ، الملل والنحل ، مكتبة مصطفى الحلبي ، مصر ،

١٣٨١ هـ - ١٩٦١ م ، ٢٤٩/١ .

الرجل في داره فيغلبونه على منزله ونسائه وأمواله ، لا يستطيع الامتناع منهم . ولم يثبتوا قليلاً حتى صار لا يعرف الرجل منهم ولده ولا المولود أباه^(١) .

أما عقيدتهم ، فقد كانوا يعبدون النار ، تلك العقيدة التي انحدرت من مذهب زرادشت الذي كان يرى أن النور رمز الإله ، كما كانوا يقصدون القومية الفارسية ، ويرون أن لها فضلاً على سائر الأجناس والأمم ، وأن الله قد خصها بمواهب ومنح لم يشرك فيها أحداً ، وكانوا ينظرون إلى الأمم حولهم نظرة ازدراء وامتهان ، ويلقبونها بألقاب فيها الاحتقار والسخرية^(٢) .

تلك هي حالة فارس يوم أن جاء محمد ﷺ إلى الوجود ، شيوع في الأعراض ، وعبادة للنار ، وتعصب قومي أهوج .

لقد كان تأثير فارس على الدولة الإسلامية بعد الفتح كبيراً جداً في جانبي الخير والشر ، فقد استطاعت الدولة الإسلامية وفي خلافة بني العباس خاصة أن تحتضن نخبة من العلماء والأدباء والمفسرين والمحدثين والفقهاء بما تملكه الدولة من مؤسسات ومدارس وإمكانيات هائلة ، كالبخاري ، وأبي حنيفة ، وابن ماجه ، والترمذي ، والنسائي ، وغيرهم كثير .

(١) الطبري ، التاريخ ، ٩٢/٢ - ٩٣ .

(٢) الندوي : أبو الحسن ، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ص ٦٢ .

وهذا مصداق لحديث رسول الله ﷺ وهو يشير إلى سلمان الفارسي رضي الله عنه ويقول : ﴿ لو كان الايمان عند الثريا لناله رجال من هؤلاء ﴾ ^(١).

إلا أن الجماهيرية من بلاد فارس ، والتي دخلت في الاسلام بعد فتح العراق كانت تداخل عقولها كثير من الرواسب العقائدية والاجتماعية المنحرفة ، مما كان له الأثر الكبير في مسيرة الدولة الاسلامية الى اليوم . فقد دفع الفرس في مؤسسة العصمة والتعلق بغير الله تعالى ، وذلك في سبيل إحياء الثنائية في الفكر الاعتقادي . والأصل في منهجية الاسلام موالاة آل البيت ومحبتهم والافتداء بهم بكل ما تعني هذه الكلمات من معان ، ولكن العصمة انتهت بختم الرسالة ، ومن ادعى تشريعاً بعد محمد ﷺ فقد كفر .

(١) رواه مسلم بن الحجاج النيسابوري (ت ٢٦١ هـ) ، صحيح مسلم ، دار احياء التراث العربي - بيروت ، ١٩١/٧ - ١٩٢ ، برقم (١٧٥١) .

المطلب الثاني

﴿ مكاتبة كسرى ، ونتاجها ﴾

من محمد رسول الله الى كسرى عظيم فارس :

سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله ، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله .

أدعوك بدعاء الله ، فإنني أنا رسول الله الى الناس كافة ، لأنذر من كان حياً ، ويحق القول على الكافرين ، فأسلم تسلم ، فإن أبيت فإن إثم المجوس عليك^(١) .

دراسة الوثيقة :

في البخاري : إن رسول الله ﷺ بعث بكتابه الى كسرى مع عبد الله بن حذافة السهمي ، فأمر أن يدفعه الى عظيم البحرين ، فدفعه عظيم البحرين

(١) الزيلعي : جمال الدين أبي محمد عبد الله بن يوسف الحنفي (ت ٧٦٢ هـ) ، نصب الراية ، الطبعة الأولى ، مطبعة دار المأمون - مصر ، ١٩٣٨ م ، ٤/٤٢١ ، ابن سيد الناس ، ٢٦٢/٢ - ٢٦٤ ، حميد الله ، برقم (٥٣) .

الى كسرى ، فلما قرأه ، مزقه ، فحسبت القائل : هو الزهري : أن ابن المسيب قال : فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يُمزَّقوا كل ممزق^(١) .
و (كسرى) بالفارسية خسرو ، أي واسع الملك ، ويطلق على ملوك فارس الساسانيين^(٢) .

وقد ولد النبي ﷺ على عهد كسرى الأول أنوشروان ، وتولى الملك بعد أنوشروان ابنه هرمز الرابع ، فلما توفي خلفه كسرى الثاني أبرويز ، وهو الذي وجه النبي ﷺ إليه كتابه . وكان سفير النبي ﷺ الى كسرى هو عبد الله بن حذافة القرشي السهمي ، وكان كسرى قد حكم سبعاً وثلاثين سنة . وكتب كسرى الى باذان عامله على اليمن : ((أن ابعث من عندك رجلين جليدين الى هذا الرجل الذي بالحجاز ، فليأتياني بخبره)) .

فبعث باذان قهرمانه ورجلاً آخر معه ، وكتب معهما كتاباً ، فقدموا المدينة المنورة ، فدفعا كتاب باذان الى النبي ﷺ ، فتبسم رسول الله ﷺ ودعاهما الى الاسلام ، وفرائصهما ترعد ، وقال : ﴿ ارجعا عني يومكما هذا حتى تأتيا في الغد ، فأخبركما بما أريد ﴾ ، وجاءاه من الغد ، فقال لهما : ﴿ أبلغا صاحبكما أن ربي قد قتل ربه كسرى في هذه الليلة لسبع ساعات

(١) البخاري ، الصحيح ، كتاب (المغازي) ، باب (كتاب النبي ﷺ الى كسرى وقيصر) ، ٩٦/٨ .

(٢) ابن منظور ، لسان العرب ، ٤٥٧/٦ .

منها ، وهي ليلة الثلاثاء لعشر ليال مضين من جمادى الأولى سنة سبع ، وأن الله تبارك وتعالى سلط عليه ابنه شيرويه فقتله ﴿﴾ ، فرجعا الى باذان بذلك ، فأسلم هو والأبناء الذين باليمن ^(١) .

إن الخطاب مع كسرى لا يسمى وثيقة سياسية يلتزم بها طرفا الخطاب ؛ بل هي من المحاولات النبوية الناجحة ، فقد جعل الله تعالى هذا الخطاب سبباً لتمزيق ملك كسرى . وفي هذه المحاولة عدة فوائد منها أن المسلمين في مسيرتهم الدعوية الاسلامية يبلغون دين الله تبارك وتعالى ، ولا يطلبون النتائج المستعجلة فقد يكون التأخير خيراً من التعجيل ، والله هو الذي يقدر الخير ، ويتولى دعوته ودينه وأوليائه بالنصر والتمكين .

فالمسلمون دعاة وليسوا قضاة ، فننطلق من قاعدة الخوف على الناس ومحبتهم في تبليغهم الاسلام .

وقد كان التعويض عن كسرى ثميناً فقد أسلم باذان كردة فعل لإيصار الحق بعد المراسلة النبوية مع كسرى . وبعد ذلك كان لهذا الرجل موقف ثمين يوم أن ارتد أهل اليمن ، وكان له أثر كبير في قتل الأسود العنسي ، فأفلح باذان ومن معه حين أخفق كسرى ومن معه من المجوس ^(٢) .

(١) ابن سعد ، الطبقات ، ٢٦٠/١ .

(٢) محمود شيت خطاب ، السفارات النبوية ، ص ٦٩ .

﴿ الوصف العام لرسائل الرسول ﷺ ﴾

يلاحظ الباحث أن الوصف العام لكتب الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى الملوك والأمراء يكاد يكون واحداً ، ويمكننا أن نستخرج منها الأمور الآتية :

١- نلاحظ أن جميع كتب الرسول ﷺ التي أرسلها إلى الملوك والرؤساء يفتتحها بالبسملة ، والبسملة آية من كتاب الله تبارك وتعالى ، وفي تصدير الكتاب بها أمور مهمة ، كاستحباب بدء الكتب بـ (بسم الله الرحمن الرحيم) اقتداءً برسولنا محمد ﷺ ، فقد واظب عليها في كتبه ﷺ ، كما فيها جواز كتابة آية من القرآن الكريم في كتاب ، وإن كان هذا الكتاب موجهاً إلى الكافرين ، وفيها جواز قراءة الكافر لآية أو أكثر من القرآن الكريم ، لأن كتب رسول الله ﷺ تضمنت البسملة وغيرها ^(١) .

٢- ونستنبط من رسائل رسول الله ﷺ إلى الملوك والأمراء الآتي :-

- أ- مشروعية إرسال السفراء المسلمين إلى زعماء الكفر ؛ لأن كل كتاب يكتبه الرسول ﷺ يكلف رجلاً من المسلمين يحمله إلى المرسل إليه .
- ب- مشروعية الكتابة إلى الكفار في أمر الدين والدنيا .

(١) الصلابي ، السيرة النبوية ، ص ٧١٩ .

ج - ينبغي أن يكتب في الكتاب أسم المرسل والمرسل إليه ، وموضوع الكتاب وهو واحد في جميع الكتب ، ويتلخص في دعوتهم إلى الإسلام .

د - عدم بدء الكافر بتحيةة الإسلام ، وهي السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، ذلك لأن النبي ﷺ لم يطرح السلام في كتبه على ملك من الملوك ، بل كان يصدر كتبه بقوله : السلام على من اتبع الهدى ، أي آمن بالإسلام^(١) .

﴿ نتائج إرسال الكتب إلى الملوك والأمراء ﴾

أظهر الرسول ﷺ في سياسته الخارجية دراسة سياسية فاقت التصور ، وأصبحت مثلاً لمن جاء بعده من الخلفاء . كما أظهر ﷺ قوة وشجاعة فائقتين ، فلو كان غير رسول الله ﷺ لخشي عاقبة ذلك الأمر ، لاسيما أن بعض هذه الكتب قد أرسلت إلى ملوك أقوىاء على تخوم بلاده ، كهرقل ، والمقوقس ، وغيرهم . ولكن حرص رسول الله ﷺ وعزيمته على إبلاغ دعوة الله ، وإيمانه المطلق بتأييد الله ﷻ . كل ذلك دفعه لأن يقدم على ما أقدم عليه ، وقد حققت هذه السياسة النتائج الآتية :-

أ - وطد الرسول ﷺ بهذه السياسة أسلوباً جديداً في التعامل الدولي لم تكن تعرفه البشرية من قبل^(١) .

(١) الصلابي ، السيرة النبوية ، ص ٧٢٠ ، وما بعدها .

ب - أصبحت الدولة الإسلامية لها مكانتها وقوتها وفرض وجودها على الخارطة الدولية لذلك الزمان .

ج - كشفت للرسول ﷺ نوايا الملوك والأمراء وسياستهم نحوه ، وحكمهم على دعوته .

د - كانت مكاتبة الملوك خارج شبه جزيرة العرب تعبيراً عملياً على عالمية الدعوة

الإسلامية ، تلك العالمية التي أوضحتها آيات نزلت في العهد المكي مثل قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾^(٢) .

وهكذا فإن رسائل النبي ﷺ إلى الأمراء والملوك المجاورين لبلاده ، تعد نقطة تحول في سياسة دولة الرسول ﷺ الخارجية ، فعظم شأنها وأصبحت لها مكانة دينية وسياسية بين الدول ، وذلك قبل فتح مكة . كما أن هذه السياسة مهدت لتوحيد الرسول ﷺ لسائر أنحاء بلاد العرب في عام الوفود^(٣) .

(١) أبو فارس ، غزوة الحديبية ، ص ٢٤٢ .

(٢) سورة الأنبياء ، الآية /١٠٧ .

(٣) د. علي معطي ، التاريخ السياسي والعسكري لدولة المدينة ، ص ٣٥١ ، الصلابي ، السيرة النبوية ، ص ٧٢٢ .

﴿ قائمة المصادر والمراجع ﴾

- بعد القرآن الكريم .

أولا :- المصادر .

* - أحمد بن حنبل : الامام أبو عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني (ت ٢٤١ هـ) .

١ - المسند : مؤسسة قرطبة ، القاهرة (د.ت) .

* - ابن أبي الربيع : شهاب الدين أحمد بن محمد (ت ٢٢٧ هـ) .

٢ - سلوك المالك في تدبير الممالك ، مكتبة المسجد الأحمدى بطنطا ، ١٢٨٦ هـ .

* - ابن الأثير : عز الدين علي بن أبي الكرم الشيباني (ت ٦٣٠ هـ) .

٣ - أسد الغابة في معرفة الصحابة ، المكتبة الاسلامية ، بيروت (د . ت)

٤ - النهاية في غريب الحديث والأثر ، دار احياء الكتب العربية ، (١٣٨٣ هـ - ١٩٦٣ م) .

* - البخاري : أبو عبد الله محمد بن اسماعيل الجعفي (ت ٢٥٦ هـ) .

٥ - صحيح البخاري ، تحقيق : الدكتور مصطفى بن ديب البغا ، دار ابن كثير ، اليمامة ، دمشق (ط ١ ، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م) .

- * - الترمذي : الامام أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي السلمى (ت ٢٧٩ هـ) .
- ٦ - السنن ، تحقيق : أحمد محمد شاكر وآخرون ، دار احياء التراث العربي - بيروت .
- * - ابن تيمية : أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام (ت ٧٢٨ هـ) .
- ٧ - اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم ، دار الحديث ، القاهرة (١٩٨٣ م) .
- * - الجاحظ : أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥ هـ) .
- ٨ - استحقاق الامامة ، حققه : حسن السندوبي ، ضمن رسائل الجاحظ ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، ١٩٣٣ م .
- * - الجويني : عبد الملك بن أبي محمد بن عبد الله الجويني (ت ٤٧٨ هـ) .
- ٩ - غياث الأمم ، تحقيق وتقديم : الدكتور مصطفى حلمي ، والدكتور فؤاد عبد المنعم ، دار الدعوة ، الاسكندرية ، ط ١ ، ١٩٧٩ م .
- * - ابن حجر : شهاب الدين أحمد بن علي العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ) .
- ١٠ - فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان (د . ت) .
- * - خليفة بن خياط العصفري (ت ٢٤٠ هـ) .
- ١١ - تاريخ ، تحقيق : سهيل زكار ، دمشق (١٩٦٧ م) .

- * - الرازي ، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر (ت ٦٠٦ هـ) .
- ١٢ - مختار الصحاح ، دار الرسالة - الكويت ، ١٩٨٣ م .
- * - الراغب الأصفهاني : أبو القاسم ، الحسين بن محمد (٥٠٢ هـ) .
- ١٣- المفردات في غريب القرآن ، تحقيق : سيد كيلان ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، (د.ت) .
- * - الزبيدي ، السيد محمد مرتضى الحسيني .
- ١٤ - تاج العروس من جواهر القاموس ، طبعة وزارة أوقاف الكويت (د.ت) .
- * - الزمخشري ، جار الله أبي القاسم محمود بن عمر (ت ٥٣٨ هـ) .
- ١٥ - أساس البلاغة ، الطبعة الأولى ، دار الفكر - بيروت ، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٦ م .
- * - الزيلعي : جمال الدين أبي محمد عبد الله بن يوسف الزيلعي الحنفي (ت ٧٦٢ هـ) .
- ١٦ - نصب الراية لأحاديث الهداية ، ، الطبعة الأولى ، مطبعة دار المأمون - مصر ، ١٩٣٨ م .
- * - الأسيدي : محمد بن محمد بن خليل (ت ٨٥٥ هـ) .
- ١٧- التيسير والاعتبار والتحرير والاختبار ، تحقيق : د. عبد القادر أحمد ، دار الفكر العربي ، ١٩٨٩ م .

- * - ابن سعد : محمد بن سعد بن منيع (ت ٢٣٠ هـ) .
- ١٨ - الطبقات الكبرى ، بيروت ، لبنان (١٩٥٧ م) .
- * - السهمودي : نور الدين علي (ت ٩١١ هـ) .
- ١٩ - خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى (صلى الله عليه وسلم) ، دار
الطباعة الخديوية ، مصر (١٢٨٥ هـ) .
- * - ابن سيد الناس : محمد بن محمد بن احمد الأندلسي (ت ٣٠٣ هـ)
- ٢٠ - عيون الأثر فنون المغازي والشمائل والسير ، دار الأفاق الجديدة ،
بيروت ، (ط ٢ ، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م) .
- * - سيف الدين الآمدي .
- ٢١ - الإحكام في أصول الأحكام ، دار الحديث ، القاهرة (د . ت) .
- * - ابن سينا : أبو علي الحسين (ت ٤٢٨ هـ) .
- ٢٢ - رسالة في السياسة ، نشرها للآباء اليسوعيون ، لويس معلوف ،
وخليل إده ، ولويس شيخو ، مجلة المشرق ، المطبعة الكاثوليكية ،
بيروت ، ١٩١١ م .
- * - الشاطبي : أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الغرناطي (ت ٧٩٠ هـ) .
- ٢٣ - الموافقات في أصول الشريعة ، المكتبة التجارية الكبرى ، مصر
(د . ت) .

- * - الشهرستاني : محمد أحمد .
- ٢٤ - الملل والنحل ، ، مكتبة مصطفى الحلبي ، مصر ، ١٣٨١ هـ - ١٩٦١ م .
- * - الشوكاني : محمد بن علي بن محمد (ت ١٢٥٥ هـ) .
- ٢٥ - إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول ، وبهامشه شرح الشيخ احمد بن قاسم العبادي الشافعي ، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح ، القاهرة (١٣٢١ هـ) .
- * - الطرطوشي ، أبو بكر بن أيوب الفهري (ت ٥٢٠ هـ) .
- ٢٦ - سراج الملوك ، المطبعة الأزهرية ، ١٣١٩ هـ .
- * - ابن طولون : محمد بن علي بن طولون الدمشقي (ت ٩٥٣ هـ) .
- ٢٧ - اعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين ، تحقيق : محمود الأرنؤوط ، نشر مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م .
- * - الطبري : أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الأملي (ت ٣١٠ هـ) .
- ٢٨ - تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم ، دار المعارف ، مصر ، (١٩٧٠ م) .
- ٢٩ - تفسير الطبري (جامع البيان في تأويل آي القرآن) ، دار الفكر ، بيروت (د . ت) .
- * - أبو عبيد : القاسم بن سلام .
- ٣٠ - الأموال ، مؤسسة ناصر الثقافية ، بيروت ، (د . ت) .

* - ابن عبد البر : أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد القرطبي
(ت ٤٦٣ هـ) .

٣١ - الاستيعاب لمعرفة الأصحاب (د . م) (د . ت) .

* - الغزالي : أبو حامد محمد بن محمد (ت ٥٠٥ هـ) .

٣٢ - إحياء علوم الدين ، دار إحياء التراث العربي (د . ت) .

* - الغزالي : محمد .

٣٣ - الإسلام والاستبداد السياسي ، دار الكتاب العربي ، القاهرة
(د . ت) .

٣٤ - فاتحة العلوم ، مكتبة الجندي ، ١٣٢٢ هـ .

٣٥ - فقه السيرة ، تحقيق : محمد ناصر الدين الألباني ، دار الدعوة
للطباعة الإسكندرية ، القاهرة (ط ٦ ، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م) .

* - الفارابي : أبو نصر (ت ٣٣٩ هـ) .

٣٦ - السياسة المدنية (مبادئ الموجودات) ، تحقيق : فؤاد متري نجار
، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩٦٤ م .

* - ابن فارس ، أبي الحسن أحمد بن فارس بن زكريا (ت ٣٩٥ هـ) .

٣٧ - معجم مقاييس اللغة ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، دار
الجيل ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م .

* - أبو فارس :

٣٨ - آثار ابن باري ، إعداد وتصنيف : عمار الطالبي ، دار اليقظة العربية بالاشتراك مع دار الشركة الجزائرية ، الجزائر (١٩٦٨ م) .

* - الفراهيدي ، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد (ت ١٧٥ هـ) .

٣٩ - كتاب العين ، تحقيق : الدكتور مهدي المخزومي ، د. إبراهيم السامرائي ، مطبعة الحرية ، بغداد ، (١٩٨٧ م) .

* - الفراء : أبو علي الحسين بن محمد .

٤٠ - رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة ، بيروت (ط ٢ ، ١٩٧٢ م) .

* - الفيومي : أحمد بن محمد بن علي (ت ٧٧٠ هـ) .

٤١ - المصباح المنير في غريب شرح الكبير للرافعي ، بيروت ، لبنان (د.ت) .

* - ابن قدامة : موفق الدين عبد الله بن قدامة المقدسي (ت ٦٢٠ هـ) .

٤٢ - المغني ، دار الكتاب العربي ، بيروت (١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م) .

* - ابن القيم : أبو عبد الله (ت ٧٥١ هـ) .

٤٣ - زاد المعاد في هدي خير العباد ، حققه : شعيب الأرنؤوط ، وعبد القادر ، مؤسسة الرسالة ، (ط ١ ، ١٣٩٩ هـ) .

- ٤٤ - الطرق الحكمية في السياسة الشرعية ، تحقيق : د. محمد جميل غازي ، مطبعة المدني ، القاهرة ، ١٩٦١ م .
- *- ابن كثير : أبو الفداء عماد الدين اسماعيل بن كثير القرشي (ت ٧٧٤ هـ) .
- ٤٥ - البداية والنهاية ، مطبعة السعادة ، مصر (١٣٥١ هـ) .
- *- النسائي : أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي (ت ٣٠٣ هـ) .
- ٤٦ - السنن ، الدار المصرية ، القاهرة (د . ت) .
- *- النسفي : أبو بركات عبد الله بن احمد محمود النسفي (ت ٧٠١ هـ) .
- ٤٧ - تفسير القرآن الجليل المسمى بـ (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- *- الماوردي : أبو الحسن (ت ٤٥٠ هـ) .
- ٤٨ - الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٨٨ م .
- ٤٩ - التحفة الملوكية في الآداب السياسية ، تحقيق : د. فؤاد عبد المنعم ، مؤسسة شباب الجامعة ، ١٩٩٣ م .

* - ابن منظور : جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم الأفرريقي المصري
(ت ٧١١ هـ) .

٥٠ - لسان العرب ، مطبعة دار بيروت للطباعة والنشر ، لبنان
(١٣٧٥ هـ - ١٩٥٦ م) .

* - الاندلسي : ابن عبد ربه .

٥١ - العقد الفريد ، الطبعة الثالثة ، دار إحياء التراث العربي - بيروت -
لبنان ، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م .

* - مسلم : بن الحجاج النيسابوري (ت ٢٦١ هـ) .

٥٢ - صحيح مسلم ، دار احياء التراث العربي - بيروت .

* - المودودي . ابو الأعلى .

٥٣ - حول الدين والدولة (د . ت) ، (د . م) .

* - الواقدي : ابو عبد الله محمد بن عمر الواقدي (ت ٣٠٧ هـ) .

٥٤ - المغازي ، تحقيق : ارنست جونز ، عالم الكتب ، بيروت ،
(ط ٣ ، ١٤٠٤ هـ) .

* - ابن هشام : بن محمد عبد الملك بن هشام المعافري (ت ٢١٨ هـ) .

٥٥ - السيرة النبوية ، تحقيق : طه عبد الرؤوف سعد ، مكتبة الكليات
الازهرية ، القاهرة (د . ت) .

ثانيا / المراجع :

* - ابراهيم بن علي الوزير .

٥٦ - علي مشارف القرن الخامس عشر الهجري ، دار الشروق ، بيروت ، (ط ١ ، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م) .

* - أحمد راتب عرموش :

٥٧ - قيادة الرسول (صلى الله عليه وسلم) السياسية والعسكرية ، دار النفائس (ط ١ ، ١٤١٩ هـ - ١٩٨٩ م) .

* - أحمد عبد الغني المنجولي الجمل .

٥٨ - هجرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) في القرآن والسنة ، دار الوفاء ، مصر ، (ط ١ ، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م) .

* - أحمد : د. فؤاد عبد المنعم .

٥٩ - تحقيق حسن السلوك الحافظ لدولة الملوك لمحمد بن محمد بن عبد الكريم الشافعي (ت ٧٧٤ هـ) ، مؤسسة شباب الجامعة ، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م .

* - أحمد : لبيد إبراهيم .

٦٠ - عصر النبوة ، دار الحكمة ، بغداد (١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م) .

- * - أحمد حمد (الدكتور) .
- ٦١ - الجانب السياسي في حياة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، دار القلم ، الكويت (ط ١ ، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م) .
- * - أحمد محمود شاكر :
- ٦٢ - أباطيل وأسمار ، القاهرة ، مطبعة المدني ، (ط ٢ ، ١٩٧٢ م) .
- * - اسماعيل راجي الفاروقي (الدكتور) .
- ٦٣ - في النظرية السياسية من منظور إسلامي ، سلسلة الرسائل الجامعية ، المعهد العالمي للفكر ، القاهرة ، (ط ١ ، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م) .
- * - أنور الجندي :
- ٦٤ - تصحيح المفاهيم الإسلامية ، دار الاعتصام ، القاهرة (١٩٧٨ م) .
- * - أبو هيف : علي طارق (الدكتور) .
- ٦٥ - القانون الدولي العام ، (ط ٨ ، ١٩٦٦ م) .
- * - البابي : محمد سعيد .
- ٦٦ - عمدة التحقيق في التقليد والتفليق ، دمشق (١٣٤١ هـ - ١٩٢٣ م) .
- * - البدري : عبد العزيز .
- ٦٧ - حكم الإسلام في الاشتراكية ، المكتبة العلمية ، المدينة المنورة (ط ٢ ، ١٩٦٥ م) .

- * - الباشا : عبد الرحمن رأفت (الدكتور) .
- ٦٨- صور من حياة الصحابة ، دار الادب الإسلامية ، (ط ١ ، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م)
- * - باشميل : محمد احمد .
- ٦٩- صلح الحديبية ، دار الفكر ، (ط ٣ ، ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م)
- * - البليهشمي ، محمد صالح :
- ٧٠- المدينة المنورة ، مطابع جامعة الملك سعود ، الرياض (د . ت) .
- * - البنداق : محمد صالح :
- ٧١- هداية الرحمن لألفاظ آيات القرآن ، دار الآفاق الجديدة (د . ت)
- * - البوطي : محمد سعيد رمضان (الدكتور)
- ٧٢ - فقه السيرة ، دار الفكر ، (ط ٥ ، ١٩٧٢ م) .
- * - جان توشار .
- ٧٣- تاريخ الفكر السياسي ، ترجمة : د. علي مقلد ، منشورات دار الاستقلال ، بيروت ، ٢٠٠١ م .
- * - الجميلي : خالد رشيد (أستاذنا الدكتور)
- ٧٤- أحكام الأحلاف والمعاهدات في الشريعة الإسلامية والقانون ، دار الحرية للطباعة ، بغداد (١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م) .

* - جوردن هلفيش .

٧٥- التفكير التأملي ، ترجمة : السيد محمد العزاوي ، وتحليل ابراهيم شهاب ، دار النهضة العربية ، القاهرة (١٩٦٣ م).

* - حامد بدر .

٧٦- الاسلام قلعة الانسانية ، المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية (١٣٩٢ هـ) .

* - حامد عبد الله ربيع (الدكتور) .

٧٧- سلوك المالك في تدبير الماليك لابن ابي الربيع ، مطبعة دار الشعب ، القاهرة (١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م) .

* - حبنكه : عبد الرحمن حسن الميداني .

٧٨- الإسلام الصافي ، وزارة الحج والاقواف ، المملكة العربية السعودية (١٣٩١ هـ - ١٩٧٢ م) .

* - حسام حميدة :

٧٩- في رحاب الإسلام ، بغداد ، العراق ، (ت . د)

* - حسن الحنفي (الدكتور)

٨٠- التراث والتجديد ، المركز العربي للبحث والنشر ، القاهرة ، (١٩٨٠ م) .

* - حسن خالد :

٨١ - مجتمع المدينة قبل الهجرة وبعدها ، دار النهضة العربية ، بيروت
(١٩٧٦ م) .

* - حسن فتح الباب :

٨٢ - مقومات السفراء في الإسلام ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ،
القاهرة (١٩٧٠ م) .

* - حمدي إبراهيم :

٨٣ - حول المجتمع الإسلامي ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ،
العدد (١٢٧) ، القاهرة (د.ت) .

* - الحديثي : خليل اسماعيل (الدكتور) .

٨٤ - المعاهدات غير المتكافئة ، مطبعة جامعة بغداد ، (١٩٨٠ م) .

* - خليل : د. عماد الدين .

٨٥ - حول القيادة والسلطة في التاريخ الاسلامي ، مكتبة النور ، ط١ ،
١٤٠٥هـ - ١٩٨٥ م .

* - دراز : محمد عبد الله .

٨٦ - دستور الأخلاق في القرآن الكريم ، مؤسسة الرسالة ، تعريب :
د. عبد الصبور شاهين ، ط٨ ، ١٤١٢هـ - ١٩٩١ م .

- * - الدمنهوري ، أحمد عبد المنعم (ت ١١٩٢ هـ) .
- ٨٧ - النفع الغزير في نفع السلطان والوزير ، تحقيق : د. فؤاد عبد المنعم ، مؤسسة شباب الجامعة الاسكندرية ، ط ١ ، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م .
- * - زكي نجيب محمود (الدكتور) .
- ٨٨ - تجديد الفكر العربي ، دار الشروق ، القاهرة (ط ٦ ، ١٩٨٠ م) .
- * - زيدان ، عبد الكريم (أستاذنا الدكتور) .
- ٨٩ - المستفاد من القصص القرآني .
- * - السباعي ، مصطفى (الدكتور) .
- ٩٠ - السيرة النبوية دروس وعبر ، المكتب الاسلامي ، بيروت ، لبنان ، (ط ١ ، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م) .
- * - السامرائي ، عبد الله سلوم (الدكتور) .
- ٩١ - الاسلام والقومية ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، العراق (١٤٠٥ هـ _ ١٩٨٥ م) .
- * - سعيد المهجر (الدكتور) .
- ٩٢ - العلاقات الخارجية للدولة الإسلامية (د.ت) (د.م) .
- * - سالم عبد العزيز محمود .
- ٩٣ - البحث الاجتماعي ، جامعة الأزهر ، القاهرة (د . ت) .

* - سليم حجازي .

٩٤- منهج الإعلام الإسلامي في صلح الحديبية ، دار المنار (١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م).

* - سلمان العودة .

٩٥ - قضايا المنهج ، دار مكتبة القدسي (ط ٣ ، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م) .

* - السنهوري : د. عبد الرزاق .

٩٦ - فقه الخلافة وتطورها لتصبح عصبه أمم شرقية ، الهيئة المصرية للكتاب ، ط ٢ ، ١٩٩٣ م .

* - السيد رزق الطويل .

٩٧- العقيدة في الإسلام منهج حياة ، وزارة الأوقاف ، القاهرة (١٤٠٢ هـ - ١٩٨١ م).

* - سيد قطب :

٩٨- خصائص التصور الإسلامي ومقوماته ، دار الشروق ، القاهرة (١٤٠٦ هـ).

* - الشناوي : د. محمود أيوب .

٩٩ - الفكر السياسي الاسلامي في القرنين الثامن والتاسع الهجريين بين النقل والعقل ، مركز الكتاب للنشر ، القاهرة ، ط ١ ، ٢٠٠٦ م .

*- الصعيدي : عبد المتعال .

١٠٠ - السياسة في العهد النبوي ، دار الفكر العربي (د - م) ، (ت - د)

* - الصّلابي : محمد علي (الدكتور) .

١٠١ - السيرة النبوية الصحيحة ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ،

(١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م) .

١٠٢ - فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم ، دار المعرفة ، بيروت ،

لبنان (١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م) .

* - طه حسين :

١٠٣ - مستقبل الثقافة في مصر ، دار المعارف ، القاهرة (١٩٤٤ م) .

* - ظافر القاسمي :

١٠٤ - نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الاسلامي ، دار النفائس (ط ٦ ،

١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م) .

* - عارف : نصر محمد .

١٠٥ - المنهجية الاسلامية ، تقديم : منى أبو الفضل ، طبع المعهد

العالمي للفكر الاسلامي ، ط ١ ، ١٩٩٤ م .

* - عبد الباسط عبد المعطي (الدكتور).

١٠٦ - أسس ومعايير تحديد الحاجات الاجتماعية في الوطن العربي ،
استطلاع لبعض القضايا النظرية والمنهجية ، منشورات المعهد العربي
للتخطيط ، الكويت (١٩٨٩ م).

١٠٧ - البحث الاجتماعي ، محاولة نحو رؤية نقدية لمنهجه وأبعاده ،
دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية (١٩٨٤ م).

* - عبد الحلیم عویس (الدكتور)

١٠٨ - أوراق ذابلة من حضارتنا ، دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية ،
دار الشروق ، بيروت (ط ٢ ، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م).

* - عبد القادر عوده .

١٠٩ - الإسلام وأوضاعنا السياسية ، مؤسسة الرسالة - بيروت
(د . ت) .

* - عبد القادر هاشم رمزي (الدكتور)

١١٠ - الدراسات الانسانية في ميزان الرؤية الاسلامية ، دراسة مقارنة ،
دار الثقافة ، الدوحة ، قطر (١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م).

* - عبد الرحمن البر (الدكتور).

١١١ - الهجرة النبوية المباركة ، دار الكلمة ، المنصورة ، مصر ، (ط ٣ ،
١٩٩٦ م) .

- * - عبد الله الشقاري (الدكتور).
- ١١٢- اليهود في السنة المطهرة ، دار طيبة ، الرياض ، (ط ٢ ، ١٩٨٠م)
- * - عبد العزيز كامل .
- ١١٣- الاسلام والمستقبل ، دار المعارف ، القاهرة (١٩٧٥م).
- *- عبد الكريم الخطيب :
- ١١٤ - مسلمون وكفى ، دار الشروق ، بيروت ، (ط ٢ ، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م).
- *- عبد المجيد عابدين :
- ١١٥- بين الحبشة والعرب
- *- عثمان : محمد فتحي .
- ١١٦ - دولة الفكرة ، دار القلم - الكويت ، ١٩٧٤م .
- * عصام العطية (الدكتور).
- ١١٧- القانون الدولي العام ، مطبعة جامعة بغداد (ط ٢ ، ١٩٨٠م) .
- *- العطار : عبد الناصر (الدكتور)
- ١١٨ - دستور للأمة من القرآن والسنة ، مؤسسة علوم القرآن ، الشارقة ، دولة الامارات (ط ٤ ، ١٩٩٣م) .

*- العلي : صالح احمد (الدكتور)

١١٩ - تنظيمات الرسول (صلى الله عليه وسلم) الادارية في المدينة ،
مجلة المجمع العلمي ، بغداد (١٩٩٧ م) .

١٢٠- الدولة في عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) المجمع العلمي
العراقي ، بغداد (١٩٨٨ م) .

* - علي عبد الواحد وافي (الدكتور) .

١٢١- فقه اللغة ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط ٣ .

*- علي معطي (الدكتور) .

١٢٢- التاريخ السياسي والعسكري لدولة المدينة في عهد الرسول (صلى
الله عليه وسلم) مؤسسة المعارف ، بيروت ، لبنان (ط ١ ، ١٤١٩ هـ -
١٩٩٨ م) .

* - عماد الدين خليل (أستاذنا الدكتور)

١٢٣- دراسات في السيرة النبوية ، دار النفائس ، بيروت ، لبنان ،
(ط ١١ ، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م) .

١٢٤- القيادة والسلطة في التاريخ الإسلامي ، مكتبة النور ، القاهرة ،
(١٩٨٥ م) .

* - عمر عبيد حسنة .

١٢٥- نظرات في مسيرة العمل الإسلامي ، كتاب الأمة ، العدد (٨) ،
رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية ، قطر (١٤٠٥ هـ).

* - العمري : أكرم ضياء (الدكتور)

١٢٦- التراث والمعاصرة ، سلسلة فصلية ، كتاب الأمة ، العدد العاشر ،
رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية ، الدولة ، (١٤٠٥ هـ).

١٢٧ - السيرة النبوية الصحيحة ، مكتبة العلوم والحكم بالمدينة المنورة
(ط ١ ، ١٤٢٠ - ١٩٩٥ م).

١٢٨- المجتمع المدني في عصر النبوة ، خصائصه وتنظيماته الأولى ،
الجامعة الإسلامية ، المدينة المنورة ، (١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م).

* - عون الشريف قاسم (الدكتور).

١٢٩ - دبلوماسية محمد (صلى الله عليه وسلم) ، دراسة لنشأة الدولة
الإسلامية في ضوء رسائل النبي (صلى الله عليه وسلم) ومعاهداته ، قسم
التأليف والنشر ، الخرطوم (د . ت).

١٣٠ - مسلمون ولا إسلام ، العربي ، العدد (٢٥٠) الكويت (١٩٧٩ م) .

١٣١- نشأة الدولة الإسلامية على عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم)
دار الكتاب اللبناني ، بيروت (ط ٢ ، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م).

* - الغضبان ، منير محمد.

١٣٢- التحالف السياسي في الاسلام ، دار السلام ، القاهرة (ط ٢ ،
١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م).

١٣٣- المنهج الحركي للسيرة النبوية ، تحقيق : طه عبد الغفور سبع ،
مكتبة الكليات الأزهرية ، الأزهر ، القاهرة (د . ت).

* - فاروق يوسف .

١٣٤- دراسات في الاجتماع السياسي ، مكتبة عين شمس ، القاهرة
(١٩٨٠ م).

* - الفراجي ، عدنان علي (أستاذنا الدكتور).

١٣٥ - الحياة الفكرية في المدينة المنورة في القرنين الأول والثاني للهجرة ،
الموسوعة العلمية ، الجامعة الإسلامية ، العدد (الثامن) ، بغداد
(١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م).

* - الفهداوي : خالد سليمان (الدكتور) .

١٣٦ - الفقه السياسي للوثائق النبوية ، دار عمار للنشر ، عمان ، الأردن
(ط ١ ، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م).

* الفيومي : محمد ابراهيم (الدكتور)

١٣٧- تأملات في أزمة العقل العربي ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة
(١٩٨٣ هـ).

*- أبو القرايا : بشير سعيد محمد .

١٣٨ - البعد السياسي للمسجد ، رسالة كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ،
(د - م) - (د - ت) .

*- كامل الدقس (الدكتور) .

١٣٩- بين التكوين والتمكين دولة الرسول (صلى الله عليه وسلم) دار
عمار ، عمان ، الاردن (ط ١ ، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م) .

* مالك بن نبي :

١٤٠- بين الرشد والتهيه ، إصدار مالك بن نبي ، دار الفكر ، دمشق
(١٩٧٨م) .

١٤١- شروط النهضة ، ترجمة : كامل مسكاوي ، الدكتور عبد الصبور
شاهين ، دار الفكر ، القاهرة (١٩٦٩م) .

١٤٢- وجهة العالم الاسلامي ، ترجمة : الدكتور عبد الصبور شاهين ،
دار الفكر ، القاهرة (١٩٧٠م) .

*- المبار كفوري : صفي الرحمن .

١٤٣- الرحيق المختوم ، دار الوفاء للطباعة ، المنصورة (ط ٧ ، ١٤٢٦هـ
- ٢٠٠٥م) .

*- المحارب : د. سعيد عبد الله .

١٤٤ - العلاقات الخارجية للدولة الاسلامية ، مؤسسة الرسالة ،
١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م .

*- محسن عبد الحميد (أستاذنا الدكتور)

١٤٥ - المذهبية الاسلامية والتغير الحضاري ، كتاب الامة ، العدد ٦ ،
رئاسة الشؤون الدينية ، قطر (١٤٠٤ هـ) .

*- محمد اسد .

١٤٦ - منهج الإسلام في الحكم ، نقله إلى العربية : منصور محمد ماضي
، دار العلم للملايين ، بيروت (ط ٥ ، ١٩٧٨ م) .

*- محمد بن الشريف .

١٤٧ - الأمثال في القرآن الكريم ، دار المعارف ، القاهرة (١٩٧٥ م) .

*- محمد تقي الأمين الندوي .

١٤٨ - عصر الالحاد ، ترجمة : الدكتور مقتدى حسن ياسين ، مراجعة
وتقديم الدكتور عبد الحلیم عويس ، دار الصحوة للنشر والتوزيع ، القاهرة
(د . ت) .

*- محمد حميد الله :

١٤٩ - مجموعة الوثائق السياسية في عهد النبوي والخلافة الراشدة ، دار
الارشاد ، بيروت (ط ٣ ، ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م) .

- * - محمد عبد الرحمن عوض :
١٥٠- فقه الكلمة ومسؤوليتها في القرآن الكريم والسنة ، دار الأنصار ،
القاهرة (١٣٩٩ هـ) .
- * - محمد فتحي عثمان .
١٥١- دولة الفكر التي أقامها رسول الإسلام (صلى الله عليه وسلم)
عقب الهجرة ، مكتبة وهبه ، القاهرة (د . ت) .
- * - محمد قطب .
١٥٢- منهج التربية الإسلامية ، دار العلم ، القاهرة (د . ت) .
- * - محمد رشيد رضا .
١٥٣- تفسير المنار ، دار المنار ، مصر (ط ٢ ، ١٣٦٦ هـ) .
- * - محمد رفاعي سرور :
١٥٤- حكمة الدعوة ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، (د . ت) .
- * - محمد رواس قلعة جي :
١٥٥- قراءة سياسية للسيرة النبوية ، دار النفائس (ط ٦ ، ١٩٩٦ م) .
- * - محمد زكريا النداف .
١٥٦- الأخلاق السياسية للدولة الإسلامية في القرآن الكريم والسنة النبوية
، دار القلم ، دمشق (ط ١ ، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م) .

- * - محمد سيد طنطاوي .
- ١٥٧- السرايا الحربية في العهد النبوي ، الشركة المصرية للطباعة ، القاهرة (١٩٧١ م).
- * - محمد مبارك (الدكتور)
- ١٥٨- نظام الإسلام العقائدي في العصر الحديث ، دار الدعوة ، الإسكندرية (د.ت).
- * - محمد محمد حسين (الدكتور).
- ١٥٩- حصوننا مهددة من الداخل ، مؤسسة الرسالة ، بيروت (ط ٧ ، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م) .
- * - محمود شيت خطاب (اللواء الركن).
- ١٦٠- السفارات النبوية ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، (د . ت) .
- * - معن زيادة (الدكتور)
- ١٦١ - مدخل لدراسة مصطلحات عصر النهضة السياسية ، مجلة الفكر العربي ، العدد (٣) ، (١٩٧٨ م).
- * - موريس بوكاي :
- ١٦٢- دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة ، دار المعارف ، لبنان (د.ت).

* - ناصر العمر (الدكتور).

١٦٣- العهد والميثاق في القرآن الكريم ، دار العاصمة (ط ١ ، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م).

* - الندوي ، أبو الحسن .

١٦٤- السيرة النبوية ، دار الشق ، جدة ، طبعة أخرى توزيع دار التوزيع والنشر الإسلامية ، القاهرة (ط ٧ ، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م).

١٦٥- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة .

* - هاني المبارك ، وشوقي أبو خليل .

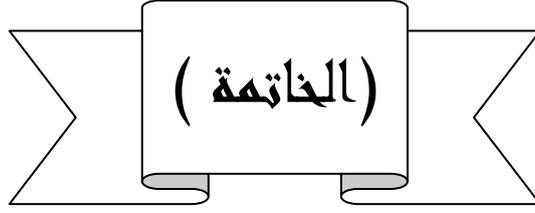
١٦٦- الاسلام والتفاهم والتعايش بين الشعوب ، دار الفكر ، سوريا ، ط ١ ، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م .

* - نيفين عبد الخالق (الدكتورة).

١٦٧- المعارضة في الفكر السياسي الإسلامي ، مكتبة الملك فيصل الإسلامية ، (١٤٠٥هـ) .

* - هيكل ، محمد خير (الدكتور)

١٦٨- الجهاد والقتال في السياسة الشرعية ، دار المنار ، جدة .



الحمد لله حمدا يوافي نعمه ويكافىء مزيده ، ياربنا لك الحمد كما
ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك ، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد ﷺ ،
صلاة وسلاما دائمين متلازمين ، وأترضى عن آله الطيبين الطاهرين ،
وصحابته الغر الميامين .

أما بعد :

ففي ختام هذا البحث توصلت الى نتائج أهمها :

١- إن رسولنا الكريم محمد ﷺ وهو الذي لا ينطق عن الهوى هو أول من
شرع الدستور بكل ما تعنيه هذه الكلمة من مدلول . وهذا ما كان جلياً
في وثيقة المدينة ، وإن هذه الوثيقة قد حددت العلاقة بين الدولة
الإسلامية في المدينة ، وبين سائر الأقليات الدينية والقبلية التي تسكن
في المدينة .

٢- إن الرسول ﷺ عندما انتهى من تنظيم الأوضاع الداخلية ، واستقرار
الأوضاع داخل المدينة . وبعد ذلك انطلق يقيم العلاقات الدعوية
والاجتماعية والسياسية من خلال إرسال الرسل إلى الملوك والقبائل
المتواجدة في شبه جزيرة العرب .

٣- فصلت في البحث هذا بين الرسول ﷺ في البلاغ الديني ، وبين
شخصية النبي ﷺ ، وهو يشاور صحابته ﷺ فيما يستجد من حوادث
، وقد جعله الله تعالى من المساحات المسموح بدخولها للعقل البشري ؛

- لأنها الحرب والمشورة والمكيدة ، وليس منزلاً أنزله الله إياه . وخير دليل ما حدث في صلح الحديبية وغيرها من الأحداث .
- ٤- يتصور كثيرون أن الإسلام له شريعة أخلاقية وعبادية ، وأن هدفه تنمية الصلة الروحية بين العبد والخالق المعبود . والحقيقة أن هذا جزء مهم من الإسلام ، ولكنه ليس كل الإسلام ، فالإسلام منهج متكامل وفيه أسس دستورية محددة ، وله أركان واضحة لبناء الدولة
- ٥- تبين لنا من خلال الوثائق السياسية التي عقدها الرسول ﷺ أن التدرج هو سنة دائمة ، وأن السياسي الحاذق لا يمكنه أن يطالب الناس بنفس معايير الالتزام والانضباط للصف المسلم ، فكل مستواه ونصيبه .
- ٦- كان النبي ﷺ لا يطالب الأقاليم الداخلة حديثاً في الإسلام ، والقريبة من المدينة بالتكاليف العبادية من صلاة ، وزكاة ، وجهاد ، وصوم ، وغير ذلك . ولكنه كان يقيم معهم تحالفاً سياسياً قائماً على التناصر ، وذلك لأن هذا الأمر مرجوع إلى أولي الأمر في اختيار الأولى ، فإن الجهاد والصلح شريعتان قائمتان .
- ٧- كان اهتمام النبي ﷺ هو احتواء العرب وقبائلهم إذ هم حملة الإسلام ، فقد استطاع رسول الله ﷺ أن يخط معالم المشروع القومي الإسلامي ، وذلك بتوحيد شبه جزيرة العرب تحت راية الإسلام .
- ٨- بعد أن توحدت القبائل المتواجدة في شبه جزيرة العرب أنطلق المسلمون في فجاج الأرض وعبر بحارها يبلغون دعوة الله ، فأرسل الرسول ﷺ رسائله إلى الملوك والأمراء تأسيساً لعهد جديد في بداية النظام العالمي الإسلامي الجديد .

٩- توصلت إلى مواصفات محددة للرجل السياسي الاسلامي ، وذلك من خلال استعراض جهود سفراء النبي ﷺ ، وبيان مواصفاته التي أهلتهم لهذا الاختيار ، وأن هذا مما يجب أن نقتدي به في واقعنا الإسلامي الراهن .

١٠- كانت الدولة الإسلامية سباقة في الأخذ بمختلف الوسائل النافعة في إدارة الصراع من جمع معلومات ، وتخطيط محكم ، ومعرفة بواقع الأعداء ، وفاعلة . وكذلك جهاز متابعة دقيق قائم على رقابة الله ﷻ ، وقد تجلت كل هذه الأسس في استعراضنا لجملة من الوثائق السياسية مثل التحالف مع نعيم بن مسعود الأشجعي ، وغيرها .

١١- أثبتت الدراسة من خلال الوقوف على الوثائق والمعاهدات أصالة الفكر السياسي الاسلامي ، وأنه ليس كما يدعي بعض المتأثرين بالفكر الغربي أنه مستمد من الفكر اليوناني ، وإنما هو فكر أصيل يعتمد على الوحي المعصوم .

١٢- أرى في نهاية دراستي هذه أنه ينبغي أن تصرف همم الدارسين والباحثين بالرجوع الى المتبعين الأصيلين - القرآن والسنة - من أجل التأسيس للكثير من الأفكار المعاصرة في مختلف الجوانب ، وحتى تظهر حقيقة صلاحية هذا الدين لكل زمان ومكان .

هذه أهم النتائج التي خرجت بها هذه الأطروحة . والله أعلم وأرحم .
والحمد لله أولاً وآخراً .